الدكتور فيصل السامر

الدولة الحمدانية

في الموصل وحلب

الجزء الثاني

الحمدانيون في حلب

ساعدت جامعة بغداد على نشره

مطبعة الجامعة ١/ ١٠٠٠/ ١٩٧٣

الدكتور فيصل السامر

الدولة الحمدانية

في الموصل وحلب

الجزء الثاني

الحمدانيون في حلب

ساعدت جامعة بغداد على نشره

مطبعة الجامعة ١/١٠٠٠/١٩٧٣



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تصدير

اشتمل الجزء الاول من مؤلفي هذا (١) على ثلاثة ابواب : الاول عن ظهور الحمدانيين ، وقد ضم اربعة فصول هي : روح العصر ، نسب الحمدانيين ، الحمدانيون والخوارج ، الحسين بن حمدان في خدمة الخلافة . وكرست الباب الثاني لتاريخ الحمدانيين السياسي في الموصل ، وهو يقع في ثلاثة فصول هي : اقليم الجزيرة ، عهد ناصر الدولة ، خلفاء ناصر الدولة . اما الباب الثالث فقد خصصته للكلام على حضارة الحمدانيين في الموصل والجزيرة ، فتحدثت في الفصل الاول عن النظم الادارية والمالية، وفي الثاني عن الحالة الاقتصادية ، وفي الثالث عن الحياة الثقافية والاجتماعية .

اما الجزء الثاني فهو مكرس برمته لبحث تاريخ الحمدانين في حلب والشام وهو يشتمل بدوره على ثلاثة ابواب : الاول عن التاريخ السياسي ويضم اربعة فصول هي : اقليم الشام ، سيف الدولة ، قيام الدولة الحمدانية في حلب ، خلفاء سيف الدولة . وكرست الباب الثاني لعلاقات الحمدانيين مع الروم وهو يضم ثلاثة فصول : الحدود العربية البيزنطية ، حروب سيف الدولة مع الروم ، الحرب مع الروم في عهد خلفاء سيف الدولة . ويقع الباب الثالث وهو مكرس للحضارة والثقافة في خمسة فصول هي : حلب عاصمة سيف الدولة ، نظم الحمدانيين في الشام ، الحياة الاقتصادية ، الحياة الثقافية ، المجتمع الحمداني .

انني انصح القارىء الكريم بالرجوع الى مقدمة الجزء الاول (٢) التي حاولت فيها باسهاب نطاق البحث ، حيث بينت ان تاريخ الدولة الحمدانية يمتد نحو مائة عام ، اى منذ قيام امارتهم في الموصل في سنة ٢٩٣ هـ

---

(١) مطبعة الايمان ـ بغداد ١٩٧٠ .

(٢) صفحات ٣ ـ ١٠ .

(٩٠٥ ــ ٩٠٦ م) حتى سقوط امارتهم في حلب في سنــة ٣٩٢ هـ (١٠٠١م) ، واوضحت اهمية هذه الدولة العربية التي وقفت سدا منيعا في وجــه الروم ، وكانت مركزا عظيما من مراكز الاشعاع الثقافي والجذب الفكري فـي تلك الحقبة الزاهرة حضاريا من تاريخ الدولة العربية الاسلامية .

انني لاارى ثمة من داع للحديث عن مصادر هذا البحث (٣) ، لانني وفيته حقه في مقدمتي عن المصادر التي ضمنتها الجزء الاول (٤) ، والتي اشرت فيها الى الكتب الخطية والمنشورة قديمها وحديثها العربية منهــا والاجنبية . غير انني اود ان اوجه نظر القارىء الكريم الى انني الحقـت بالجزء الثاني هذا قائمة مستقلة للمصادر المتعلقة بالحمدانيين في الشام ، لعلمي بانها ذات جدوى لمن يريد الرجوع اليها من الباحثين والمختصين .

واود ان اكرر ما قلته في خاتمة الجزء الاول ، وهو انني اعترف للقارىء الكريم بان هذا الكتاب كان يجب ان يصدر في مجلد واحد ، غير ان اصداره في مجلدين مستقلين لايعني ان هناك انفصاما وانفصــالا بين تاريــخ الحمدانيين في الجزيرة والشام ، بل بالعكس ، فقد وجد القارىء فــي الاول وسيجد في الجزء الثاني ، ان الموضوع وحدة كاملة متكاملــة ، وان تجزءته على هذا النحو كانت لمجرد ضرورات مادية وفنيــة .

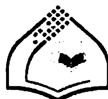
انني ارجو ان اكون قد وفقت الى ايفاء الموضوع حقه وان يكون بحثي ذا فائدة في احياء جانب مهم من تاريخنا والله من وراء القصــد .

(٣) ان هذا البحث بجزئيه هو في الاصل الرسالة التي نلت بها درجــــة الدكتوراه من جامعة القاهرة في سنة ١٩٥٣ .

(٤) صفحات ١١ ــ ٢١ .

الباب الأول

التاريخ السياسي



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الاول

اقليم الشام

الشام في المصادر العربية ـ جغرافية الشام الطبيعية ـ السكان

الشام في المصادر العربية :

اطلق العرب القدامى ـ وبخاصة اهل العراق ـ اسم الشام (١) على كل ماكان يقع وراء نهر الفرات(٢) وهو الاقليم الذي يحده بحر الروم(٣) (البحر الابيض المتوسط) غربا ، والبادية من ايلة(٤) الى الفرات ثم من الفرات الى حدود بلاد الروم (آسية الصغرى) شرقا ، وبلاد الروم حتى الثغور شمالا ومصر وصحراء سيناء حتى رفح جنوبا (٥) . وقدم كاتب حلبي عاش في القرن الحادي عشر تعريفا لحدود الشام اوسع من التعريف الذي ذكرناه ، فهو يقول (٦) ان الشام يحيط به من جهة الجنوب حد يمتد من رفح الى صحراء سيناء الى مابين الشوبك وايلة الى البلقاء ، ويحيط به من جهة الشرق حد يمتد من البلقاء الى مشارق صرخد اخذا على اطراف الغوطة الى سلمية الى مشاريق حلب الى بالس ،

(١) وقيل الشام والشأم (محمد كرد علي ، خطط الشام ١/٤٧) .
(٢) ابن حوقل . صورة الارض ص١٥٤؛ المقدسي . احسن التقاسيم ص١٥٢ .
(٣) ويقال له ايضا بحر الملح او بحر الشام (محمد كرد علي ، خطط الشام ١/٩٤)
(٤) ايلة : مدينة قديمة على البحر الاحمر (القلزم) وهي على مقربة من العقبة اليوم «خطط الشام ١/٤٩»
(٥) ابن حوقل ، صورة الارض ص١٥٣ . الاصطخري . المسالك والممالك ص ٥٥ ، القلقشندي . صبح الاعشى ٤/٧٥ ـ ٧٦
(٦) محمد كرد علي . خطط الشام ١/٤٩

ويحيط به من جهة الشمال حد يمتد من بالس مع الفرات الى قلعة بخم الى البيرة الى قلعة الروم الى سميساط الى حصن منصــور الى بهني الى مرعش الى بلاد سيس الى طرسوس •

وقد اختلفت الاقوال في معنى اسم الشام فقيل انما ســمي بهــذا الاسم لانه واقع الى يسار الكعبة واليد الشومى هي اليسرى (٧) وقيل لانه شامة الكعبة (٨) ، وقيل من تشاؤم الناس اليه او لشامــــات حمــر وبيض وسود في ارضه (٩) وقيل كذلك ان الاسم مأخوذ من شوم الابل وهــي سوادها (١٠) ، وقيل بل سمي بهذا الاسم لكثرة قراه وتداني بعضــــها على بعض فتشبهت بالشامات كما جوزوا ان يكون الاسم مأخوذا مــــن الشؤم (١١) • ومهما يكن فأن اسم الشام هو الذي اطلقه العرب على القطر الذي يتناول عامة البلاد الداخلة اليــوم فــي فلسطين وســورية بحسب الاصطلاح الحديث • اما سورية فأسم اطلق على اقليم الشــام منذ عهــد الفراعنة واصله (اشــورية) وهــــي تسمية اغريقيــــة اطلقــــت على البلاد التي خضعت للاشوريين • وقيل انه سمي بسورية نسبة الى صــــور ثغر الشام القديم (١٣) •

قسم الجغرافيون العرب القدامى اقليم الشام الى كــور او اجنــاد واستعمل لفظ الكورة للدلالة على التقسيمات الادارية • اما لفظ «جند» فهو مصطلح عسكري ــ اداري • واصل تسمية الشام اجنادا ان ولايــة الاعمال في عهد الفتوحات الاسلامية الاولى كانت اقــرب الــى التنظيم العسكري في باديء الامر • وكان العمال او الولاة هم قادة الجند الذيــن

---

(٧) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ١/١٣

(٨) المقدسي ، احسن التقاسيم ص ١٥٢

(٩) نفس المصدر والمكان

(١٠) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ١/١٣

(١١) خطط الشــام ١/٤٨

(١٢) نفس المصــدر ١/٤٧

(١٣) نفس المصــدر والمكان

يفتحون بلدا من البلدان • وقد سار ابو بكر على هذا النظام في فتح الشام فعقد اللواء لاربعة قواد ولى كلا منهم البلد الذي سار لفتحه ، فكانت الشام اربعة اجناد هي دمشق وحمص والاردن وفلسطين (١٤) • وقد سميت كل ناحية بأسم الجند او الفيلق الذين يتقاضون اعطياتهم فيها •(١٥) وفي عهد معاوية جعل الشام خمسة اجناد باضافة جند قنسرين الذي جعلت قصبته حلب (١٦) وكان من قبل ضمن جند حمص • اما الجند السادس وهو العواصم والثغور فكان جزء من حمص فأفرده الرشيد عنه وجعله جندا مستقلا قصبته انطاكية (١٧) وهكذا اصبحت الشام ست كور او اجناد هي فلسطين والاردن ودمشق وحمص وقنسرين والعواصم والثغور ، وقد جرى على هذا التقسيم الاداري اغلب الجغرافيين العرب (١٨) •

ولما كان سيف الدولة قد اقام دولته في سورية الشمالية ، فسوف تقصر حديثنا على الاجناد الشمالية الثلاثة قنسرين وحمص والعواصم •

تعتبر حلب قصبة قنسرين ومنؤجل الكلام عليها لانها تستحق منا اهتماما خاصا باعتبارها حاضرة الحمداليين في الشام • وسمي قنسرين لسبة الى مدينة فيه بهذا الاسم وكانت ضيقة المساحة غنية رخيصة الاسعار «لكنها كانت نزهة الظاهر واسعارها رخيصة وخيراتها واسعة ومياهها وفيرة (١٩) •وقد اكتسحها الروم في النصف الثاني من القرن

---

(١٤) جرجي زيدان . التمدن الاسلامي ١/١١٩ ــ ١٢٠

(١٥) خطط الشام ٥/٦

(١٦) الغزي .نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٢٠

(١٧) نفس المصدر والمكان

(١٨) المقدسي ص ١٥٤ ، ابن حوقل ص ١٥٤ ، الاصطخرى المسالك والممالك ص ٥٦

---

(١٩) ابن حوقل (بيروت) ص ١٦٤ . يقول ابن خرداذبة (المسالك والممالك) ص(١٥) ان كور قنسرين هي مصرة مصيرين ومرتجوان وسرميين ودلوك ورعبان وحلب

الرابع فدمروها (٢٠) • ولما زارها ابن جبير في القرن السادس لم يشهد سوى آثارها واطلالها ، وان ظلت قراها عامرة (٢١) ، ومن مدن هذه المنطقة المهمة معرة النعمان التي نسب اليها الشاعر الفيلسوف ابو العلاء ، وكانت هي وما حولها من القرى تعتمد في زراعتها على الامطار ، ومع ذلك اشتهرت بخيراتها الكثيرة • ويعدد ابن حوقل (٢٢) خيرات هذه الجهات فيذكر التين والفستق والكروم • ويتحدث عن حصن برزويه الحصين المبني من الحجر ، وحصن الخناصرة الذي يحاذي قنسرين الى ناحية البادية والذي سكنه الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٢٣) • ومن مدن هذا الجند معرة مصرين وسرمين اللتان لاتبتعدان كثيرا عن حلب ، تقعان في جبل السماق ، وقد اشتهرت سرمين بكثرة مساجدها (٢٤) •

كانت حمص عاصمة الجند الذي سمي بها ، تقع في سهل خصب وتمتاز بجودة مناخها (٢٥) ، ولم يكن بالشام بلد اكبر منها • وقد امتازت بقلعتها الحصينة الشاهقة ونهرها الذي يروي اراضيها (٢٦) • ويصف المقدسي حمص بقوله (٢٧) «حمص ليس بالشام بلد اكبر منه ؛ وفيه قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج • اكثر شربهم من ماء المطر ولهم ايضا نهر •••» ومن مدن هذا الجند سلمية وتدمر التي كانت واسعة حسنة

---

(٢٠) نفس المصدر « ليدن » ١٧٨/١
(٢١) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥
(٢٢) صورة الارض (بيروت) ص ١٦٤ . انظر كذلك الاصطخرى ص ٦١
(٢٣) نفس المصدر ص ١٦٤ — ١٦٥
(٢٤) قدرها ابن العديم بثلثمائة مسجدا «بغية الطلب ج٢ ورقة ٢٢ ، جبل السماق (جبل عظيم من اعمال حلب الغربية يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع وهو فى شمال معرة النعمان . ياقوت٢/٢١) .
(٢٥) الاصطخرى ص ٦١
(٢٦) المقدسي ص ١٥٦
(٢٧) نفس المصدر والمكان

المناخ قريبة من البادية (٢٨) اما انطرسوس فحصن على البحر يحيط بـه سور حجري ، ويعتبر هذا الحصن ميناء حمص • وكانت شيزر وحماة مدينتين صغيرتين كثيرتي الشجر والمياه والزرع والفاكهة (٢٩) ، ويذكر المقدسي (٣٠) من مدن هذا الجند الخناصرة وكفرطاب واللاذقية وجبلة وانطرسوس وبلنياس وحصن الخوابي • ويضيف ابن خرداذبة (٣١) الى هذه عديدا من المدن مثل حماة وشيزر وافامية وجوسية والرستن والجليل والسويدا والحولة وغيرها ، وهو في الحق قد خلط بين جند حمص وجندي قنسرين وفلسطين •

وما دمت سأكرس فصلا خاصا من هـذا الكتاب لبحث العلاقات بين الحمدانين والروم ، فقد ارتأيت ان اؤجل الكلام على جند العواصم والثغور لعلاقته المباشرة بالحروب العربية البيزنطية على عهد الحمدانيين •

جغرافية الشام الطبيعية :

يعتبر موقع الشام (سورية) موقعا عظيم الاهمية ، فهي تطل على ابحر الابيض المتوسط الذي يربط قارات العالم القديم الثلاث آسيا وافريقية واوربا • وبسبب هذا الموقع الممتاز ، كانت سورية منذ القديم معبرا للاقوام والامم وجسرا مرت عليه الهجرات البشرية لوقوعها بين آسيا الصغرى ومصر وقربها من العراق والجزيرة العربية ومن ثم اقتحم هـذا الاقليم كثير من الاقوام قديما وحديثا كالحيثيين والاشوريين والمصريين واليونان والرومان والعرب والصليبيين ، فضلا عن الاقوام التي دخلتها في التاريخ الحديث • وقد تركت كل هذه الاقوام آثارا قوية او ضعيفة في تكوينها البشري وتراثها الحضاري ، غير ان العرب كانوا اقوى هؤلاء جميعا تأثيرا وطابعا •

---

(٢٨) نفس المصدر والمكان

(٢٩) ياقوت ، معجم البلدان ٣٢٤/٥ ، ٣٣٥/٣ «القاهرة»

(٣٠) ص ١٥٦

(٣١) المسالك والممالك ص ٧٥ ـ ٧٦

وقد جاء الفاتحون الى الشام برا وبحرا من الجهات الاربع • فقد غزاها الفراعنة بحرا وبرا ، والبابليون والفرس من الشرق والشمال . والاسكندر المقدوني والصليبيون والعثمانيون من الشمال ، وعازان وهولاكو وتيمورلنك من الغرب بحرا (٣٢) •

قسم المقدسي (٣٣) الشام من الناحية الطبيعية الى اربعة صفوف على حد تعبيره :

١ ــ الصف الاول : يلي بحر الروم وهو سهل رملي تقع فيه الرملة ومدن السواحل •

٢ ــ الصف الثاني : وهو الجبل، وهو كثير الشجر ذو قرى وعيون ومزارع وفيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وبيت المقدس والبقاع وانطاكية •

٣ ــ الصف الثالث : الاغوار وهي ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ومن مدنها ايلة وتبوك واريحا وبيسان وطبرية وبانياس •

٤ ــ الصف الرابع : سيف البادية وهي جبال عالية باردة «معتدلة مع البادية» ذات قرى وعيون واشجار ومن مدنها اذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب •

اما الجغرافيون المحدثون فقد ارتأوا تقسيم سورية الى خمسة نطق طبيعية تمتد من الشمال الى الجنوب هي من الغرب الى الشرق :

١ ــ السهل الساحلي المحاذي للبحر الابيض المتوسط من خليج الاسكندرونة حتى شبه جزيرة سيناء ، ويضيق هذا السهل في الشمال ويزداد ضيقا في قسمه الاوسط ، غير انه يزداد اتساعا في الجنوب • وهو سهل خصيب على وجه العموم بفضل ما يحصله من غرين نيل مصر •

---

(٣٢) خطط الشام ١/٥٢

(٣٣) احسن التقاسيم ص ١٨٦

٢ ـ يبدأ بجبل امانوس في الشمال وهو الذي يسميه العرب جبل اللكام (٣٤) وهو شعبه من جبال طوروس ويلتف هذا الجبل حول خليج اسكندرونه ، ويليه جنوبا الجبل الاقرع ، ويمتد الى قرب اللاذقيه حيث يعرف باسم جبل النصيريه (٣٥) • والى جنوب جبل النصيريه تقوم سلسلة لبنان الغربيه التي تمتد الى نهر الليطاني ، حيث نجد مرتفعات ذات اسماء عدة تتدرج في الانخفاض نحو المنطقة المحدبه المسماه النخب (٣٦) •

ومن الجدير بالذكر ان هذا النطاق الجبلي لايفصل السهل الساحلي عن الداخل فصلا تاما بسبب وجود فجوات منخفضة تتخلل جبل امانوس شرقي خليج اسكندرونة ، مما سهل المرور من البحر الابيض المتوسط الى سهول الجزيرة بطريق حلب •

٣ ـ ويتكون النطاق الثالث من اخدود ضيق يبدأ في الشمال عند الانحناء الذي يصنعه نهر العاصي نحو الغرب • واهم اجزاء هذا النطاق

(٣٤) ان لفظة اللكام ماخوذة من السريانية «اوكامـا» بمعنى الاسود ، اما الاتراك فيطلقون على هذه الجبال اسم جبل الكفار لانه يقع على الحدود البيزنطية في العصور الوسطى .
انظر : Hitti. History of Syria P, 33,
يقول الاصطخري (ص ٥٦) ان جبل اللكام يدخل في حدود بلاد الروم . ويطلق ابن حوقل (ص ١٥٤ ـ ١٥٦) عدة اسماء على جبل اللكام فهو يسمى بهذا الاسم الى ان يجتاز اللاذقية . ثم يسمى جبل بهرا وتنوخ الى حمص ثم يسمى جبل لبنان ، ثم يمتد في الشام حتى ينتهي الى بحر قلزم (البحر الاحمر) ويتصل بالمقطم . ومن جهة اخرى يستمر من اعمال آمد وميافارقين ونواحي دجلة الى الفرات حتى سميساط وحدود مرعش وحتى يصل الى بيت المقدس من جبل لبنان .
(٣٥) وهو جبل بهراء عند الاصطخري (مسالك الممالك ص ٥٥) .
Hitti. History of Syria. P, 38.
Smith. the Historical Geography of the Holy Land, P. 49

وادي البقاع حيث تقع بعلبك ووادي الاردن والبحر الميت ووادي عربة الذي يمتد الى خليج العقبة . لقد تكون هذا الاخدود بفعل الزلازل التي حدث آخرها في سنة ١٨٢٢ فدمر عدة مدن منها حلب.

٤ ــ وتعتبر جبال لبنان الشرقية اهم اجزاء النطاق الرابع ، ويبدأ جنوب حمص وينتهي بجبل حرمون . ويسمى هذا الجبل ايضا باسم جبل الشيخ ، ويسميه المقدسي جبل الثلج (٣٧) .

٥ ــ اما النطاق الخامس فهو السفوح الشرقية من هضاب حوران وهضاب الاردن . وهذه السفوح تنخفض حتى تتحول الى سهول وحرات (اى اراضي ذات حجارة سود والى كثبان رملية) تعرف ببادية الشام عدا الجزء الشمالي الذي يدخل ضمن صحراء جزيرة العرب . وتكون بادية الشام في الشرق وبادية الجزيرة في الشمال وبادية السماوة في الجنوب صحراء واحدة على شكل مثلث قاعدته خط يمتد من خليج العقبة الى خليج الكويت ورأسه عند حلب . وقد فرضت الطبيعة الصحراوية على السكان هنا حياة البداوة بما تمثله من حرب وغزو وتجوال ومحاولات حربية او سلمية لاقتحام الاراضي الخصيبة العامرة المحيطة بهذه البوادي .

تقع الشام في المنطقة التي تهب عليها الرياح العكسية شتاء والرياح الدائمة صيفا ، ومن ثم تمتعت بمناخ معتدل مطير شتاء وجاف حار في بقية الفصول . واذا شئنا ان نوزع نسبة الامطار ، يمكننا القول انها اكثر في المناطق الشمالية منها في الجنوبية . وفي الغربية اكثر منها في الشرقية . اما درجات الحرارة فترتفع كلما انحدرنا جنوبا . مع العلم ان المناطق الساحلية اكثر دفئا من المناطق الداخلية . وقد وصف المقدسي مناخ

---

(٣٧) احسن التقاسيم ص ١٦٠.

الشام فقال «ان الشام اقليم متوسط الهواء الا وسطه من الشراة الى الحولة فأنه بلد حار (٣٨)» •

قامت الدولة الحمدانية ـ كما اسلفنا ـ في الجزء الشمالي من الشام اي في المنطقة الممتدة من شمال دمشق حتى جبال طوروس • ويمكن تطبيق نفس التقسيمات الطبيعية التي اشرنا اليها على هذا الجزء من سورية • فهو يتكون من نطاق ساحلي تليه منطقة مرتفعات فمنخفض فهضبة واخيرا نطاق البادية • اما من ناحية المناخ ، فقد اسلفنا القول أن درجات الحرارة اقل في الشمال منها في الجنوب ، على حين تزداد كميات المطر كلما اتجهنا نحو الشمال •

وتتمتع بلاد الحمدانيين هذه بعدة انهار ذات فائدة عظيمة في ري المزروعات وفي تكوين المستوطنات البشرية ، فنهر الفرات يتاخم هذه البلاد من ناحية الشرق ويفيض في كل سنة من آذار الى ايلول واعلى ما يصل اليه فيضانه في شهر مايس ، وهو يطغي على السهول في موسم فيضانه فيزيدها خصبا (٣٩) •

وينبع نهر العاصي قرب بلدة اللبون ويسير شرقي المرتفعات الغربية ثم ينحرف نحو الجنوب الغربي مارا بأنطاكية ، ثم يصب في البحر الابيض المتوسط بالقرب من السويدية ، ولحلب نهر يسمى قويق «مخرجه من قرية تدعى سبتات (٤٠) « والواقع ان منبعه من منطقة عينتاب وغوره في المسطح (٤١) وكان يجري في عصر سيف الدولة في الشتاء وينضب في الصيف (٤٢) • وحين دخلت سورية حوزة الاتراك العثمانيين حولوا نهر قويق

---

(٣٨) احسن التقاسيم ص ١٧٩
(٣٩) الغزى . نهر الذهب ٢٦/١
(٤٠) ياقوت . معجم البلدان ٢٠٦/٣
(٤١) الغزى . نهر الذهب ٤٧/١
(٤٢) نفس المصدر ٤٩/١

الى تركيا ، اما الان فقد جف هذا النهر كلية (٤٣) • وتتصل بهـذا النهر قبل دخوله حلب عدة عيون فيعظم وتدور به الارحاء (٤٤) • وفي هذاالمعنى يقـول الصـنوبرى

وسربل بالارحـاء مثنى وموحـدا
كما سربلت غصنا مـن البان اوراق
وفاضت عيـون من نواحيـه ذرف
ولما تعاونها جفـون واحـداق

وهناك فى الجزء الشمالى الغربى من بلاد الحمدانيين السورية نهرا جيحان وسيحان اللذان ينبعان من جبال طوروس ويصـبان فى البحـر الابيض المتوسط • وتقع على الاول مدينتا كفـربيا والمصيصة وعلي الثاني اذنة وطرطوس (٤٥) •

وتوجد فى الشام الشمالى بعض البحيرات الكبيرة مثل بحيرة افامية (قلعة المضيق اليوم) وتتصل بنهر العاصى ، وبحيرة انطاكية وتتصل بهذ النهـر ايضا (٤٦) •

السـكان :

ان اقدم قبيلة معروفة سكنت الشـام هى (العمو) التى ورد ذكرها في الاثار المصرية وتعنى «الشعب» بالسامية • وقـد اختلطت هـذه القبيلة بذرية ود اخى آرام وبغيرها من القبائل التى سـكنت الشام الشـماليه ، وسمى هذا القبيل بالروقانو ثم قدمت سورية امم كثيـرة هى الاراميـون والعموريون والمواكبيون والفينيقيون والعرب مـن ذريـة اسماعيـل والادوميون (٤٧) •

---

(٤٣) انظـر Edde, Jacqe, Geographi_ du Liban et de la Syrie, P. 193
(٤٤) نهـر الذهب ٤٨/١
(٤٥) ابن حوقل ص ١٢٣
(٤٦) نهـر الذهب ٢٣/١
(٤٧) خطط الشام ٥٧/١ — ٥٨

ويعتبر الحيثيون الذين عرفهم اليونان باسم (خيطايوس) والعبرانيون باسم (خطي) من اقدم الشعوب التي نزلت في الحوض الاعلى من نهر الفرات وقزل ايرمق ، وقد اعتصموا في مضايق جبال طوروس . وهم شعب غير سامي مجهول اللسان (٤٨) اقام مملكة عاصمتها قادش على نهر العاصي ودخلت سورية ضمن املاكهم .

وبعد انقراض مملكة الحيثين في القرن الثامن قبل الميلاد على يد الاشوريين غلب اسم (آرام) على اغلب سورية بسبب سكنى الاراميين فيها ولكن هذه البلاد ظلت تتداولها ايدي الاشوريين والبابليين والمصريين حتى استولى عليها الفرس وظلت بايديهم حتى سنة ٣٣٣ قبل الميلاد ، حيث قضى الاسكندر المقدوني على دولة الفرس ، واصبحت الشام ولاية يونانية تابعة لسلوقس احد قواد الاسكندر ، وهو الذي اكمل بناء انطاكية وسماها باسم ابيه انطيوخس (٤٩) وظلت الشام خاضعة لحكم السلوقيين القاسي ، فلما ضاق الشاميون بحكامهم اليونان استنجدوا بملك ارمينية فاستولى على البلاد في سنة ٨٣ ق.م وظل فيها حتى احتلها الرومان في سنة ٦٦ ق.م (٥٠) وظلت سورية تحت حكم الرومان بعد انقسام دولتهم في ٣٩٥م الى غربية وشرقية ، فاصبحت ضمن املاك الامبراطورية الرومانية الشرقية (اى البيزنطية) حتى الفتح العربي .

وهكذا نجد من هذا العرض الموجز اقواما كثيرة تتابعت على حكم الشام ومن ثم اصبح فيها عناصر كثيرة من الساميين والحاميين والآريين والقفقاسيين والترك اى اصبح فيها بقايا من الاشوريين والبابليين والكلدانيين والكنعانيين والفينيقين والعبرانيين والحيثين والفرس والرومان

---

(٤٨) نفس المصدر والمكان
(٤٩) زبدة الحلب ١٦/١
(٥٠) خطط الشام ٩٣/١

واليونان والعرب (٥١) لكن جميع هذه البقايا من مختلف الأقوام ذابت في العرب واستعربت على مر الايام •

ان تاريخ العرب في الشام عريق فقد استوطنوا فيها منذ الفين وخمسمائة سنة وربما منذ اربعة الاف سنة (٥٢) • ذلك ان صلة الشام بالعرب عريقة في القدم بسبب ملاصقتها لشبه الجزيرة العربية وهجرة القبائل اليها ، وبخاصة اليمانية منها التي كثرت في جنوب الشام • وحين فتح المسلمون حلب وجدوا بجوارها قبائل عربية قديمة تقطن في مكان يدعى (حاضر حلب) كانت من تنوخ وغيرها (٥٣) •

وكانت العلاقات التجارية بين الشام وبلاد العرب من العوامل التى عززت الاتصال البشري واللغوي والحضاري ، وان رحلات قريش التجارية السنوية الى بلاد الشام امر معروف وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم (٥٤)

وقد شهدت الشام قبل الاسلام قيام عدة دويلات عربية في ارجائها مثل الانباط وتدمر والغساسنة ، وهى دويلات تجارية او دويلات حدود انشأتها القبائل العربية ومارست استقلالا واسعا او ضيقا بحسب الظروف الدولية يومذاك وبحسب قوة ملوكها وامرائها (٥٥) • وانه على الرغم من ان السريانية كانت لغة عامة فى الشام ولم تضمحل الا تحت حكم الرومان وسيادتهم • فان من الثابت ان العربية كانت منتشرة فى الشام قبل الفتح الاسلامي بزمن طويل بسبب نفوذ الغسانيين والتنوخيين والانباط (٥٦) •

---

(٥١) خطط الشام ٥٩/١

(٥٢) نفس المصدر والمكان

(٥٣) البلاذري . فتوح البلدان ص ١٤٥

(٥٤) لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ... ١٠٦٠٠ : ١-٢

(٥٥) انظر جرجي زيدان . العرب قبل الاسلام (دولة الانباط فى مشارف الشام ص ٨١-٩٧ ، دولة تدمر ٩٨-١٠٨ ، دولة الغساسنة ٢٠٧-٢٢٠

(٥٦) خطط الشام ٧٥/١-٧٨

الفصل الثاني

سيف الدولة

سيف الدولة والمؤرخون ـ طفولة سيف الدولة ونشأته ـ شخصية سيف الدولة .

سيف الدولة والمؤرخون

ان سيف الدولة شخصية ذات شهرة تاريخية ذائعة ، ولانبالغ اذا قلنا انه كان واحدا من اعظم حكام العرب والمسلمين قاطبة . وقد استمد هذا الامير الحمداني شهرته العريضة من مصدرين : حروبه مع الروم واهتمامه العظيم بالثقافة . وانه لينذر ان يخلو من ذكر سيف الدولة كتاب في التاريخ أو الادب يبحث في القرن الرابع الهجري (ألعاشر الميلادي) سواء كان كتابا شرقيا او غربيا . وقد عني مؤرخو الدولة البيزنطية بسيف الدولة ومجدوا بطولته واعتبروه اقوى خصوم الاباطرة الروم يومذاك ، حتى ان الامبراطور نقفور فوكاس الف كتابا عن حروبه مع سيف الدولة . وقد تركت شخصية هذا الامير العربي انطباعا قويا في اذهان المعاصرين من البيزنطيين حتى اطلق عليه المتعصبون منهم لقب (الكافر الحمداني) ونحت له آخرون اسما بيزنطيا هو(اوبوخوداس) Opchoudas مما يدل على انه اصبح عندهم بطلا من ابطال الاساطير(١)

اما المحدثون من الغربيين فقد افاضوا في الحديث عن سيف الدولة وشغفه بالادب فكتب عنه فريتاخ (٢) وشلمبرجر وكنار (٣) . وجعل اندريه

---

(1) Schiumberger un Empereur Byzantin au Dixieme Siecle, P. 120

(٢) Froytag, Geschilhte

(٣) وهو منتخبات من النصوص العربية

ديفنس من حياة هذا الامير العربي قصة شيقة خلابة (٤) ، ويقـــول غوستاف شلمبرجر (٥) : «ان سيف الدولة شغل اذهان المؤرخين والكتاب والشعراء في القرن العاشر ، فما ان تقرأ صفحة لمؤرخ بيزنطي او قطعة لكاتب من كتاب ذلك العصر ، او قصـيدة من قصائد شاعر من شـعراء العرب او اليـونان حتى يجذبـك الحديث عـن شخصيه هـذا الخصم الجذاب الذى قاتل الامبراطورية البيزنطية بفرسان كان نصفهم من شعراء البوادي ، وكان نصفهم الآخر من امراء الحواضر» .

وخلع الشعراء العرب المعاصرون على سيف الدولة شهرة عريضـة ، واضفوا عليه جميع صفات البطولة والشهامة والفروسية والذكاء والادب. بل وجعله بعضهم مادة لأدبه ، كما فعل شاعره ابو الطيب المتنبى ، الذى يرتبط شعره كل الارتباط بسيف الدولة ، وكما فعل ابن عمه الشـاعر ابو فراس وغيرهما من شعراء ذلك العصر . ويقول الثعالبي (٦) : ان كلا من ابي محمد الفياض الكاتب وابي الحسن الشمشاطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة الاف بيت . وحذا الادباء حذو الشعراء فألف بديع الزمان الهمداني مقامة خيالية سماها «المقامة الحمدانية» (٧) استوحاها من شـخصية سيف الدولة .

لذلك يجد الباحث امامه فيضا من المعلومات عن حياة هـذا الامير الحمداني المليئة بالاحداث الزاخرة بالنشـاط . غير ان مما يجعل الكتابة الموضوعية عنه صعبة شاقة ، عاملان اولها : ان الحقيقة تختلط بالاسطـورة والخيـال في كثير مما كتـب عنـه وثانيهما ان مادحـي سيف الـدولة الكثيرين من الشعراء والكتاب قد اضفوا عليه جميع الفضـائل ونزهوه

---

(٤) Le Roman de L,emir seif

(٥) سامي الكيالي ، سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص٢٧

(٦) يتيمة الدهـر ٢٨/١

(٧) مقامات الهمداني ص ٥٢–٥٣

من كل عيب ، ومن ثم فعلى الباحث الا ينساق وراء اقوال هؤلاء جميعا وان يتناولها بشـــىء من الحذر حتى يستطيع الوصـــول الى الحقيقـــة التاريخيـــة .

طفولة سيف الدولة ونشاته :

ولد ابو الحسن على سيف الدولة فى ليلة الأحد ١٧ من ذى الحجة سنة ٣٠٣ / ٩١٥م وقيل ســـنة ٩١٣/٣٠١م (٨) فى الموصل وقيـــل فى ميافارقين اشهر مدن ديار بكر ، والتى ســـماها اليونان مدينة الشـــهداء (Martyropolis) لانها حوت عظام شهداء النصارى (٩) . وابوه هو ابو الهيجاء عبدالله بن حمدان حاكم الموصل والجزيرة منذ سنة ٩٠٥/٢٩٣(١٠) ونحن لانعرف الشىء الكثير عن طفـــولة سيف الدولة وعن حياته المبكرة سوى تخيلات بعض الكتاب . والذى نعلمه حق العلم ان عليا سيف الدولة ولد وترعرع فى اسرة حاكمة ذات محتد كريم واصل نبيل فلابد انه عاش طفولة اسعد من اترابه ونعم بتربية تليق بأمثاله من ابناء الأسر الحاكمـــــة . ومع ذلك فنحن نستطيع القول بأن ابا الهيجاء لم يتح له ان يكرس جانبـــا كبيرا من وقته للعنـــاية بأهله وولده لانشـــغاله بالحروب ، والمؤامرات السياسيـــة في بغداد ، تلك المؤامرات التي اودت بحياتـــه فـــي سنـــة ٩٢٩/٣١٧م(١١) ، وسيف الدولة علي مازال يومئذاك فى الرابعة عشرة من عمره على اصح الروايات . ويبدو كذلك ان الحسن ناصر الدولة كان هو الذى تولى رعاية اخيه الاصغر ، خاصة وقد كان ـ اى ناصر الدولة ـ الحاكم الفعلي للموصل منذ سنة ٩٢٠/٣٠٨م(١٢) ،ولذلك حفظ سيف

---

(٨) ابن خلكان . وفيات الاعيان ٨٢/٣ . ابن الاثير . الكامل ٨ـ٢٢٩
(٩) المقدسى . احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٤٠
(١٠) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٢٠٣ ومابعدها .
(١١) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٢٠٩
(١٢) وفيات الاعيان ١٧٥/١ ؛ ابو الفدا . المختصر فى تاريخ البشر ٨٣/٢

الدولة لاخيه الاكبر هذا الجميل واظهر له الاحترام والاجلال ، الى حد انه نزع خفيه بيده حين زاره بحلب فى سنة ٣٤٧/ ٩٥٨(١٣) ، ويذكر المؤرخون ان ناصر الدولة كاد ان يفقد عقله حين توفي سيف الدولة في سنة ٩٦٦/٣٥٦م (١٤) .

ويتخيل اندريه ديفنس (١٥) طفولة سيف الدولة فيصفها على هذا النحو : «ما ان استوى سيف الدولة على قدميه واخذ يخطو خطواته الاولى حتى لمس المحيطون به انه سيكون اجمل ذرية حمدان . كان وجهه يشرق بابتسامة كابتسامة الياسمين في الربيع ، وكانت عيناه تلمعان لمعان النجوم .. وقد امتلاء قلب امه سعادة به ، وكانت ابتسامته تتفتح كتفتح البراعم في الصباح . كان ذكاؤه وقادا ومدهشا فاسلمه ابوه الى خيرة علماء الموصل ، وحكمائها ، فلقنوه العلوم ودرسوه الادب والشعر . لقد كان هم ابيه ان يجعل منه عالما يتفوق على جميع علماء بلاطه» .

ويصف سامي الكيالي (١٦) طفولة سيف الدولة وصفا لايختلف في مضمونه عن تخيلات ديفنس ويضيف انه « لم يكد الامير سيف يبلغ العقد الاول من حياته حتى اسلمه ابوه الى العلماء والحكماء يدربونه ويلقنونه الحكمة وصنوف العلم . وقد كان ذكاؤه خير مشجع له ان يزدرد حكمة وعلوم ذلك العصر ، اي ان يأخذ من كل شيء بطرف ، وان يهز قلبه الادب والشعر اكثر من كل شيء ، وان يكون لهوه في القنص وركوب الخيل والرمي» .

وقد نشأ سيف الدولة وترعرع بين الموصل وميافارقين ونصيبين

---

(١٣) مسكويه ، تجارب الامم ١٧/٢ ، تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٥

(١٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ١٧٥/١

(١٥) نقلا عن سامي الكيالي ، سيف الدولة ص ٢٨-٢٩
Le Roman de L,emir seif

(١٦) سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص ٢٨-٢٩

وسط الاضطراب السياسي الذى طبع اقليم الجزيرة يومـذاك ، والذى تعرضنا له في الجزء الاول من هذا الكتاب . ويبـدو انه تعلم وتثقف في صباه فعلا على ايدى كوكبة من العلماء والمؤدبين المشاهير في عصره مثـل ابن خالويه (١٧) وسوف ترى كيف انه برهن في حياتـه المقبلة على ملكة ادبية ملموسة . وهذا يميزه تماما عن اخيه الاكبر ناصر الدولة الذي لـم يؤثر عنه كبير اهتمام بالعلم والادب ، وان كنا نستطيع ان نجد له عذرا في انه حمل اعباء الحكم عن ابيه في سـن مبكرة فلم يتـح له من الفراغ والدعـة ماتيح لاخيه سيف الدولة، هذا فضلا عن الميول الشخصيـة والفروق الفردية واختلاف المزاجين واستقرار سـيف الدولة في بيئة أكثر تمدنا واوفر حظا من الترف كما سنرى .

ومنذ سـن مبكرة زج سيف الدولة نفسه فى اتون الحروب وخاض غمار المعامـع ، فكانت اولى وقائعه فى سنة ٣٢١/٩٣٢م ، حيث اوقـع بعمر بن حابس الاسدي وبنى ضبة ورباح التميمي عنـد رأس العين (في ديار ربيعة) فأحرز عليهم نصرا سجله المتنبي في احدى قصـائده (١٨) .

ثم نسمع عن نشاط سيف الدولة في سـنة ٣٢٧/٩٣٨ م يوم قـاد الصائفة لحماية الثغور (١٩) وقد رأينا « في الجزء الاول » كيف، انعم عليه الخليفة الراضي بالله في سنة ٣٣٠/٩٤١م ولقبـه سيف الدولة لبلائـه في الحروب ونصرته للخلافة . ونجده ابتداء من تلك السنة يلقي بنفسـه في خضم الاحداث السياسية ، فيترك الموصل الى بغداد ليساعد اخاه ناصر الدولة عند توليه «امرة الامراء» . ولاحاجة بنا هنا الى اعادة الكلام على حربه مع البريديين وانتصاره عليهم في سـنة ٣٣٠ ، وحربه مع نـوزون

---

(١٧) القرماني : اخبار الدول ص ٢٦٥ .

(١٨) شرح ديوان المتنبى للبرقوقي ١١٩/٤ ومابعدها .
ومطلعهـا :
ذكر الصبا ومرابع الارام   جلبت حمامي قبل وقـت حمامـي

(١٩) الصولي . اخبار الرا ضي وا لمتقي ص ٢٦٥

وعودته الى الموصل في سنة ٣٣٢/٩٤٣م (٢٠) بعد ان اخفق هو واخوه في حكم بغداد (٢١) .

شخصية سيف الدولة :

كان سيف الدولة شجاعا جريئا مقداما . وضع روحه على كفه فقاد جيوشه في كل ميدان ، ولم ينقطع عن الحرب الا حين اقعده المرض. وقد وصفه الثعالبي بقوله (٢٢) «.. غرة الزمان وعماد الاسلام ومن به سداد الثغور وسداد الامور . وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها وغزواته تدرك من طاغية الروم الثأر وتحسم شرهم المثار ..» والحق ان سيف الدولة قام بفريضة الجهاد في (دار الحرب) خير قيام ، حتى بلغت غزواته الاربعين غزوة في بلاد الروم (٢٣) ، ويقال انه كان قد جمع من هذه الغزوات الغبار الذى يقع عليه فصنع لبنة بحجم الكف اوصى ان يوضع خده عليها حين يلحد (٢٤) ، وقد اعترف بشجاعة سيف الدولة حتى اعدائه فألف الامبراطور البيزنطي نقفورفوقاس Phocas كتابا عن حروبه معه . ووصف شلمبرجر سيف الدولة بالشجاعة النادرة التي لاتعرف الوهن ، وقال عنه : ان الحياة بنمطيها كانت تستوى عنده سواء في القصر او في الخيام(٢٥) .

وكان سيف الدولة فارسا شهما ، فقد برهن في بعض المواقف — خلال حروبه مع الروم — على شهامة وفروسية تذكرانا بصلاح الدين الايوبي خلال جهاده مع الصليبيين . والواقع ان هناك وجها للمقارنة بين هذين الاميرين فكلاهما رفع راية الجهاد ضد الخطر الاجنبي ، وكان

---

(٢٠) مسكويه ، تجارب الأمم ٢/٣٣٢

(٢١) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٢٤٠ — ٢٥٣

(٢٢) يتيمة الدهر ١/٢٧

(٢٣) نفس المصدر ١/٤٠

(٢٤) الذهبي ، دول الاسلام ١/١٧٣

(٢٥) Schlumberger, un Empereur, P. 121— 12 2

كلاهما محاربا من الطراز الاول . وفي حقل الثقافة نجدهما فرسي رهان فكما اعتنى سيف الدولة بالادب والشعر والعلوم واحاط نفسه بطائفة من ابرز مثقفي العصر ، فقد حدب صلاح الدين على المعرفة وأسس المدارس في مصر والشام . وكما افرط سيف الدولة في الكرم حتى ضربت به الامثال ، فقد كان صلاح الدين يوزع جميع امواله على رجاله حتى لايبقى لنفسه منها شيئا (٢٦) .

ان من ابرز امثلة فروسية سيف الدولة انه حين أسر قسطنطين ابن الدمستق ومرض في الاسر كان يعنى به بنفسه ، ولما توفي اعتنى بدفنه وعزى اباه (٢٧) على الرغم من العداء الحاد بينهما . ومن امثلة شهامة سيف الدولة كذلك انه لما هزم الاخشيديين في سنة ٣٣٣/٩٤٤م منع جنوده من قتل الفارين قائلا لهم : «الدم لي والمال لكم» ثم اطلق سراح جميع الاسرى(٢٨) . ويروى فى هذا الصدد ان سيف الدولة لما هزم قبائل كلب وقشير وبنى العجلان الذين ثاروا ضده عف عن حريمهم واكرم اسراهم(٢٩) .

اما جود سيف الدولة وكرمه فمضرب المثل ، حتى اصبح محط رجال العلم والادب من كل فج عميق ، وقيل «انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك — بعد الخلفاء — ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر(٣٠) .

ان امثلة جود سيف الدولة كثيرة لاحصر لها ، حتى ان صاحب اليتيمة خص لها فصلا بذاته (٣١) وقال : ان سيف الدولة امر بضرب

---

(٢٦) Hi'ti, History of Syria , P. 505

(٢٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ١/١٢٣ ، ١٢٤ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطرة ج١ ورقة ٩٢ب-٩٣أ .

(٢٨) نفس المصدر ١/١١٣

(٢٩) شرح ابن خالويه لديوان ابى فراس ٢/١١

(٣٠) يتيمة الدهر ١/٣٢ - ٣٥

(٣١) نفس المصدر ١/٣٢ - ٣٥

دنانير للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل ، وعليه اسمه وصورته ، كان يهدى منها العشرات للشعراء المجيدين . وقد وصف المعاصرون سيف الدولة بحدة الذكاء وسرعة البديهة وحضور الخاطر ، كما وصفوه بسعة الاطلاع وعلو الكعب في الادب ونظم الشعر ، ونحن لانريد هنا ان تتقصى أخبار سيف الدولة الادبية فأن لها موضعا آخر .

كانت ابرز صفات سيف الدولة الطموح الوثاب . وقد مكنته مواهبه الشخصية وظروف عصره من ان يحقق مطامحه ويقيم لنفسه ولذريته دويلة امتدت في جميع ارجاء سورية الشمالية وسط منافسات وصراعات دامية تميز بها ذلك العصر . ومما ساعد سيف الدولة على النجاح انه امتاز على كثيرين من معاصريه من الحكام بعدم افراطه في الملذات . وهو وان لم يكن عزوفا عن اللهو والانس ، لكنه لم يطلق لنفسه العنان في هذا المجال ، بل انه ظهر في اغلب الاحوال بمظهر الوقار والجد ، مما اكسبه الاحترام وعزز هيبته في قلوب الرجال .

لكن سيف الدولة لم يكن منزها من العيوب ، فالى جانب محاسنه التي اشرنا اليها كانت فيه عيوب ومآخذ لم يغفل عن ذكرها بعض المؤرخين . وقد لخص ابن ظافر الازدي صفات سيف الدولة واخلاقه المتناقضة في هذه العبارة القوية الجامعة : كان سخيا كريما شجاعا ، معجبا بآرائه ، محبا للفخر والبذخ ، مفرطا في السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لناظريه والعجب بآرائه ، سعيدا مظفرا في حروبه ، جائرا على رعيته ، اشتد بكاء الناس عليه ومنه (٣٢) .

ولعل من عيوب سيف الدولة التي دفعت المؤرخ ابن ظافر الى اتهامه بالجور على رعيته حتى اشتد بكاء الناس منه ، تلك السياسة المالية القاسية التي اتبعها الامير الحمداني واشتطاطه في جباية الضرائب ولجوءه

(٣٢) الدول المنقطعة (مخطوطة) ورقة ١٩ ب

الى مصادرة اموال التجار والاغنياء . وقد اثر عن قاضي سيف الدولة ابي الحصين قوله : «كل من هلك فلسيف الدولة ماترك» (٣٣) ويقال ان سيف الدولة ندم على ماكان يفعله قاضيه من مصادرة تركات الموتى ،حتى أنه داس على جثته عندما قتل في أحدى الغزوات في سنة ٣٤٩/٩٦٠م قائلا : «لا رضي الله عنك ، فانك كنت تفتح لي ابواب الظلم» (٣٤) .

ويروي التنوخي (٣٥) قصة ــ ان صحت ــ فهي تدين سيف الدولة بالقسوة التي لا مبرر لها وبتجاوز كل الحدود في سبيل فرض هيبته وسطوته يقول التنوخي : «اخبرني طلحة بن عبدالله بن قناش قال كنت يوما على مجلس حديث وانس بحضرة سيف الدولة انا وجماعة من ندمائه فادخل اليه رجل وخاطبه ثم أمر بقتله في الحال فالتفت الينا فقال : ماهذا الادب السيء ، وما هذه المعاشرة القبيحة التي نعاشر ونجالس بها ؟ كأنكم مارأيتم الناس ولاسمعتم اخبار الملوك ولاعشتم في الدنياولاتأديتم بأدب دين ولامرؤة . فتوهمنا انه قد شهد من بعضنا مالا يوجب هذا.. فقلنا : كل الادب انما يستفاد من مولانا اطال الله بقاءه ــ وهكذا كان يخاطب في وجهه ــ وماعلمنا انا عملنا مايوجب هذا ، فان رأى ان ينعم بتنبيهنا فعل ، فقال : مارأيتموني وقد امرت بقتل رجل مسلم، لايجب عليه القتل ؟ وانما حملتنى السطوة والسياسة لهذه الدنيا النكرة على الامر به طمعا في ان يكون فيكم رشيد يسألني العفو فيه فأعفو ، وتقوم الهيبة عنده وعند غيره ، فأمسكتم حتى اهرق دم الرجل وذهب هدرا . قال : فاخذنا نعتذر اليه ، وقلنا لم تتجاسر على ذلك . قال : ولا في الدماء . ليس هذا بعذر . قلنا : لانعاود واعتذرنا حتى امسك .»

ويروى المؤرخون حادثة عن سيف الدولة خالف فيها آداب الحرب

---

(٣٣) ابن العديم : زبدة الحلب ١/١١٢

(٣٤) نفس المصدر ١/١٣١

(٣٥) نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة « مخطوطة »ورقة ٤٨ آ ــ ب والنسخة المطبوعة ص ٧٣ (ط هندية ١٩٢١)

وقيم الفروسية . فأنه حين سد عليه الروم الطرق في سنة ٣٣٩/٩٥٠ م وحصروه في ممر ضيق ، قتل جميع الاسرى الروم الذين كانوا فيحوزته وقد تصدى المؤرخ صدرالدين(٣٦) للدفاع عن سيف الدولة فبرر هذا العمل بأنه لم يكن انتقاما ، وانما كانت حياة الامير الحمداني في خطر فلم يستطع ان يحمل الاسرى معه . كما ان اطلاق سراحهم يجعلهم ينضمون الى قومهم فيزداد الروم عددا وقوة . اما الانطاكي (٣٧) فقد نفى في الاساس وجود اسرى مع سيف الدولة في هذه الحادثة لان الروم كانوا قد استردوهم . وثمة حادثة اخرى تنسب الى سيف الدولة وتصمه بالقسوة ان صحت ايضا . فأنه حين تآمر عليه جنده في سنة ٣٤٦/٩٥٧م قبض عليهم فقطع ايديهم وارجلهم(٣٨) .

وانه وان كان سيف الدولة مستبدا برأيه لايحب استشارة احد منا قاده الى كثير من المآزق في حربه مع الروم كما سنرى ، الا انه ــ مع ذلك ــ كان اقل استبدادا برأيه وعنادا من اخيه ناصر الدولة . واذا وضعناهما في ميزان المقارنة ، وجدنا ان سيف الدولة يفضل اخاه كثيرا في القيم الاخلاقية . والحق ان شخصية سيف الدولة كانت تحوى جانبا رقيقا وعاطفيا ، حتى انه ندم ــ كما رأينا ــ على بعض التصرفات التي بدرت منه .

لقد حاول اسماعيل ادهم(٣٩) ان يحلل شخصية سيف الدولة في ضوء علم النفس فقال : «هناك بعض الانقسام في شخصية الامير الحمداني سيف الدولة . وشخصيته في الواقع كما نراها منحلة في شخصيتين متباينتين كل التباين : الشخصية الاولى الذكر ANIMUS والشخصية الثانية شخص الانثى (Anima) وهذا الانحلال في شخصية الرجل بسبب من

---

(٣٦) SAIFU DEULAH And His Times P. 115.

(٣٧) تاريخ الانطاكي ص ٧٦٨

(٣٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٧/١

(٣٩) مقدمة لكتاب سامي الكيالي ، سيف الدولة ص ٢١

أسباب عظمته التي خلدته على الزمن بين ابطال العرب ، ويمكن للباحث ان يلمس هذا الانقسام في الشخصية عند الامير الحمداني في حبه اقتناص الفرص وتصرفه فى الاحوال ، وامتلاكه الظروف وتوجيهها من جهة ، واستسلامه من جهة اخرى للغيب وللقدر • على ان هذا الانقسام الملحوظ فى شخص سيف الدولة ، ملحوظ ايضا في اشخاص جميع المغامرين من الاحياء الذين ذهبوا طي الزمن • على ان من المهم ان نلاحظ ان روح الرجل ANIMUS من شخص الامير الحمداني كان يتقوم بها جهاده وجلاده وروحه الحربية كما كانت تتقوم بروح المرأة ANIMA من شخصه روحه الشاعرة وطبيعته الفنية • والشخصية الاولى شخصية الرجل تبدو لك قوية من سيرة الامير الحمداني ، بينما شخصية الانثى تبدو ضعيفة بجانبها ، على ان هذا الضعف يعود بالاصل الى تغلب شخص الذكر فى روحه على شخص الانثى» •

الفصل الثالث

قيام الدولة الحمدانية في حلب

دور التهيؤ – الصراع مع الاخشيديين وقيام الدولة الحمدانية – تنظيم الدولة – المشاكل الداخلية

دور التهيـؤ :

كان اخفاق سيف الدولة في العراق بين سنتى ٣٣٠–٣٣٢/٩٤١–٩٤٣ م هو العامل الذى حفزه على ان يبحث عن مسـرح جديد لنشـاطه الزاخر وطموحه الوثاب . ذلك ان سيف الدولة لم يكن قانعا بتبعيتـه المطلقة لاخيه ناصر الدولة والعيش فى ظله تابعا له ، بل انه كان ينشد لنفسـه حياة اوفر حظا ترضى نزوعه الى المجد .

وكان ناصر الدولة قد ولاه بعد رجوعه من بغداد نصـيبين ، الا ان مواردها لم تكن لتكفيه فكان يقيـم بها على مضـض(١) . لذلك اتجه سيف الدولة بنظره الى بلاد الشام . وادرك ان الاستحواذ عليها امر في مقدوره ان يفعاله بسبب ضعف واليها الاخشيدى . والحق ان سيف الدولة كان منذ سنة ٣٣١ – اى منذ كان نائبا عن ناصـر الدولة بواسـط – يحاول ان يزهد الاتراك فى العـراق ويغريهم بان يقصـدوا الشـام معه ويستولوا عليه وعلـى مصرو «يضرب بينهـم وبين اخيـه فكانـوا يصدقونه فى اخيه ويأبون عليه فى البعد من العراق» (٢).

طلب سيف الدولة من اخيه ولاية كبيرة ترضى طموحه فأجـابه ناصر الدولة بقوله : « الشام امامك ومافيه احد يمنعك منه» (٣)ولعل

---

(١) انظر الجزء الاول ص ١٤٥ – ١٤٦

(٢) مسـكويه : تجارب الامم ص ٤٠

(٣) ابن العديم . زبدة الحلب ص ١١١

هذه الاجابة كانت ايحاء لسيف الدولة ان يستقل عن أخيه ، سيما وقد كان بين الاخوين ــ على الرغم من حبهما المتبادل ــ تنافس وعدم ثقة كثيرا ماعكرا صفو اخوتهما ، حتى ان سيف الدولة كتب لاخيه مرة :

رضيت لك العليا وقد كنت اهلها
وقلت لها بيني وبين اخي فرق
وما كان بي عنها نكول وانما
تجاوزت عن حقي فتم لك الحق
اما كنت ترضى ان اكون مصليا
اذا كنت ارضى ان يكون لك السبق (٤)

وهذه الابيات تظهر تألم سيف الدولة من معاملة اخيه له ،وتكشف عن ايثاره له على نفسه حتى انه قنع ــ وهو الذى يستطيع الوصول الى العلياء ــ بان يظل سائرا في ركابه متخلفا عنه . ويقول ابن العديم (٥) : ان سيف الدولة حين نزع خفي اخيه شعر بالالم لانه قدر انه اذا خفض له نفسه رفعه هو واجله عن مثل هذا العمل . لكن ناصر الدولة كان يريد ان يظهر للحاضرين ان سيف الدولة ــ وان ارتفع شأنه ــ فهو مازال بمثابة ولده او التابع له . وكان سيف الدولة انبل واعلى خلقا من اخيه فظل يحترمه ويحتمله على مضض على الرغم من اساءاته له .

كان سيف الدولة يتطلب لتنفيذ مشروع احتلال الشام المال والرجال مما لم يكن يتوفر لديه ، فقصد اخاه وسأله ان يمده بألف رجل وبقدر من المال . غير ان ناصر الدولة رفض هذا الطلب ورد على اخيه بجفاء وخشونة . ويصف لنا سيف الدولة بمرارة مقابلته لاخيه ومحاولته اقناعه بشتى الطرق ، حتى انه لجأ الى زوجة اخيه الاثيرة

---

(٤) القرماني ، اخبار الدول ص ٢٦٤
(٥) زبدة الحلب ١/١٢٥

فاطمة الكردية(٦) • ويقول سيف الدولة انه احس بريبة من أخيه فرحل على عجل ، غير ان رسولا تعقبه وسلمه رسالة من اخيه جاء فيها «انك قد كنت جئتني تلتمس كيت وكيت فصادفت مني ضجرا واجبتك بالرد • ثم علمت ان الصواب معك فكنت منتظرا ان تعاودني في المسألة فاجيبك فخرجت من غير معاودة ولا توديع والآن شئت فاقم بسنجار او بنصيبين فأني منفذ اليك ما التمست من المال والرجال لتسير الى الشام » (٧) فشكر سيف الدولة الرسول واعتذر لاخيه عن تصرفاته ثم سار الى نصيبين حيث جاءه الف رجل بارزاقهم ونفقاتهم وعددهم ودوابهم ومعهم خمسون الف دينار(٨) • وهكذا هيأ ناصر الدولة لاخيه الجيش الذي فتح به حلب وهيأ بذلك لدولة حمدانية حقيقية ان تقوم في شمالي سورية •

نريد هنا ان نقف قليلا لنحلل العوامل التي دفعت ناصر الدولة الى عدم اجابة اخيه الى طلبه اول الامر وموافقته فيما بعد • والواقع ان انانية ناصر الدولة ورغبته في ان يظل اخوه تابعا له تفسران رفضه ، غير ان شفاعة زوجة الاثيرة من ناحية وحبه في ابعاد اخيه عن منطقة نفوذه من ناحية اخرى دفعاه الى امداده بالرجال والمال • ولايستبعد ان طموح سيف الدولة ومقدرته العسكرية والسياسية كانا يخيفان ناصر الدولة ويشعرانه بالخطر على كيانه ، ولو كان هذا حسن النية في عونه لاخيه لزوده بجيش كبير يتيح له فتح حلب اذ ليس من المضمون ان يستطيع قائد بالف رجل فحسب الوقوف في وجه الدولة الاخشيدية صاحبة السلطة في الشام.ولولا براعة سيف الدولة واستغلاله الخلاف الداخلي بين حكام حلب واستمالته

---

(٦) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٢٠٧ — ٢٠٨

(٧) التنوخي ، نشوار المحاضرة (مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٣٢) ص ٤٣٠

(٨) نفس المصدر والمكان

بالقبائل العربية وتساهل الاخشيد في الصلح معه ، لما امكن بحال من الاحوال تكوين دولة حمدانية في سورية الشمالية بهذا الجيش الصغير •

الصراع مع الاخشيديين وقيام الدولة الحمدانية :

كانت حلب في يد محمد بن طغج الاخشيد يتولاها من قبل العباسيين• ولما عاد الاخشيد الى مصر سنة ٣٣٣ بعد مقابلته الخليفة في الرقة ولى عليها نائبه ابا الفتح عثمان بن سعيد الكلابي فحسده اخوته الكلابيون وراسلوا سيف الدولة ليسلموا اليه حلب(٩) كما ان العلاقات بين الحمدانيين والاخشيديين لم تكن وديه الى حد ان الاخشيد فكر في الاستيلاء على الموصل سنة ٣٣١ لولا ان معه الخليفة (١٠) • وكان الاخشيديون يعانون في هذه الحقبة من مشاكل جمه اهمها تهديد الفاطميين لهم من المغرب • وهكذا توفرت جميع الظروف المساعدة لسيف الدولة على دخول حلب وبخاصة انها لم تكن غريبة على الحمدانيين فقد تولاها الحسين بن حمدان من قبل (١١)•

استجاب سيف الدولة لدعوة الكلابيين فسار في جيشه الصغير بطلب المجد وقد قوى امانه في النصر اختلاف الكلابيين وضعف الوالي •فلما بلغ الفرات لاقاه اخوه الوالي ابي الفتح واعلنوا ولاءهم ولم يلبث ابو الفتح نفسه ان استقبل سيف الدوله واعلن طاعته له فدخلا حلب معا في يوم الاثنين ٨ ربيع الاول سنه ٣٣٣ (١٢) • ويبدو ــ حسب روايه ابن الاثير (١٣) ان ابا الفتح كان يتولى حلب نيابة عن يانس المؤنسي الذي كان انذاك في مصر على حين يقول ابن ظافر (١٤) ان الوالي كان ابا العباس احمد بن سعيد

---

(٩) ابن العديم ، زبدة الحلب ح١ ص ١١١
(١٠) الصولي ، اخبار الراضي ص ١٣٧
(١١) بيشوف . تحف الانباء ص ٢٥
(١٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ١/١١٢
(١٣) الكامل ٨/١٧٥
(١٤) الدول المنقطعة (مخطوطة) ورقة ٥ آ .

الكلابي وليس عثمان ، غير أني ارجح رواية ابن العديم خاصة وقد اكدها ابن الاثـــير (١٥) .

كان محمد بن طغج الاخشيد هو عميد الاسرة الاخشيدية التى حكمت مصر فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى . وهو ينتسب الى عبدالله بن طغج بن جف بن ينتكين بن فور بن خاقان من فرغـانة (١٦). وكان جف ضمن الغلمان الذين جلبهم المعتصم من فرغانة واصطفاهم ، وطغج هو اصغر اولاده وهو ابو محمد الذى حكم مصر والشام (١٧) . وولى محمد بن طغج مصر لاول مرة من قبل الخليفة القاهر بالله العباسى فى رمضان سـنة ٣٢١ ثم وليها ثانية من قبل الراضي بالله على الصلاة والخراج بعد عزل احمد بن كيغلغ فى رمضان ٣٢٣ (١٨) .

وقد انتهز الاخشيديون ضـعف الخلافة وتغلب العمـال والولاة في القرن الرابع فأستولوا على مصر والشام وظلت مصـر تحت حكمهـم حتى استولى عليها الفاطميـون سنة ٣٥٨ على حين خرجت الشـام من ايديهم لما اسـتولى عليها الحمدانيـون .

حين لجأ المتقى الى الحمدانيين فرارا من توزون واقام في الرقة قصده

---

(١٥) يروى ابن العديم (١١١/١) قصة دخول سيف الدولة حلب بصحبة ابى الفتح . فيقول انهما عبـرا بقرية يقال لها ابرم قريبـه من الفايا (النايا) : جنوب منبج قرب وادي بطنان ــ يافـــوت ٤٨٩/٣) فسأله سيف الدولـــة عن اسم القرية . قال ابو الفتـــح : ابـــرم فسن سيف الدولة انه قد اكربه بالسؤال ، فقال له : ابرم من الابـرام فسكت سيف الدولة عن سؤاله . فلما عبروا بقرى كثيرة ولم يسأله عنها ، علم ابو الفتح بسكوت سـيف الدولة فقـال له ابو الفتـح . ياسيدى ، ياسيف الدولة وحق راسـك ان القرية التى عثرنا عليها اسمها ابرم واسال عنها غيرى . فعجـب سيف الدوله من ذكائـه فما وصل حلب اجلسه معه على السرير .

(١٦) ابن ظافر . الدول المنقطعة (مخطوط) ورقة ١٨ آ

(١٧) القرمانى . اخبار الدول ص ٢٦٣

(١٨) نفس المصدر ص ٢٦٣ .

الاخشيد (١٩) في آخر سنة ٣٣٢ او في بداية ٣٣٣ (٢٠) حاملا معه هدايا فاخرة . وقد عامل الاخشيد الخليفة بمنتهى الاجلال فوقف بين يديه وقوف الغلمان وحين ركب مشى بين يديه . وكتب الى مولاه كافور في مصر مظهرا سروره بمقابلة الخليفة قائلا « ومما يجب ان تقف عليه اطال الله بقاك اني لقيت امير المؤمنين بشاطىء الفرات فاكرمني وكناني وقال : كيف انت يا ابا بكر اعزك الله ؟» (٢١) ثم الح الاخشيد على المتقى ان يسير معه الى مصر فلم يوافق ، فنصحه ان يظل مكانه وهو يمده بالمال والرجال فأبى ، فعاد الاخشيد الى مصر سنة ٣٣٣ حيث بلغه ان المتقى خلع وان خليفته المستكفى اقره على ولاية مصر والشام(٢٢) . ولعل الاخشيد كان يرمى الى هدف بعيد حين طلب الى الخليفة مرافقته الى مصر ،هو نقل الخلافة العباسية اليها ، وبذلك يصبح الاخشيديون حكاما شرعيين وتصبح حاضرتهم مركز العالم الاسلامي ، الذي كان يدين بالولاء للخلافة . والواقع ان الاخشيد كان حاكما بعيد النظر وان اخفق في هذا المشروع السياسي الجرىء الذى قدر للماليك ان ينفذوه فيما بعد .

تبدأ علاقة الحمدانيين بالاخشيديين منذ سنة ٣٣٣/٩٤٤ م ، فقد ولى الاخشيد بعد عودته الى مصر ابا الفتح عثمان بن سعيد الكلابى على حلب واخاه على انطاكية . فحسد ابا الفتح اخوته الكلابيون وراسلوا سيف الدولة بن حمدان ليسلموا اليه حلب(٢٣) . وقد مر بنا كيف سار سيف

---

(١٩) الكندى . الولاة والقضاة ص ٢٨١ — ٢٨٦ .
(٢٠) يقول القرمانى (اخبار الدول ص ٢٦٣) ان الاخشيد محرف عن لفظة اخشيداق شيد ومعناها الشمس البيضاء وهو لقب لملوك فرغانة .
(٢١) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٣ ص ٢٥٤ .
(٢٢) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٣ ص ٢٥٥ .
(٢٣) ابن العديم ، زبدة الحلب . ج١ ص ١١١ .

الدولة الى هذه المدينة بالف فارس فاستقبله اخوة الوالى ابى الفتح ، ثم لاقاه الوالى نفسه معلنا ولاءه فاكرمه سيف الدولة واركبه معه فى العمارية ودخلا سوية فى ٨ ربيع الاول سنة ٣٣٣ (٢٤). ويروى لنا ابن العديم(٢٥) قصة دخولهما الى تلك المدينة فنجد سيف الدولة متلهفا يحدوه الشوق الى امتلاك كل شبر من الارض التى يسير عليها فيسأل عن القرى واحدة واحدة وابو الفتح يجيبه حتى وصلا الى حلب فجلس سيف الدولة على السرير وبجانبه ابو الفتح .

وصلت انباء دخول سيف الدولة الى حلب واقامته الخطبة للمستكفى ولاخيه ولنفسه(٢٦) الى الاخشيد ، فكتب الى الخليفة فأرسل اليه والى انه انوجور خلعا دليلا على تأييده له . لكن فزع الاخشيد بلغ اشده حين نمى اليه ان سيف الدولة سار الى حمص فى طريقه الى دمشق مما دفعه الى ارسال جيش بقيادة كافور (٢٧) . والتقى الجيش الاخشيدي بسيف الدولة بالرستن قرب حمص فى سنة ٣٣٣/٩٤٤ . وانهزم كافور شر هزيمة وازدحم اصحابه فى جسر الرستن فوقع جماعة منهم فى النهر . غير ان سيف الدولة امر غلمانه ان لايقتلوا منهم احدا مما اكسبه سمعة طيبة دعت المؤرخين الى اعتبار هذا العمل من اعمال الفروسية والشهامة . واضاف الى هذه المأثرة مأثرة اخرى حيث اطلق سراح الاسرى الاخشيديين الذين بلغوا اربعة آلاف «فمضوا وشكروا فضله (٢٨)» .

وسار سيف الدولة نحو دمشق بعد ان مهد لدخوله اياها بمنشور وجهه

---

(٢٤) نفس المصدر ج١ ص ١١١

(٢٥) نفس المصدر ج١ ص ١١٢

(٢٦) ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب ص ٤١-٤٢

(٢٧) يقول ابن سعيد ص ٤١-٤٢ (ان الجيش كان بقيادة اربعة قواد) في حين يقول ابو المحاسن ج٣ ص ٥٥ انه بقيادة كافور وفاتك اما ابن العديم (ج١ ص ١١١٣) فيقول ان هذا الجيش كان يقوده كافور يانس المؤنسي .

(٢٨) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١١٣

الى اهلها تلى على المنابر ، يعتبر مثلا عاليا للدعاية الناجحة في ذلك العصر ، وهو يذكرنا بالمنشور الذى وجهه نابليون بونابرت الى المصريين حين قام بحملته على مصر فى سنة ١٧٩٨م • وقد جاء فى منشور سيف الدولة :

« بسم الله الرحمن الرحيم • من سيف الدولة ابي الحسن الى جماعة الاشراف والعلماء والاعيان والمستورين بمدينة دمشق • اطال الله بقاكم وادام عزكم وسعادتكم وكفايتكم ونصحكم • كتابنا اليكم من المعسكر المنصور بعين الجر (٢٩) عن سلامة وجميل كفاية لمولاها خالص الدعاء والشكر • وقد علمتم ـ اسعدكم الله ـ تشاغلي بجهاد اعدائي واعداء الله الكفرة وسبيهم وقتلى فيهم واخذى اموالهم وتخريبى ديارهم • وقد بلغكم خبر القوانين فى هذه السنة فى قتال اهل الله فما اتبعت مدبرا ولادفعت على جريح ، حتى سلم من قد رأيتم (٣٠) وقد تقدمنا الى وشاح بن تمام بصيانتكم وحفظكم وحوط اموالكم وفتح الدكاكين واقامة الاسواق والتصرف فى المعاش الى حين موافاتنا ان شاء الله (٣١) » •

فلما وصلت نسخة من هذا المنشور الى الاخشيد اشتد قلقه الى حد انه سار بنفسه لحرب سيف الدولة الذي كان قد دخل الى دمشق مع افراد اسرته في رمضان سنة ٣٣٣/ مايس ٩٤٥م (٣٢) لكن الاخشيد استطاع الاتصال بضابط اخشيدي يدعى عيسى كيل تظاهر بالانضمام الى سيف الدولة •

وتفصيل الامر ان الاخشيد كتب من الرملة الى هذا الضابط يعده بالاموال الطائلة اذا استطاع تدبير دخوله الى دمشق ، فارسل مع الرسول

---

(٢٩) الجر : بين بعلبك ودمشق (ياقوت ٣/٦٠)
(٣٠) يشير الى تسامحه مع الاخشيديين حين هزمهم في الرستن فقد امر غلمانه بالا يقتلوا احدا من الفارين وقال (الدم لي والمال لكم) ابن العديم . زبدة الحلب ص ١١٣
(٣١) ابن سعيد . المغرب ص ٤١
(٣٢) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص١١٤

خاتمه . ويقول ابن سعيد في هذا الصدد (٣٣) : فوصل الرسول الى عيسى كيل وهو مع سيف الدولة بالشماسية (محلة بدمشق) فأستاذنه في الركوب الى دمشق لدخول الحمام فأذن له . وشرب وسكر وثار مع العصر بدمشق ودعا الناس الى الاخشيد ، وخاتم الاخشيد في يده وغلق ابواب دمشق . وافاق عيسى كيل من سكره وتبين امره فهرب في جوف الليل الى الاخشيد وهو بطبرية ، فخلع عليه وجازاه وحمله وقاد اليه فرسا ادهم وعليه سرج ولجام مطلى «فيه اربعة عشر الف درهم ، مايقدر الفرس يتحرك من ثقل ماعليه ..»

وحين اغلقت دمشق ابوابها في وجه سيف الدولة انسحب الى حمص ، ودخل الاخشيد دمشق ثم تعقب سيف الدولة الى حمص غير ان هذا تركها الى قنسرين حيث التقى الخصمان في شهر شوال .وكان النصر في اول الامر حليف سيف الدولة لكن كفة الاخشيد مالبثت ان رجحت نظرا لضخامة جيشه ، فهزم سيف الدولة الى الرقة . دخل الاخشيد حلب وعاث اصحابه فيها فسادا وقطعوا الاشجار التي كانت تزين ضواحيها ، كما اذى الجند اهل المدينة متهمين اياهم بميلهم الى سيف الدولة(٣٤) .

ضاق الاخشيد ذرعا بهذه الحروب وادرك اصرار سيف الدولة وصلابة عزيمته ففضل الصلح معه ، وارسل اليه الحسن بن طاهر العلوى الذى قام بدور السفير الناجح فأبرم الصلح فعلا في شهر ربيع الاول ٩٤٦/٣٣٤م وفق الشروط التالية :

١ ــ ان يكون لسيف الدولة من جوسية (على بعد ٣٥ كم جنوب غرب حمص) . الى حمص الى سائر اعمالها وما وراءها (٣٥) اى ان يمتلك سيف الدولة حمص وحلب وحماة ومنبج وانطاكية وغير ذلك من مدن سورية الشمالية .

---

(٣٣) ابن سعيد . المغرب ص٤٢

(٣٤) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١١٥

(٣٥) اى سورية الشمالية

٢ ـ يكون بيد الاخشيد سائر بلاد الشام ،وبتعبير ابن سعيد(٣٦) « من دمشق ومابين يدها الى آخر اعمالها » •

وبتعبير ابن ظافر (٣٧) « انصلح الامر على ان ملك سيف الدولة حمص وحلب وما بينهما واخرج عن دمشق » •

وتوكيدا لحسن النوايا تزوج سيف الدولة فاطمة بنت الاخشيد (٣٨) او بنت اخيه عبدالله بن طغج حسب روايات اخرى (٣٩) «وكان الولي الحسن الناس الى الاخشيد ، وخاتم الاخشيد في يده وغلق ابواب دمشق • وافاق بن طاهر بتوكيل الاخشيد فسر سيف الدولة بذلك واجاب الى السلم وعقد النكاح • ونثر سيف الدولة في مضربه ثلاثين الف دينار ونثر خارج المضرب اربعمائة الف درهم • وحمل الى الحسن بن طاهر مالا كثيرا وخلعا ••» (٤٠) •

وقد اورد ابن سعيد قصة مؤداها ان جماعة من غلمان الاخشيد لاموه على صلحه مع سيف الدولة ومصاهرته فاجاب بان المسألة تحتمل احد وجهين ، اما ان ينتصر الامير الحمداني فتكون فضيحة له ـ اى للاخشيد ـ وتحطيما لكبريائه ، واما ان يهزم سيف الدولة «فايش اعمل به ، هل هو اكثر من ان انزله في مضرب ، وانفق عليه مايصلح له ثم اجهزة وارده لاخيه واهله لانهم لايتركونه ، واقل ماكان يكفينا له مائتا الف دينار • ثم لااطيق غلماني من ادلالهم والتسحب على بما عملوه ويطلبون مني الاعمال والولايات فرأيت ان مسالمته ومصالحته افضل واصلح» وقد عزا بعض المؤرخين ابرام الصلح على هذه الصورة الى ضعف الاخشيد ورموه بالجبن وخور العزيمة ، ولكن المتأمل في الاحوال التي كانت تحيط بمصر في ذلك العصر يرى ان ذلك كان ينطوي على اقرار بالامر الواقع

---

(٣٦) المغرب ص ٤٢
(٣٧) الدول المنقطعة ورقة ٦٥ .
(٣٨) ابن سعيد ص ٤٢ .
(٣٩) ابن ظافر الدول المنقطعة ٦٥ .
(٤٠) ابن سعيد ، المغرب ص ٤٢

اذ كان الاخشيد يخشى اغارات البيزنطيين على بلاد الشام المتاخمة لمصر ، كما كان يخشى خطرا آخر يتهدده من ناحية الخلافة الفاطمية الفتية فى المغرب ومن ناحية الخلافة العباسية نفسها ، بدليل ابرامه الصلح مع محمد بن رائق على هذا النحو قبل هذا بقليل من انتصاره عليه كما انتصر على سيف الدولة . فضلا عن ان الاخشيد كان ميالا الى السلم ويتوق الى العودة الى مصر بعد ان ادركه الاعياء من هذه الحروب .

توفى الاخشيد بدمشق فى ٢١ ذى الحجة سنة ٣٣٤/٩٤٦م فتولى الأمر بعده ابنه ابو القاسم انوجور الذى كان صغير السن فاستولى على تدبير ملكه كافور الخادم الاسود (٤١) . وبدأ كافور عهده بمقاومة توسع سلطان سيف الدولة فخرج يصحبه انوجور سنة ٣٣٥/٩٤٦م لرده عن دمشق التى احتلها وجبى خراجها (٤٢) واراد سيف الدولة ان يرهب أعداءه فسار نحو مصر غير ان الفريقين تقابلا فى الرملة حيث دارت رحى معركة عنيفة هزم فيها سيف الدولة فتعقبه المصريون حتى وصل الى الرقة (٤٣) . ومن يدرى فربما كان سيف الدولة جادا فى محاولته دخول مصر منتهزا موت الاخشيد وتولى انوجور ، خاصة وانه لم يكن قد جرب مدى قوة كافور . ولم يكد سيف الدولة يجمع شتات قواته حتى لاقاه الحسن بن طغج في اللجون بفلسطين (٤٤) فهزمه ايضا ودخل دمشق في حالة اعياء شديد ، فأخذ امه «نعم» واهله (٤٥) الى حمص حيث جمع

---

(٤١) الكندي . الولاة والقضاة ص ٢٩٤ . المقريزي الخطط ٣٢٩/١
اما ابن الاثير (الكامل ١٦٤/٨) فيذكر ان وفاته كانت في سنة ٣٣٤ غير انه يورد رواية اخرى ان الاخشيد توفى سنة ٣٣٥ .
(٤٢) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١١٦
(٤٣) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٣ ص ٢٩١
(٤٤) انظر ياقوت ٣٥١/٤
(٤٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ١١٦/١ - ١١٧

من رجال القبائل من عقيل ونمير وكلب وكلاب جيشا ضخما ليبذل آخر محاولة له (٤٦) • وباغت سيف الدولة الاخشيديين بمرج العذراء ـ على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا شمال شرقي دمشق (٤٧) ولما عاد كافور وانوجور الى مصر ، دخل سيف الدولة حلب ، غير ان ثورة داخلية قامت في وجهه بتدبير يانس المؤنسي وبتحريض الاخشيديين، فهرب بكتابه واصحابه الى الرقة ، واستولى يانس على حلب مدة شهر واحد ، ثم هزمه سيف الدولة في ربيع الاخر سنة ٣٣٦/٩٤٧ م وطارده حتى ابعده الى ميافارقين (٤٨) •

يعزو المؤرخون اخفاق سيف الدولة في الاحتفاظ بدمشق الى موقف مالكي اراضي الغوطة ، فيروون هذه القضية : اتفق ان سيف الدولة كان يسير هو والشريف العقيقي (٤٩) بنواحي دمشق فقال سيف الدولة : ماتصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد • فقال له العقيقي : هي لاقوام كثيرة • فقال سيف الدولة : لئن اخذتها القوانين السلطانية ليتبرؤون منها • فأعلم العقيقي اهل دمشق بذلك فكاتبوا كافورا يستدعونه فجاءهم فأخرجوا سيف الدولة عنهم سنة ستة وثلاثين وثلثمائة (٥٠) •• ويبدو ان اهل دمشق من مالكي اراضي الغوطة اوجسوا خيفة من نوايا سيف الدولة هذه فاستعانوا عليه بالاخشيديين كما اسلفنا • غير ان هذه القصة لاتصور الاسباب الحقيقية التي تكمن في تفوق الاخشيديين في العدد والعدد وامتلاكهم جيوشا جرارة

---

(٤٦) نفس المصدر ١١٨/١

(٤٧) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٢٩٥

(٤٨) ابن العديم . زبدة الحلب ١١٩/١ . كان يانس من غلمان الحمدانيين وتحول الى خدمة الاخشيديين شانه شان الكثيرين من المماليك المرتزقة في ذلك العصر .

(٤٩) هو احمد بن الحسين بن احمد بن علي العقيقي . توفي بين سنتي ٣٦٨ ــ ٣٧٨ هـ . وقد مدحه الواواء الدمشقي بعده قصائد (الكنار ، النخب ص ٣٤)

(٥٠) زبدة الحلب ١١٩/١ ، ابن الاثير ، الكامل ١٦٤/٨

واموالا طائلة ، على حين كان سيف الدولة ما يزال في بداية امره . وهكذا قنع سيف الدولة بسورية الشمالية واستقر في عاصمته حلب ، بعد ان توصل الى عقد صلح جديد مع الاخشيديين فى سنة ٣٣٦ جددت فيه شروط صلح سنة ٣٣٤ التى مر ذكرها والتى نصت على ان تظل حمص وانطاكية وحلب بيد سيف الدولة .

وهكذا خرج سيف الدولة من صراعه مع الاخشيديين منتصرا واقام له ملكا في سورية بل ان نفوذه امتد الى ابعد من ذلك فقد اقيمت له الخطبة بطرسوس فى سنة ٣٣٥ (٥١) فضلا عن ان احد الاكراد وهو ابو سالم ديسم صاحب اذربيجان كان قد خطب له هناك فى سنة ٣٣٤ ، وكاد الامر ان يتم له لولا ان هزمه السلار المرزبان (٥٢) وليس غريبا ان ينضم ابو سالم لسيف الدولة لان الخؤولة كانت تربط الحمدانيين بالاكراد .

اما موقف العباسيين تجاه هذا التبدل الاساسى فى حكم سورية الشمالية فكان موقف عدم المبالاة ، فانهم لم يلبثوا ان اعترفوا لسيف الدولة بولاية الشام وبذلك انحسر ظل الاخشيديين . والواقع ان هؤلاء كانوا يمرون بدور ضعفهم وانحطاطهم ، وقد استبد كافور بولدي استاذه وهما انوجور ابو الحسن علي وغدا هو الحاكم المدبر لشؤونهما اكثر من احدى وعشرين سنة(٥٣) ولما مات ابو الحسن استقل كافور بمصر اكثر من سنتين واقره الخليفة المطيع وارسل اليه الخلع والهدايا (٥٤) وحين توفي في سنة ٩٦٦/٣٥٦ م تلاه احمد بن علي الاخشيد . وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي عهده ارسل المعز الفاطمي قائده جوهر بن عبدالله الصقلي الى مصر ففتحها يوم الثلاثاء ٨ شعبان سنة ٩٦٨/٣٥٨م فانتهت بذلك الدولة الاخشيدية (٥٥) وحل سيف الدولة محل هذه القوة المضمحلة

---

(٥١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٢٩٣/٢ – ٢٩٤
(٥٢) مسكويه تجارب الامم ١٦١/٢
(٥٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٩/٤
(٥٤) الكندى ، الولاة والقضاة ٢٩٦–٢٩٧
(٥٥) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٢٨/٤

ليقوم بدوره الكبير الخطير في صد خطر الروم على سورية الشمالية .

وفي الوقت الذي كان سيف الدولة يصارع الاخشيديين في الشام ، كان ناصر الدولة يسعى لتوطيد سلطته في الجزيرة . وقد تم الصلح بينه وبين معز الدولة البويهي على ان يكون لناصر الدولة من تكريت الى الشام(٥٦) . وهكذا اتصلت حدود الدولة الحمدانية وشملت الجزيرة وسورية الشمالية . وقد عبر الشاعران الخالديان ــ وهما من شعراء سيف الدولة ــ عن سرورهما بفتح الشام بهذه الابيات(٥٧) :

وما مصر عنك بممنوعة | اذا ما استعنت عليها القضاء
وحزت دمشق وطهرتها | وابدلتها بالظلام الضياء
ولما هويت العراق انكفيت | الى عرصات الشام اتكفاء
وانك لما ملكت الملوك | تكبرت ان تلبس الكبرياء

تنظيم الدولة :

تمتع سيف الدولة بأحترام الخلفاء والبويهيين وكانت شفاعته مقبولة لديهم حتى انه توسط بين معز الدولة البويهي واخيه ناصر الدولة فتولى الجزيرة سنة ٣٤٨ (٥٨)واصبحت هذه الولاية له نظريا وان ظل اخوه يحكمها فعليا . ومما يدل على قوة سلطان سيف الدولة في الشام انه لم يصطدم بالعباسيين والبويهيين ولم يطالبوه بدفع الجزية كما كانوا يطالبون اخاه في الجزيرة ، ومعنى ذلك ان سيف الدولة كان اكثر استقلالا عن الدولة العباسية التي كان يهمها قيام سلطة قوية هناك تستطيع رد غارات البيزنطيين . ولم يلبث سيف الدولة ان احسن استغلال البلاد التي اصبحت تحت يده فجمع

---

(٥٦) نفس المصدر ٣/٢٩٣
(٥٧) ابن ظافر ، الدول المنقطعة (مخطوطة) ورقة ٥ ب
(٥٨) مسكوية . تجارب الامم ج٢ ص١٧٤

ثروة طائلة اتاحت له ان ينفق على بلاطه وحروبه عن سعة حتى انه انفق على ناصر الدولة وحاشيته حين لجأ اليه في حلب سنة ٣٤٧ نحو ثلثمائة الف دينار (٥٩) وجاد على الشعراء بما لم يجد به حتى الخلفاء .

كانت انطاكية قد دخلت في حوزة سيف الدولة بعد صلحه مع الاخشيديين كما أسلفنا ، فعين حاكما عليها أبن عمه ابا العشائر . وقد زار سيف الدولة انطاكية في سنة ٣٣٧ ، حيث استمع الى اول قصيدة في مدحه من المتنبي من سلسلة قصائده المشهورة (السيفيات) (٦٠). واذا رجعنا الى هذه القصيدة والى الشروح التي قيلت بصددها (٦١) نستطيع ان نستنتج بانها قيلت بعد استيلاء سيف الدولة على حصن برزويه اى في جمادى الاولى سنة ٣٣٧ (٦ تشرين الثاني ـ ٥ كانون الاول سنة ٩٤٨م) ، او في جمادى الثانية من هذه السنة (٦ كانون الاول ٩٤٨ ـ ٣ ـ كانون الثاني ٩٤٩م)

واسند سيف الدولة حكم حمص الى ابن عمه ابى وائل تغلب بن داود ابن حمدان ، وهو امير حمداني شجاع قاتل الى جانب ناصر الدولة في حربه ضد بجكم امير الامراء في سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م .

واذا رجعنا الى ديوان ابى فراس نجد ان سيف الدولة استعان بكثيرين آخرين من افراد اسرته في حكم دولته الجديدة الفتية . ومن هؤلاء ابو العباس احمد وابو الحسين علي وابو عدنان محمد(٦٢) . ومن جهة اخرى نجد بين نواب سيف الدولة واعوانه احد ابناء اخيه ناصر الدولة وهو محمد.

وقد استعان سيف الدولة ـ الى جانب العرب ـ بكثير من الترك والديلم سواء في جيوشه او في الادارة او الكتابة . فنحن نسمع كثيرا عن

---

(٥٩) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٢٩

(٦٠) نسبة الى سيف الدولة .

(٦١) يقول البرقوقى (شرح ديوان المتنبى ٤/٤٣) وقال «يمدح سيف الدولة الدولة ، وهى اول ما انشده سنة سبع وثلاثين وثلثمائة عند نزوله انطاكية من ظفره بحصن برزوية » ... (ومطلعها :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه بان تسعدا والدمع اشفاه ساجمه

(٦٢) انظر ديوان ابي فراس ج٢ ـ القصيدة الحمدانية .

نجا وبكجور ولؤلؤ وقرغويه الذين لعبوا دورا بارزا في الاحداث السياسية كما سنرى •

ولقد انصرف سيف الدولة بعد الفراغ من حرب الاخشيديين وعقد الصلح معهم في سنة ٣٣٦ الى توطيد سلطانه وتعزيز سيادته على سورية الشمالية وكان مجهوده خلال سنتي ٣٣٦ و ٣٣٧ (٩٤٧ ـ ٩٤٨) مجهودا موفقا من جميع الوجوه ، فقد عزز الدفاع عن حلب ، واضاف الى دولته مناطق جديدة هي السواحل ذات الاهمية الاقتصادية والعسكرية القصوى وقلم اظافر القبائل العربية التى اعانت الثورة ضده واخضعها لحكمه ، وقضى على حركات القرامطة في ارجاء مملكته •

لم يكن واجب حكم المناطق التي دخلت في حوزة سيف الدولة مهمة سهلة ، بل كان ـ على العكس ـ واجبا شاقا وعسيرا ، ويتطلب شخصا ذا ارادة صلبة وعزيمة ماضية وجلد وصبر • وقد توفرت هذه الصفات حقا في الامير الحمداني ، فقام بواجبه خير قيام • ذلك ان هذه المنطقة فضلا عن كونها منطقة الحدود الاسلامية ـ البيزنطية حيث الجهاد المتصل فرض ديني تحتم على السلطان القيام به ، فقد كانت ـ في الوقت نفسه ـ منطقة مشحونة بالاخطار التي جاءت من وجود قبائل بدوية وشبه بدوية لم تتعود الخضوع لسلطة مركزية صارمة كالتي اخذ سيف الدولة يفرضها عليهم منذ الوهلة الاولى • وبجانب خطر البيزنطيين الماثل على الدوام وتهديد القبائل العربية ذات النزعة الاستقلالية الذاتية العاتية ، فقد كانت سورية ـ شأنها شأن الجزيرة ـ منطقة الفت ثورات القرامطة الذين لقوا من القبائل تاييدا واضحا ، والذين كونوا جيوشا ذات قوة لايستهان بها وكسبوا انصارا استجابوا لافكارهم المتطرفة •

كان سيف الدولة طموحا ومغامرا جريئا ، لذلك القى بنفسه بحماسة وجرأة بالغة في خضم هذه الاخطار ، فجذب اليه الانظار بعد وقت قصير وتمثل للخلافة كأنه درع حصين يستطيع القيام بحماية امنها وسلامتها

ضد الأخطار الخارجية والتمردات الداخلية بثمن بدا لها معقولاً وهو الاعتراف به رسميا كما اعترفت بمن هم اقل منه شأنا واضأل فائدة في المشرق والمغرب على حد سواء .

وبدا لسيف الدولة ان المهمة الضخمة المنوطة به تستدعي ان يحيط نفسه بالمساعدين والمؤيدين المخلصين ، فاتجه نظره اول مااتجه الى ذوي قرباه من افراد الاسرة الحمدانية . فعمد الى تعيين ابي العشائر الحسين بن علي ابن الحسين بن حمدان (٦٣) حاكما على انطاكية من جند العواصم (٦٤) . واسند حكم منبج ومايليها من منطقة العواصم الشرقية الى ابن عمه الشاب الشاعر ابي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان ، الذي قام بدور بارز في حرب القبائل العربية الثائرة على سيف الدولة ، على الرغم من صغر سنه. واسند سيف الدولة حكم حمص الى ابي وائل تغلب بن داود بن حمدان . وقد عمل في خدمة سيف الدولة من ابناء اسرته ايضا ابو العباس احمد

---

(٦٣) انظر جدول نسب الحمدانيين فى الجزء الاول من هذا الكتاب .

(٦٤) ورد ذكر ابي العشائر كثيرا في شعر ابي فراس ، وكانت ابنة هذا زوجة ابي العشائر . (الديوان – تحقيق الدهان ٤٧/٢). وقد اسر ابو العشائر من جانب الروم ومات اسيرا في بلادهم فرثاه ابو فراس (٦٤/٢) . وكان ابو العشائر فى الحق من اخلص المخلصين لسيف الدولة وقد اسهم فى قيادة الجيوش الحمدانية في بلاد الروم وتولى الدفاع عن مرعش (١٢٦/٢ ويبدو من شعر ابي فراس وشرح ابن خالويه (١٥٣/٢) ان ابا العشائر كانعظيم الشجاعة بحيث انه حين (كبسه عسكر الاخشيد مع يانس المؤنسى ، وهو منصرف من الميدان بانطاكية ، فاصابته نشابة ، فشد فياوساطهم فلم يزل يضرب ويحتمى حتى تخلص) ، وقد عبر ابو فراس عن حزنه والمه في عدة مواضع من ديوانه على اسرابي العشائر وموته فى الاسر (٢–٣٠٣ ، ٣–٣٤٧ ، ٣٧٥ ت ٣٨٤ .. الخ)

وابو الحسين علي وأبو عدنان محمد الذين ذكرهم ابو فراس في قصيدته الرائية الطويلة التي يمكن ان نسميها «الحمدانيه» (٦٥) .

ولم يكتف سيف الدولة بعد ان خرج من حربه مع الاخشيديين منتصرا بالاقاليم التي حققها له صلحا سنتي ٣٣٤و٣٣٦ ، بل انه استولى على منطقة الساحل لما تحتويه من حصون مهمة مثل حصن برزويه . والحق ان اهمية هذا الحصن الذي استسلم لسيف الدولة في سنة ٣٣٧ بعد حصار طويل استمر منذ سنة ٣٣٦ ، تتأتى من كونه يسيطر على طرق المواصلات المدنية

المشاكل الداخلية :

الا ان حياة سيف الدولة لم تكن حياة هدوء فقد امتلأت ايامه بالجهاد ضد الروم والحملات على القبائل العربية الثائرة ككلاب وعقيل وقشير والعجلان ، تلك القبائل التي لم تتعود الخضوع لسلطة مركزية ودفع الضرائب لها ، فضلا عن القرامطة الذين اثاروا كثيرا من الغبار في وجه الامير الحمداني مستغلين انشغاله في حرب الروم .

وكانت اولى مشكلة جابهت سيف الدولة ظهور قرمطي دعى نفسه صاحب الخال وتلقب بالهادي وكان يدعي النبوة ويقول : «لآتي الا ما امرني الله به » (٦٦) . كما سمي المبرقع (٦٧) ، فأخذ يدعو الناس وفتح اطراف

---

(٦٥) جاء في شرح ابن خالويه (ديوان ابي فراس ٢/١٥٠ — ١٥١) : ابو وائل فارس العرب .. لحقه رجل من القرامطة في الغلس ، ولم يعلم به ابو وائل حتى اخذ بعنان فرسه ، فضربه براسه وكتفه ومرفقيه ثلاث ضربات ، كلهن امعن فيه . قال ابو وائل : كل ذلك وانا اطلب قائم سيفي ، فلما وقع القائم في يدي ، قصد القرمطي يدي فقطع السبابة وبعض الوسطى . فانتضيت السيف فقطعت هامته . فقال ابن خالويه : الاعز احمد بن سعيد بن حمدان قتل وهو ابن ثماني عشرة سنة واحتمى من جيش القرمطي بسيفه حتى لم يتخلص غيره . اما ابو عدنان فهو محمد بن نصر بن حمدان .

(٦٦) يقول المتنبي (شرح الديوان للبرقوقي ٢/١٦٠)

اقال له الله لاتلقهم   بماض على فرس حائل !

والمتنبي يريد ان يسأل القرمطي : الله امره أن لا يأخذ للحرب عدتها ؟

(٦٧) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ١٨

الشام بمعاونة قبائل طيء وكلب ويجدر بالذكر ان مذهبي الخوارج والقرامطة صادفا قبولا وتأييدا من كلب على وجه الخصوص وطالما انضم افراد هذه القبيلة إلي دعاة القرامطة في الجزيرة • وبلغ من خطر صاحب الخال انه اسر ابا وائل تغلب بن داود بن حمدان ابن عم سيف الدولة ونائبه بحمص سنة ٣٣٦ (٩٤٧ م) فسار سيف الدولة من حلب وطارد القرسطي حتى ادركه بقرية تدعى «وادي الغرب» فقتله وانقذ ابا وائل وهدم قرية الحدث واغرم اهلها خمسة الآف دينار (٦٨) لتمردها عليه، ولعل اهلها كانوا يعتنقون المبادىء القرمطية وقد وصف المتنبي هذه الوقعة في قصيدة منها قوله (٦٩)

الام طماعيــــة العــــاذل ولا رأى في الحب العاقل
ولو كنت في اسر غير الهوى ضــمنت ضمان ابى وائل
فدى نفسه بضمان النضار واعطى صدور القنا الذابل
كأن خــلاص ابــى وائــل معــاودة القمــر الآفــل

ثارت قبيلة بني كلاب سنة ٣٤٣ هـ (٩٥٤م) وعاثت بنواحي بالس فتركت سيف الدولة حرب الروم وتصدى لها فهزمها • وفي السنة التالية عقدت قبائل عامر بن صعصعة وهي عقيل وقشير العجلان وابناء كعب بن ربيعة بن عامر وكلاب بن عامر مؤتمرا في سلمية قرب حمص معبرة عن سخطها على

(٦٨) ابن ظافر . الدول المنقطعة (مخطوطة) ورقة ٥ب ـ ٦ أ

(٦٩) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي (٣/١٥٢ ـ ١٦٣) ومن هذه القصيدة نجد ان سيف الدولة استنقذ ابن عمه دون فداء لانه قتل الثائر القرمطي ونستدل من هذه القصيدة ايضا على ان الوقعة استمرت خمس ليال لم ينزل فرسان سيف الدولة خلالها عن ظهور خيولهم حتى بلغوا ابا وائل واوقعوا بالقوم الذين اسروه . غير اننا من جهة اخرى نجد المتنبي يعترف في هذه القصيدة بضخامة جيش القرامطة وكثرة عدد فرسانهم .

سيف الدولة وقررت احداث الاضطراب والفتن في كل صقع من مملكته، وقد انحاز بعض جنوده من كعب الى المتمردين فاغاروا على اعماله وقتلوا بعض عماله مما يدل على ان كثيرا من العناصر كانت ساخطة على الحكم الحمداني وفي ١١ صفر سنة ٣٤٤ خرج سيف الدولة من حلب فأستسلمت له بنو كلاب في الطريق . وفي سلمية اشتبك مع الاعراب في حرب عنيفة فهزمهم وطاردهم حتى تدمر ثم اوغلوا فارين امامه في بادية السماوة فتعقبهم حتى استأصل شأفتهم وجاءته وفودهم تطلب العفو في ربيع الاول فعفى عنهم وانزلهم في الجزيرة . وقد سجل المتنبي الذي كان يرافق سيف الدولة تفاصيل هذه الوقعة في شعره وصور بطولته وهزيمة الاعراب اجمل تصوير في قصيدته الطويلة :

طوال قنى تطاعنها قصار   وقطرك في ندى ووغى بحار (٧٠)

وكذلك ارخ ابو فراس الذي كان مع ابن عمه هذه الوقعة في قصيدته .

ابت عبراته الا انسكابا   ونار ضلوعه الا التهابا

---

(٧٠) ديوان المتنبي ص ٣٣٢ – ٣٣٨
واذا شئنا ان نذهب مع المتنبي ، فان سبب ثورة هذه القبائل العربية هي سياسة الحزم والشدة التي اخذها سيف الدوله بها وهي سياسة لم تتعودها هذه القبائل . ومن ثم اخذت تتراسل وتتواطأ على عصيانه وتتشاكى لما تجده من صعوبة الاستهداء له . واتحدت هذه القبائل بتحزبها وتاهبها [illegible] [illegible] سلحتها وكثرة غاراتها على النواحي والاطراف ، [illegible] عصيانها.
ويشير المتنبي الى بني عامر فيقول :

وتلقوا عز مولاهم بذل   وسار الى بني كعب وساروا

وهو يشير الى انهم استقبلوا سيف الدوله بالخضوع والذلة والانقياد وساروا معه وراء كعب . قال العكبرى : وذلك ان مشيخة بني كلاب تلقته وقد سار عن (الحيسار) لطلب (البدية) فطرحوا نفوسهم عليهم لما راوا حد سيفه وخشوا ان يهربوا فيهلكهم وتقتلهم القفار والعطش كما هلكت كعب .
ومن وصف المتنبي نجد ان هذه القبائل كانت تصطحب معها النساء

وقد علمت ربيعة بل نزار   بانا الرأس والناس الذنابى(٧١)

ومع قيمة هاتين القصيدتين من ناحية تاريخية كسجل لاحداث هذه الحرب وفانهما لاتلقيان ضوء على عوامل هذه الثورات، وكلما حاوله الشاعران

والاطفال الذين لقوا مصيرا مفجعا فى هذه الوقعة ، حتى ان خيل سيف الدولة وطئت هؤلاء الصغار .

ويذكر المتنبي بعض المواضع المهمة التي دارت فيها الموقعة — وهي مياه معروفة — مثل الغوير ونهيا وبيضة والجفار ، كما يذكر تدمر — حيث اجتمعت القبائل الثائرة ففاجاها سيف الدولة وفتك بها (شرح ديوان المتنبى للبرقوقى ٢/٢٠٢ — ٢١٧) .

(٧١) ديوان ابى فراس (تحقيق الدهان) ٢/١٢ — ١٦

ويقول ابن خالويه فى شرح هذه القصيدة (الديوان ١١—١٢) كثرت وقائع سيف الدولة فى كل صقع فتجمعت «نزاربها ويمانيها» وتشاكت مالحقها وتراسلت واتفقت على الاجتماع بسلمية لمقاتلته ومناجزته كما واوقعت بعامله (بقنسرين) وهو الصباح عبد عمارة المخارقى فنهض سيف الدولة ، ومعه ابن عمه ابو فراس حتى اوقع بهم وعليهم يومئذ الندى ابن جعفر ومحمد بن قريع العقيليان من آل المهنا فهزمهم ،وقتل وجوههم وسادتهم وانبع فلهم . وقدم ابا فراس فى قطعه من الجيش فلم يزل يتبعهم يقتل ويأسر ، حتى الحقهم بالغوير فلم ينج الا من سبق به فرسه ، واتبعهم سيف الدولة حتى لحقهم بتدمر فقتلهم . وهلكهم عطشا وقتلا بالسماوة وارضها . ثم انكفأ الى بني نمير وهي بالجزيرة فوجدها قد اخذت المهل ، ولحقته خاضعة ذليلة طائعة ، تعطى الرضا وتنزل على الحكم ، فصفح عنهم ، واحلهم بالجزيرد وقيمة قصيدة ابي فراس انها تستعرض الاماكن التي جرت فيها احداث هذه الوقائع فى هذه الابيات :

ولما ثار سيف الدين ثرنا   كما هيجت اسادا غضابا
قطعن الى الجباة نبا معانا   ولكبن الصبيرة والقبابا
وجاوزن البدية صاديات   يلاحظن السراب ولا سرابا
عبرن بماسح والليل طفل   وجئن الى سليمة حين شابا
سقنا بالرماح بني قشير   يبطن الغنثر السم المدابا
وسقناهم الى الحيران سوقا   كما نستاق ابالا صعابا
ونكبنا القرقلس لم نرده   كأن بنا عن الماء اجتنابا
وملن عن الغوير وسرن حتى   وردن عيون تدمر والجبابا

هو أظهار سيف الدولة بمظهر البطل والقاء اللوم على القبائل ووصمها بالعصيان ، غير انه يجب ان لاتركن الى هذه الاقوال وعلينا ان نقرر بان الحمدانيين سواء في الجزيرة او في الشام اثاروا القبائل العربية بسياستهم المالية والاقتصاديةالقاسية التي سنعرض لهافيما بعد • وممايؤكد هذاالرأى ان اهل حران ثاروا على عامل سيف الدولة سنة ٣٥٢ (٩٦٣ م) وهو أبن اخيه هبة الله لظلم موظفيه وانتهزوا فرصة غيابه وطردوا هؤلاء الموظفينفسار اليهم هبة الله من حلب وقتل منهم كثيرا (٧٢) •

ثم ظهر قرمطى اخر يدعى مروان سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) وكان يتولى السواحل نيابة عن سيف الدولة فثار في حمص واستولى عليها وعلى ماجاوروها واستطاع جيش الحمدانيين القضاء عليه (٧٣) • غير ان هذا العام شهد ثورة اخرى خطيرة قادها رشيد النسيمي متقلدا انطاكية •وكانشخصا عديم الوجدان خان وطنه فسلم طرسوس الى الروم وانتهز فرصة غياب سيف الدولة عن حلب فسار اليها وحارب نائبه بها وهو قرغويه لكنه هزم وقتل • ولما عاد سيف الدولة من حرب الروم اخذ يتعقب شركاء رشيد في الثورة وخاصة الحسن بن الاهوازى وكان شخصا مغمورا يعمل فىضمان المستغلات بانطاكية (٧٤) • فاتفقمع رشيق على محالفةملك الروموالاستيلاء على الشام • وزور الاهوازي رسالة ذكر فيها ان الخليفة العباسي قلد رشيقا اعمال سيف الدولة فقرأت على المنابر (٧٥) وهكذا دخل الحليفان انطاكيا ثم استوليا على حلب فى ذى القعدة سنة ٣٥٤ ، غير ان رشيقا قتل كما ذكرنا وهرب الاهوازى الى انطاكية حيث حالف شخصا يدعى دريز لقبه بالامير وحاول صبغ حركته بالصبغة العلوية غير ان سيف الدولة قبض

---

(٧٢) ابن الاثير ، الكامل ٢١٥/٨
(٧٣) نفس المصدر ٢٢١/٨
(٧٤) مسكويه . تجارب الامم ٢١٤/٢
(٧٥) ابن العديم . زبدة الحلب ١٤٨/١

على دربز والأهوازي وقتلهما (٧٦) • وهذه الحالة تدعو الى التأمل فنحن نجد عدة قوى تتفاعل وتعمل في نسج احداث تلك الفترة في الشام ،فالمبادىء العلوية كانت تلقى صدى واستجابة لدى العامة مما دفع الاهوازى الى صبغ حركته بها ليظهر صاحب الحق الشرعي في نظر العامة ؛ ويبدو كذلك ان دربز كان ذا شأن لذلك نصبه الاهوازى امير ليحكم بأسمه اذا قدر له النجاح • وثمة ملاحظة هامة في هذا الصدد هي ان الروم كانوا يلجأون الى شراء ذمم بعض العمال والموظفين في الدولة الحمدانية ليتخذوهم جواسيس وعيونا لهم وليحدثوا اضرابات داخلية تشغل سيف الدولة عن حروبه الرومية •

ومن الاحداث الغريبة التي وقعت في هذه الحقبة ان هبة الله خرج على عمه سنة ٣٥٢ ودخل حران فاوهم اهلها ان سيف الدولة قد مات وانه كتب الى ابيه ــ ناصر الدولة ــ لينجده بجيش ثم طلب منهم ان يكونوا معه على كل من يحاربه فحلفوا له يمين الاخلاص واستثنوا من يمينهم سيف الدولة• ولما وصلت هذه الانباء الى مسامع سيف الدولة ارسل نجا وهو احد الغلمان فأغلق هبة الله ابواب حران في وجهه ، ثم جاء نجا غلام سيف الدولة المشهور فهرب هبة الله الى ابيه في الموصل ودخل نجا حران فأعاد سلطة سيف الدولة فيها(٧٧) • ولاندري هل فعل هبة الله هذا العمل بوحي ارادته ام ان أباه كان ــ كما ادعى ــ عالما بنواياه مشجعا له • ومهما يكن من امر فهذا مثل واضح على عدم التعاون بين افراد الاسرة الحمدانية • حقا لقد كان هبة الله هذا شخصية عجيبة فهو طموح الى اقصى حدود الطموح يريد ان يكون شيئا مذكورا فيخونه التوفيق فهو شجاع غاية الشجاعة حتى انه اشتبك مرة مع جيش بيزنطي عدته خمسون الفا (٧٨) • ومما يجذب النظر انه لم يكن يعيش عند ابيه بل كان في خدمة عمه وبالرغم من ان هذا عطف عليه كثيرا وقربه

---

(٧٦) مسكويه . تجارب الامم ح٢ ص ٢١٦ . ابن الاثير . الكامل ح٨ ص٢٢١

(٧٧) مسكويه . تجارب الامم ح٢ ص ٢٠٠

(٧٨) ابن ظافر . الدول المنقطعة (مخطوط) ورقة ١٢ أ

اليه واسند اليه الولايات فقد كان يضمر له السوء • وخير دليل على هذا الاستيلاء على حران مستغلا مرض عمه حتى اذا ماخفق لجـأ الى ابيـه فى الموصـل •

ان الحياة الشـاقة التى عاشها سـيف الدولة وغزواته الاربعين فى بلاد الروم (٧٩) ادت الى تدهور صحته وهو في السابعة والاربعين من عمره فانتابته شتى الامراض وتظافرت عليهمختلف الاوجاع • ففي سنة ٣٥٠ اصيب بالفالج وعسر البول(٨٠) ، وقد ادى الفالج الى شـل يده ورجله(٨١) ، ثـم اصابه القولنج والحصى(٨٢) وكان يصاب باغماءات عنيفة يظن معها انه قـد فارق الحياة (٨٣) • ومع ذلك ظل يوالى حروبه على الروم حتى سنة ٣٥٢ حين اقعده المرض (٨٤) • وقد ادى ضعف سيف الدولة ومرضه الى انهيـار تلك الوحدة التي حققها بين أطراف مملكته وانعدام ذلك الاستقرار الذى اوجده بحد السيف وقوة العزيمة ويصـف لنا ابن ظافر حالة الدولة الحمـدانية فى حلب فى اخريات ايام سيف الدولة بقوله (٨٥) «تفرقت عنه البوادى وتقاعس عنه المسلمون وفسد ما بينه وبين ابن الزيات امير الثغور من قبله واستقل عنه اخوه ناصر الدولة بحرب معز الدولة فلم ينجده •• وقويت الروم» •

توفي سيف الدولة على ماجمع عليه المؤرخون فى ضحى يوم الجمعـة ٢٥ صفر سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) وعمره اثنتان وخمسـون سنة وشـهران وثمانية ايام(٨٦) • ويقال انه كان قد جمع من غزواته الغبار الذى يقع عليه

---

(٧٩) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٢١
(٨٠) ابن الاثير . الكامل ج٨ ص ٢٢٩
(٨١) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٣ ص ٣٣٤
(٨٢) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١١ ب
(٨٣) مسكويه . تجارب الامم ج٢ ص ١٩٩ .
(٨٤) ابن الاثير . الكامل ج٨ ص ٢١٥
(٨٥) الدول المنقطعة ١٠ ب .
(٨٦) ابن ظافر . الدول المنقطعة (مخطوط) ورقة ١١ ب

فعمل منه لبنة بحجم الكف اوصى ان يوضع خده عليها حين يلحد (٨٧) ٠
وتولى تجهيز جثمان سيف الدولة قاضيه ابو الهيثم وغسله عبدالحميد بن
سهل المالكى قاضى الكوفة ٠ ثمان غسال بالماء ثم بالسدر ثم بالصندل والذريرة
والعنبر والكافور وماء الورد ثم بالماء القراح ونشف بثوب ديبقى ثمنه حوالى
خمسمائة دينار وصبر برطلى صبر ورطل مر ومنين كافور وكفن فى تسعة
اثواب تساوى الف دينار ؛وجعل في تابوته فراش من الديبق ومخدتان(٨٨)٠
وحمل تابوته من حلب الى ميافارقين حيث امه وزوجه فدفن فى مقبرته التى
شيدها هناك (٨٩) ٠

---

(٨٧) الذهبى . دول الاسلام ج١ ص ١٧٣
(٨٨) الطباخ . اعلام النبلاء ٤/٢٨٤ - ٢٨٥
(٨٩) ابن الاثير ٨/٢٢٩

الفصل الرابع

خلفاء سيف الدولة

ذرية سيف الدولة ـ عهد سعد الدولة

(ا) توليته (ب) الصراع بين الحمدانيين ـ (ج) الخلاف مع قرغويه وبكجور

ـ عهد سعيد الدولة

ذرية سيف الدولة :

انجب سيف الدولة خمسة اولاد هم ابو البركات ـ وهو اكبرهم ـ وقدتوفى فى جمادى الاخرة سنة٣٥٤(حزيران ـ تموز ٩٦٥م) وابوالهيجاء وقد توفى فى صفر سنة ٣٣٨/٩٤٩ ، وابو المكارم الذى تزوج ابنة عمه ناصر الدولة ، وقد توفى في سنة ٣٥٤ (١) ويذكر ابن نباته فى خطبه له(٢) ولاية الامير ابى المكارم على ديار بكر ، وقد القيت هذه الخطبة يوم اقامة الدعوة له وهو يوم الخميس ١٠ رمضان سنة ٣٥٢/٩٦٣ م • ومن مقطوعة شعرية لابي فراس(٣) نسمع عن ولد لسيف الدولة هو ابو الكتائب، وهي بمثابة تهنئة للامير الحمدانى بمولد هذا الابن الذى لانعلم عنه شيئا ، وربما توفى وهو صغير السن • وكان ابو المعالى شريف هو الابن الخامس لسيف الدولة والوحيد الذى عاش بعد ابيه من اخوته الذكور • وخلف سيف الدولة بنتا هي «ست الناس» التي تزوجت ابن عمها ابا تغلب فلما قتل في سنة ٣٦٩ هـ

---

(١) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١١٠ ا .

(٢) خطب ابن نباته من ٢٧٩ ـ ٢٨٠

(٣) ديوان ابى فراس (تحقيق الدهان) ٣/٣٦٠. يقول ابو فراس :

يهنى الامير بشارة ... قرت بها عين المكارم

لابي المعالي في العلا ... وابى المكارم فى المكارم

عاشت في كنف اخيها ابى المعالى(٤) وهكذا نجد ان ابا المعالى شريف،وست الناس هما الوحيدان اللذان بقيا على قيد الحياة بعد وفاةابيهما في سنة٣٥٦. ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء الاخوة لم يكونوا اشقاء ، فقد كان ابو المعالى وابو الكتائب من ام واحدة هى ام الحسن بنت ابى العلاء سعيد بن حمدان اى اخت ابى فراس (٥) .

عهد سعد الدولة

(آ) توليته : لما توفى سيف الدولة فى عاصمة حلب سنة ٣٥٦ ، كان ابنه يقيم في ميافارقين نائبا عنه على ديار بكر . ونحن نعلم ان ميافارقين هى المدينة التي يرجح ان سيف الدولة ولد بها والتي اتخذها مقرا لاهله ودفن بها فى المقبرة التى بناها لنفسه .

قام ابو الحسن قرغويه الحاجب اقوى غلمان سيف الدولة واقربهم اليه بعد وفاةسيده ـ بتدبير شؤون الحكم ريثما يصل ابو المعالي (٦) من ميافارقين وقد اجتمع الناس بحلب الى ابى الحسن علي ابن عمرو الحاجب (اى قرغويه) وعقدوا الامر والامارة للامير ابى المعالى شريف ابن سيف الدولة ويلقب سعد الدولة (٧) .

والحق ان سيف الدولة وقع فى الغلطة نفسها التى وقع فيها معاصروه من الحكام فأحاط نفسه بطبقة من الغلمان الاتراك والديلم وغيرهم كانت

---

(٤) مسكويه . تجارب الامم ٢/٤٠٤ انظر الجزء الاول من مؤلفى هذا عن (ست الناس) ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ و ٣١٣ . انظر كذلك ابن ظافر ورقة ١١–١١٢ .

يقول ابن خالويه (ديوان ابي فراس ـ الدهان٣/٣٥٩) : وقال في ابي المكارم وابى المعالى ابنى سيف الدولة من اخت ابى فراس»

ابنان ام شبلان ذان ؟ فانني … لارى دماء الدارعين غداهما
تلقى ابا الهيجاء فى هيجاهما … ويريك فضل ابى العلاء علاهما

ونستنتج من اشارة ابى فراس اجديهما من ابيهما وامهما انهما شقيقان .

(٦) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧

(٧) ابن الازرق . ورقة ١١٧ ! .

عونا له في حياته ، فلما قضى اخذت تثير المصاعب في وجه خلفائه . بل ان بعضهم حاول عصيانه في حياته كما فعل نجا الذي استكبر واستعلى على سيده حين ضعف في اخريات ايامه فكان جزاؤه القتل سنة ٣٥٤ (٨) ولعل سائلا يسأل ماهي الاسباب التي دفعت سيف الدولة الى اتخاذ المماليك بطانة له مع انه كان يستطيع ان يعد من العناصر العربية الشديدة المراس في سورية والجزيرة جيشا قويا جرارا ، والواقع ان سيف الدولة لم يكن مطمئنا الى القبائل العربية ذات النزعة الاستقلالية ، وقد مرت بنا امثلة لوقوفها في وجهه وخروجها على طاعته كما ان هذا العصر كان عصر سيادة الجند المرتزقة من الترك والديلم وتغلغلهم في جسم الدولة الاسلامية حتى لايكاد يخلو منهم جيش في القرن الرابع .

انقسم هؤلاء الغلمان الى حزبين بمجرد ان توفى مولاهم فتزعم بقا «ويسمى تقاوتقي» (٩) احد الحزبين وتزعم بشارة الحزب الاخر : وكان هذان من أقوى الغلمان واشدهما بأسا واشتد التنافس بين الغلاميين حتى اتهم بقانده بانه اغرى حمدان بن ناصر الدولة بالاستيلاء على حلب . وكتب بقا الى قرغويه بهذه الوشاية فصادر املاك بشارة بحلب(١٠) ومع ذلك انفذ الغريمان الى ميافارقين في تابوت سيف الدولة ، لكن كلا منهما كان يضمر الحقد للاخر ويخشاه . وحين بلغا ميافارقين اتصل بشاره بابي المعالي وحذره

---

(٨) مسكويه تجارب الامم ٢/٢٠٩ .

(٩) يختلف المؤرخون في اسم هذا الغلام فيسميه ابن الازرق (ورقة ١١٧ب) تقى ويسميه ابن ظافر (ورقة ١٦) (بقا وبقى) .. الخ اما الذهبي فيسميه على الدوام تقا كما يسميه الذهبي ايضا (تقى الدين السيفي) (ورقة ٢٣٨ أ ــ ٢٣٩ ب) ويذكره يحيى بن سعيد الأنطاكي (ص ١٢٧) فيقول مات سيف الدولة .. وسار غلامه تقى المقيم بانطاكية الى حلب واخذ تابوت سيف الدولة الى ميافارقين .. ولما خرج تقى من انطاكية اجتمع راى اهلها على ان لايمكنوا احدا من الحمدانية من الدخول اليها وولوا امرهم علوش الكردى .

(١٠) ابن ظافر الدول المنقطعة ورقة ١٦ أ .

من الخروج من المدينة للقاء تابوت ابيه واخبره بعزم بقا على الايقاع بـــه فما كان من هذا الا ان ضرب خيامه على ابواب المدينة وحاصرها. غير ان بشاره اعتلى سور ميافارقين وحرض الجند على بقا وفضح مؤامرته على ابى المعالى. وحين انكشف امر بقا طلب العفو واستأمن الى ابى المعـــالى ، غير انه ســلمه الى خصمه بشارة فقتله حسب رواية ابن ظافر (١١) وفى رواية اخرى لابـــن الازرق (١٢) ان بقـــا (او تقى) اعتقل وصودر على ثلاثين الف دينار وحبـــس في حصن كيفا ، ثم اسند اليه ابو المعالي ولاية ميافارقين ،حيث ظل يشغلها حتى سنة ٣٦٠/٩٧٠ م ثم خان ابا المعالى وسلم المدينة الى ابى تغلب ابن ناصر الدولة . ويؤيد الذهبي (١٣) قصة تسليم ميافارقين الى ابي المعالي من جانب بقـــا ، غير ان جميع المؤرخين الاخرين لم يؤيدوا هذا الخبر .

وبعد ان تخلص ابو المعالي من هذه المشاكل ، دخل الى حلب في ٢٠ ربيع الاول (وقيل فى رجب) سنة ٣٦٥/٩٦٧ م وتســلم الحكم خلفا لابيه تاركا شؤون ميافارقين الى تدبير امه التي يبدو انها كانت شخصية قويـــة ذات تاثير فى احداث عصرها ، وقد اســتقبل اهـــالى حلب خليفة سيفه الدولة اجمل استقبال وزينت المدينة وضربت القباب . ودخـــل الاميـــر الحمدانى الى بلاط ابيه فجلس على عرشـــه الفخم والى جـــواره قرغويـــه الحاجب على كرسى . وكان وزيره آنذاك هو كاتب ابيه ابو اســـحق محمد ابن عبدالله بن شهرام (١٤) .

(ب) الصراع بين الحمدانيين :

وكانت اولى المتاعب التى واجهها ابو المعالى من ابناء عمومته انتفاض

---

(١١) نفس المصدر والمكان .

(١٢) ورقة ١١٨ أ .

(١٣) تاريخ الاسلام (مخطوطة) ورقة ٢٣٨ أ ــ ٢٣٩

(١٤) ابن العديم . زبدة الحلب ١/١٥٥ .

ابن عمه حمدان بن ناصر الدولة عليه • وكان حمدان يتولى نصيبين وماردين والرحبة من اعمال الجزيرة ، غير انه استغل وفاة عمـه سيف الدولة فاضاف الى املاكه الرقة والرافقة من اعمال ديار مضر (١٥) وقد اتينا في الجـزء الاول من هذا الكتـاب (١٦) على وصـف الصـراع المـر بين ابنـاء ناصر الدولة بعد وفاته والذي ادى الى تمزق وحدة الاسرة وتعكير صـفو العلاقات بين افرادها وبالتالي الى اضعاف السـلطة الحمدانية ، وافسـاح المجال للتدخل الخارجي • ومهما يكن من امر فان ابا المعالي لم يكن فـي وضع يساعده على فرض هيبته والاحتفاظ بالمملكة التي كونها ابوه • ولكن الصراع بين ابي تغلب بن ناصر الدولة واخيه حمدان هو الذي اجبر هـذا الاخير على ترك مدينتي الرقة والرافقة (١٧) •

ولم يمض على وفاة سيف الدولة سوى بضعة اشهر حتى وقع خلاف مؤسف بين ابي المعالي سعد الدولة وخاله ابي فراس الحارث بن سـعيد بن حمدان(١٨) وكان ابو فراس قد تولى حمص من قبل سـيف الدولة بعد فكاكه من اسر الروم في شهر رجب سنة ٣٥٥/٩٦٥ م في الفـداء الكبير الذي قام به سيف الدولة في اخريات ايامه حيث دفع ستمائة الف دينار لقاء تحرير ابي فراس وثلاثة الاف اسير عربي كانوا لدى الروم(١٩) •

فلما توفي سيف الدولة فسدت العلاقات بين ابي فراس بابي المعالـي وثار عليه وعصاه ولعله كان يأبى ان يكون مجرد عامل لابن عمه وهـو اكبر منه سنا واقوى عزما واكثر شجاعة خاصـة وقد شـهد المملكة التي شادها سيف الدولة بسيفه ومضاء عزيمته بدأت تنهار بفعل تنافس الغلمان

---

(١٥) انظر الجزء الاول من مؤلفي هذا عن ديار مضر ص ١٣٤—١٢٩ .
(١٦) ص ٢٧٢ — ٢٧٦ .
(١٧) مسكويه . تجارب الامم ٢/٢٥٥ .
(١٨) انظر ابن الاثير الكامل ٨/٢٣٢ .
(١٩) انظر باب العلاقـات مع الروم .

وضعف ابى المعالى • فخرج ابو المعالى الى حمص سنة ٣٥٧ وجمع حوله في سلمية قبائل بنى كلاب ثم سار الى قرية صدد بين سلمية والشام حيث التحم مع ابى فراس ورأى جماعة ابى فراس ضخامة عدد عدوهم فأستامنوا اليه • وظل هو يقاتل عند قرية صدد حتى جرح عند جبل(سنير) فاستأمن • ولكن احد غلمان قرغوية (جوشن) ضربه باداة حديدية مضرسه وحز رأسه وحمله الى سعد الدولة وظلت جثة الامير ملقاة في البيداء حتى كفنه بعض الاعراب(٢٠) وكان مقتله يوم السبت جمادى الاول عام ٣٥٧/ ٤/نيسان ٩٦٨ ويبدو انّ قرغويه هو الذي ارتكب هذه الجريمة دون رضى مولاه (٢١) ومما يقوى هذا الظن ان ابا المعالى ولي حمص لذكا غلام قرغويه (٢٢) وهذا دليل على اضطراب شؤون الدولة الحمدانية بعد سيف الدولة وتحكم الغلمان • وقد حلل التنوخى (٢٣) هذه الحادثة تحليلا حسنا فالجيوش السيفية ــ على حد قوله ــ تفرقت بعد وفاة صاحبها واستقلت كل جماعة بناحية واصبح قرغويه هو الحاكم الفعلي وصاحب السطوة فى المملكة لتأييد الجند له وهو الذى حرض ابا المعالى ــ الذى كان آنذاك صبيا صغير السن ــ على قتل ابى فراس الذى طالما تغنى بمجد الاسرة الحمدانية ورفع ذكرها ، وسنرى ان اختلاف الحمدانيين فيما بينهم على اقتسام البلدان والاعمال شجع الروم على غزو الثغور وضمها الى امبراطوريتهم (٢٤) •

---

(٢٠) ابن العديم . زبدة الحلب ١/٣٥٧
(٢١) ابن خلكان . وفيات الاعيان ١/١٥٩ ــ يجعل ابن ظافر ورقة (١٦ب) مقتله في ٨ ربيع الاخر .
(٢٢) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١٦ب ــ ١٧ .
(٢٣) نشوار المحاضرة ١/١١١
(٢٤) يقول ابن خالويه (ديوان ابى فراس ــ الدهان ، ٢/٤٧) :وبلغنى ان

ج - الخلاف مع قرغويه وبكجور :

لم يلبث قرغويه ان قلب ظهر المجن لمولاه وجـذب الى صفه جميـع الغلمان واهل حلب وانتهز فرصة خروج سعد الدولة الى بالس سنة ٣٥٧/ ٩٦٧ م لصد الروم فكتب اليه يقول «امضى الى والدتك فان اهـل حلب لايتركونك تعود اليهم» . والواقع ان قرغويه كسب تأييد الحلبيين حيـن وعدهم باجراء اصلاحات في القلعة كما وعد بتحصينها وتقوية اسوارها (٢٥) ويبدو ان اهل حلب خاب ظنهم بسعد الدولة حين وجدوا الروم يصولون ويجولون على الحدود فلايردهم احد ووازنوا بينـه وبين ابيه فوجـدوا البون شاسعا وادركوا ان مجد الحمدانيين ذهب بذهاب سيف الدولة . وهكذا طرد قرغوية سيده واستولى على حلب وقطع الدعـاء له وتعاون هو وغلام له يدعى بكجور على تنفيذ هذه المؤامرة (٢٦) .

خرج سعد الدولة الى حران فمنعه اهلها وبعد الحاح منه سـمحوا لاصحابه بالدخول للتزود بالاقوات مدة يومين فقط (٢٧) وسـار الى ارزن فرفضه اهلها فمضى الى والدته بميافارقين بعد ان هجره اصحابه وانضموا الى ابن عمه ابي تغلب (٢٨) ومما يثير العجـب ان امـه نفسها رفضت

ابا فراس اصبح يوم مقتله حزينا كئيبا ، وكان قد قلـق تلك الليلـة قلقا عظيما ، فراته ابنته امراة ابي العشائر كذلك فاحزنها حزنـا كئيبا ، ثم بكت ، وهو على تلك الحالة ، فانشأ يقول ورجله في الركاب والخادم يضبط السير عليها ، وانما قال ذلك كالذى ينعى نفسـه وان لم يقصد ذلك فقال : ابنيتى ، لاتحزنى كل الانام الى ذهـاب.. الخ ثم سـار الى ملاقاة قرغويه فكان من امره ماقالـه من الشـعر فيـا بلغنـى ..

(٢٥) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٦٠ .
(٢٦) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١٦٠ ب .
(٢٧) ابن الاثير . الكامل ج ٨ ص ٢٣٦ .
(٢٨) نفس المصدر ج٨ ص ٢٣٦ .

دخوله الى ميارفاقين حين علمت ان غلمانه يتآمرون عليها وظل على ابواب المدينة ثلاثة ايام حتى رقت لحاله وادخلته بعد ان ابعدت من تشك فيه من اخوانه (٢٩) • ومما هو جدير بالملاحظة ان ارملة سيف الدولة هذه كانـــت سيدة ذات شخصية قوية وكانت هي التى تحكم ميارفاقين وتدبر امورهـا بحكمة حتى اذا ما توفيت ساءت احوال المدينــة وتعرضـــت للفوضـــى •

ويبدو ان سيرة سعد الدولة كانت سيئة جدا حتى انه فقد ثقة شعبه واحترامه واصبح كالشريد ينتقل من مكان الى مكان • كمـــا ان اســتبداد غلمانــه وضعفه امام الروم كل ذلك ادى الى تخلي الشعب عنه •

ظلت حلب سنة ٣٥٨ تحت رحمة قرغويه وبكجور فاقاما في بدايــة تلك السنة حكومة ثنائية واقتسما السلطة فيما بينهمـــا ودعى لهمـــا على المنابر بل كتب اســم بكجور على السكة ومن الطريف ان هذا دعى بالامير في حين ظل سيدة قرغويه بالحاجب (٣٠) ومما يــدل على ان بكجــور كان شخصية قوية فرض نفسه واستأثر بالسلطة •

وقد كان ابو الفوارس بكجور الحاجبي غلاما جركســيا مملوكـــا لقرغويه الحاجب ، وقد قنع سيده بلقب استاذ (على غرار كافور) وبالوصاية على سعد الدولة ، تاركا لبكجور امر قيادة الجيوش •

ظلت بعض المدن الحمدانية تدين لسعد الدولة بالطاعة والولاء وخاصة معرة النعمان التي اقام واليها زهيــر ــ وهـــو من غلمان سيف الدولــة الدعوة ــ لسيدة وكتب يستدعيه من حماة حيث كان يقيم في هذه الحقبة (٣١) فلبى سعد الدولة دعــوته • وفي منبــج التف حــوله جماعة مـــن

---

(٢٩) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٦٠ ــ ١٦١

(٣٠) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٦١ .

(٣١) ابن الاثير . الكامل ج٢ ص ٢٣٦ . يقول ابن القلانســي (ص٢٧) ان سعد الدولة سـار بعد ان منعه قرغويه من دخول حلب الى حـــــماة

انصاره وسار الجميع في رمضان سنة ٣٥٨ الى حلب للقضاء على قرغويه وبكجور (٣٢) .

استعان قرغويه بالروم لدفع سعد الدولة فارسلوا جيشا الى حلب في بداية سنة ـ ٩٦٩/٣٥٩ يقوده الظربازي (٣٣) ففك سعد الدولة الحصار عن عاصمته المغتصبة وسار الى معرة النعمان حيث ان انصاره ومؤيدوه (٣٤) . وقد ادى هذا الصراع الداخلي بين الحمدانيين الى ضياع سلطانهم فهادن قرغويه الروم على دفع جزية ضخمة عن حمص وجوسية وسلمية وحماة وشيزر وكفر وطاب وافامية ومعرة النعمان وحلب وجبل اسماق ومعرة مصرين وقنسرين (٣٥) وغيرها واصبح مجرد تابع لهم

ولما اقترب خطر الروم من ميارفارقين تخلى عنها ابو المعالى فحكمها ابو تغلب بن ناصر الدولة بواسطة ابى الفوارس هزار مرد غلام سيف الدولة كما استولى ابو تغلب على حران في جمادى الاولى سنة ٣٥٩ وولى عليها سلامة البرقعيدى(٣٦) . وهذا مثل من امثلة عدم التعاون بين الاسرة الحمدانية الذي طالما اشرنا اليه . ففي الوقت الذي كان بوسع ابي تغلب ان يقف بجانب ابا عمه وينصره ضد قرغويه والروم عمل على هدم سلطانه واقتطاع جزء من بلاده لمصلحته هو .. وهكذا ادت المنازعات بين سعد الدولة وغلمانه الى ضياع هيبة الدولة حتى لقب قرغويه نفسه ٣٥٩

ورفينه ونزل رقتاش التركي غلام سيف الدولة من حصن برزويه وكان يحارب الروم فلقى سعد الدولة فسار سعد معه الى حمص .

(٣٢) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٦١ .

(٣٣) نفس المصدر ج١ ص ١٦٢ .

(٣٤) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١٧ أ .

(٣٥) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٦٤ .

(٣٦) ابن الاثير . الكامل ج٨ ص ٢٧١ . ابن القلانسي ص ٢٧

بامير المسلمين بفضل تأييد الروم له (٣٧) . دب الشقاق بين ابي الفوارس بكجور وقرغويه وكان الاول يحمل على الاستئثار بالسلطة منذ سنة ٩٧٣/٣٦٣ م ثم قبض على حليفه وسيده وحبسه في قلعة حلب في ذي الحجة سنة ٣٦٤ (٣٨) مما يدل على قوة بكجور وتاييد فريق كبير من الجند له وان كان لم يستطع كسب اهل حلب الى جانبه . وكان سعد الدولة آنذاك في حمص يترقب الحوادث ، واتيحت له الفرصه حين طلب اليه حزب قرغويه دخول حلب (٣٩) . فسار يرافقه بنو كلاب وفي مسيرة احتل معرة النعمان وقتل الغلام زهير الذي كان قد غلب عليها وهو يثير الاستغراب لان زهير هذا كان قد استضافه في محنة ونزل على ابواب حلب فحاصرها مدة اربعة اشهر ثم دخلها في سنة ٩٧٥/٣٦٦ م بمساعدة اهلها الذين ملوا كثرة الفتن والاضطراب خاصة وان بكجور وضع يده بيد الروم ومكنهم من البلاد . وحين شعر بكجور بحرج موقفه تحصن في القلعة وظل يقاسي الحصار حتى نفذت اقواته فاضطر الى التسليم في ربيع الاول سنة ٩٧٧/٣٦٧ م وفق شروط تقدم بها وهي ان يؤمن على نفسه واهله ويولى حمص(٤٠) وقد بر سعد الدولة بوعده فولاه حمص حيث صرف همه الى تعميرها وتوطيد الامن فيها حتى غدت من اكثر مدن الشام استقرارا (٤١) واوفرها تجارة (٤٢) ويقول ابن القلانسي في هذا الصدد (٤٣) وسار بكجور الى حمص ، وصرف همه الى عمارتها ، وكان

---

(٣٧) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٦٥

(٣٨) المصدر السابق ج١ ص ١٧٠ . ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق ص٢٧ .

(٣٩) ابن الاثير . الكامل ج٨ ص ٢٧١ . ابن القلانسي ص ٢٧ .

(٤٠) نفس المصدر ج٨ ص ٢٧١

(٤١) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١٨ أ .

(٤٢) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨ .

(٤٣) نفس المصدر والمكان .

امره كل يوم فيها الى الزيادة بعد الدخول اليها • واتفق له ان اعمال دمشق من حوران والبثينية قد احتلت وخربت من قلة القوت وغلاء السعر وجلا منها خلق كثير الى حمص فعمر البلد وكثر الناس عنده • وكان في بكجور خور وكان مجتهدا في العمارة وامن السبل والطرق ، فلما انقطعت الغلات عن دمشق ومات بها خلق كثير من الناس جوعا من اهل حوران والبثينية ورغب الناس الجالون منها في حمل الغلة الى دمشق مكنهم من ذلك وحمى لهم الطرق في ترددهم بادين وعائدين فحسن حال حمص وكثر السفر منها واليها » •

استقر سعد الدولة بحلب فانصرف الى العمران وتحصين المدينة لعله يكسب رضى الاهالي • ولما وجد نفسه ضعيفا امام الروم ومهددا من جانب الفاطميين حالف البويهيين لتقوية مركزه ، فارسل وفدا لتهنئة عضد الدولة بمناسبة هزيمته لبختيار وبذل له الطاعة • وكان جزاءه ان منحه الخليفة الطائع لقب سعد الدولة وخلعا ازدهى بها وولاه على مافي يده من الاعمال في رجب سنة ٣٦٧ (٤٤) وخاطبه الطائع في كتاب العهد « بسيدي ومولاي وعدني (٤٥) » • ورغم هذه الإلقاب الضخمة اضاع سعد الدولة استقلاله واصبح مجرد نائب للعباسيين في سورية يدين بالخضوع لعضد الدولة في الوقت الذي اعلن ابن عمه ابو تغلب عصيانه العباسيين مما ادى الى خروج عضد الدولة الى الجزيرة وقضائه على سلطة الحمدانيين هناك ، مما يدل على ان سياسة فرع الاسرة الحمدانية — في الموصل وحلب — تجاه العباسيين كانت متناقصة (٤٦) •

---

(٤٤) انظر الجزء الاول من ٢٧٦ — ٢٨٢ .

(٤٥) ابن ظافر . الدول المنقطعة ص ١٨ أ .

(٤٦) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ص ١٧٣ .

وفي سنة ٣٧٢/٩٨٢ م ساءت العلاقة بين سعدالدولة وبكجور فامره ان يترك ولاية حمص ، فكتب بكجور الى العزيز بالله الفاطمي يطلب ولاية دمشق فاجابه بان «تصير الى بابنا لنوليك دمشق» . اي ان العزيز ادخل بكجور في خدمته وقرر الافادة ليس من خبرته فحسب ، بل لانه اغراه بجليل خدماته المقبلة ولمن معه من مهرة الصناع في السلاح امثال «غائب والرامح» (٤٧) . ويروى ابو شجاع (٤٨) ان بكجور كان مقربا لسعد الدولة ، فاصطنعه وقلده الرقه والرحبة واستكتب له ابا الحسن علي بن الحسين المغربي فلما طالت مدته في ولايته جحد الاحسان وحدث نفسه بالعصيان واستغوى طائفة من رفقائه فصاروا اليه ... ويتضح سلوك بكجور واخلاقه مما يذكره ابو شجاع عن تصرفه مع اهل الرقة حين صار الى دمشق للدخول في خدمة الفاطميين . ذلك انه اخذ رهائن من اهلها ليضمن طاعتهم .

وسلك بكجور في دمشق سلوكا سيئا فظلم الرعية وملأ جيوبه بالمال الحرام وقتل عددا من احداث المدينة وشبابها ليفرض هيبته فعزل سنة ٣٧٨ (٤٩) . فمضى الى الرقة واستولى على الرحبة وارسل الى البويهيين طالبا الدخول في طاعتهم كما راسل باذ الكردي الذي تغلب على الموصل وديار ربيعة وديار بكر (٥٠) بل انه راسل سعد الدولة طالبا العودة الى ولاية حمص .

---

(٤٧) ابن القلانسي ص ٧٨ .
(٤٨) ذيل تجارب الامم ص ٢٠٨ — ٢٠٩
(٤٩) ابن الاثير . الكامل ج٩ ص ١٥
(٥٠) يقول ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩) ان ولاية بكجور على دمشق كانت في رجب ٣٧٢) وكان يلي دمشق سنة ٣٧٠ ابو محمود =

ولما اهمله الجميع تآمر مع بعض مماليك سعد الدولة الذين اكدوا له ضعف سيدهم وانشغاله بملذاته وشهواته عن تدبير الملك (٥١) • ولجأ الى الفاطميين يغريهم بالاستيلاء على حلب واستنجد سعد الدولة بدوره بالروم لان البويهيين كانوا في هذا الوقت منهمكين في النزاع الداخلي الذي اضاع وحدتهم • فقد اعلن صمصام الدولة الحرب على بهاء الدولة واشتبكا على مقربة من شيراز سنة ٣٨٠ فلم يستطيعوا ان يتدخلوا في الاحداث التي كانت تجري في غير صالحهم في شمالي سورية • وفي اواخر المحرم سنة ٣٨١ التقى سعد الدولة ببكجور في الناعورة بين حلب وبالس (٥٣) واستطاع ان يهزمه خاصة وقد خذله العرب من بني كلاب الذين كانوا في جيشه (٥٤) • وقبض احد الاعراب على بكجور مختبأ في موضع على نهر قويق وجاء به اسيرا الى سعد الدولة فقتله وصلبه يوم ١ صفر عام ٣٨١ (٥٥) • ومما هو جدير بالذكر ان جيش سعد الدولة كان مكونا من العرب والروم والارمن والديلم والاتراك (٥٦) • وقد تردد سعد الدولة في قتل بكجور اول الامر لكن غلامه لؤلؤ اشار اليه قائلا (٥٧) « ضرب عنقه لوقته لو جاءت ستاء الزينة وست الناس (يعني اخته) واستوهبته منك فوهبته لها لكان لناشغل مجدد» (٥٨) • ومن هذا نرى ان بكجور

= ابن جعفر ويبدو ان الاعراب طمعوا في عهده بدمشق وهددوها (ابن القلانسي ص ٢٨) •

(٥١) ابن القلانسي • ذيل تاريخ دمشق ص ٣١

(٥٢) ابن الاثير • الكامل ج٩ ص ١٦ •

(٥٣) ابن الاثير • الكامل ج٩ ص ٣٥

(٥٤) ابن العديم • زبدة الحلب ج ١ ص ١٨٧

(٥٥) ابن الاثير • الكامل ج٩ ص ٣٦ •

(٥٦) ابن العديم • زبدة الحلب ج١ ص ١٧٩ •

(٥٧) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤ •

(٥٨) نفس المصدر ص ٣٨ •

قد أصبح خطرا يهدد كيان الدولة الحمدانية في حلب ، وان التخلص منه كانت تقضي به مصلحة الدولة . وليس ادل على خطره مما قاله لؤلؤ مخاطبا اولاد سعد الدولة بضرورة قتله حتى ولو شفعت له سيت الناس التي كان اخوها ينزلها من نفسه منزلة رفيعة . ودخل سعد الدولة الرقة واستولى على اموال بكجور ، وقد بلغت نحو ثمانمائة الف دينار كما قيل وقبض على اهله واولاده لكنه اكتفى بمصادرة اموالهم كما سنرى (٥٩).

التدخل الفاطمي والبيزنطي :

كان لابد ان تصطدم مصالح الحمدانيين بمصالح الفاطميين في الشام على الرغم من ان الفريقين من الشيعة (٦٠) لذلك حرض الحمدانيون القرامطة على غزو الشام ، والوقوف في وجه الفاطميين ، بعد ان كانوا يصرحون بموالاتهم ويعملون على ترويج مذهبهم . والحق ان العلاقة بين الحمدانيين والقرامطة تحسنت منذ ايام سيف الدولة الاخيرة ، فقد بعث القرامطة يستهدونه حديدا فسير اليهم كثيرا ، وحمل ذلك اليهم في الفرات ثم في البرية الى هجر (٦١) .

ونرى الحمدانيين يساندون الحسن الاعصم القرمطي في حروبه ضد المعز الفاطمي وابنه العزيز من بعده . وقد فجر العداء بين الحمدانيين والفاطميين ان جعفر بن فلاح القائد الفاطمي بعد ان استولى على دمشق هدد الحمدانيين بالاستيلاء على بلادهم اذا امتنعوا عن اقامة الدعوة على منابر بلادهم للخليفة الفاطمي (٦٢) .

---

(٥٩) ابن الاثير . الكامل ٣٦/٩ .

(٦٠) من الجدير بالذكر ان الحمدانيين كانوا من الشيعة الامامية ، على حين كان الفاطميون من الاسماعيلية .

(٦١) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٣٣٦/٤ .

(٦٢) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ٣٠٤/٣ .

ولما عاد سعد الدولة الى حلب من بالس فى سنة ٣٦٣/٩٧٣م بعد عصيان قرغوية كما اسلفنا ، ارسل العزيز الفاطمى اليه ابا القاسم احمد ابراهيم الرسى ، فتم التحالف بينهما واقام سعد الدولة الدعوة للفاطميين بحلب وارسل جوابا وديا على رسالة العزيز حمله ابن الخشاب الهاشمى قاضي حلب (٦٣) • غير ان هذه الحقيقة المهمة يضعف من قيمتها قول ابن العديم نفسه (٦٤) ان سعد الدولة لم يكن بحلب خلال سنة ٣٦٤ ، بل بعيدا عنها حتى فتحها فى سنة ٣٦٥/٩٧٥ م حين انفرد بكجور بالحكم على اثر تخلصه من قرغويه • ولا بد ان اقامة الخطبة للفاطميين هناك تمت بعد هذا التاريخ ، والراجح انها كانت فى سنة ٣٧٦/٩٨٦ م كما قال ابن العديم فى موضع آخر (٦٥) •

ولى سعد الدولة بكجور على حمص في سنة ٣٦٧/٩٧٧ نظل بها حتى سنة ٣٧٢ / ٩٨٢ م حين اقصاه مولاه عن الولاية (٦٦) فما كان من بكجور الا ان كتب الى العزيز الفاطمي يسأله انجاز وعده بتوليه دمشق • وكان العزيز بحاجة ماسة لخدمات بكجور والافادة من مزاياه العسكرية فى تهدئة الاحوال بدمشق فكتب الى بلتكين (٦٧) التركى ومنشا اليهودى الاصل كاتب الجيش ان يسلما البلد الى بكجور ويرحلا عنه • لكن بلتكين والي دمشق من

---

(٦٣) ابن العديم ١/١٧٠ •
(٦٤) نفس المصدر ١/١٧٠ – ١٧١
(٦٥) نفس المصدر ١/١٧٨ • ويقول يحيى بن سعيد (ص ١٥٧) ان الدعوة اقيمت في سنة ٣٦٧ بحلب للطائع ولعضد الدولة ثم لسعد الدولة •
(٦٦) ابن القلانسي ص ٢٨
(٦٧) يسميه يحيى بن سعيد ص ١٦٣ (تلتكين) •

قبل الفاطميين لم يترك دمشق على الرغم من اوامر الخليفة الفاطمى بايعاز من الوزير يعقوب بن كلس (٦٨) • واورد بكجور ان يثبت للعزيز حسن نواياه ورغبته الصادقة فى خدمته مستغلا ضعف الحمدانيين فكتب الى العزيز يطلب تزويده بجيش يعمل به على الاستيلاء على حلب وضمها الى دولة الفاطميين ، فأمده ببعض جند دمشق فعلا ، وسار بهم وحاصر حلب •

وفي هذا الظرف العسير ظهر «دمستق» الروم (٦٩) واتجه الى انطاكية وفي نيته مباغتة بكجور عند حلب • غير ان ابن الجراح (٧٠) كتب اليه يحذره فرحل عن حلب الى حمص فلاحقه جيش الروم فرحل الى جوسيه •

اما الدمستق فانه لم يحتل حلب انما اكتفي بزيارة كنيستها ثم رحل الى البقيعة في طريقه الى طرابلس • ومن هناك كتب الى اهل حمص يطالبهم بالاموال ، غير ان هؤلاء اجابوه : « هذا بلد خراب ليس فيه مال » • ويبدو ان هذا الجواب احنق الدمستق فعاد الى حمص واقتحمها وقام جيشه بالنهب والسلب واحرق المسجد الجامع وذلك فى يوم الثلاثاء ١٩ جمادى الاول سنة ٣٧٣ (٧١)والحق ان ابا المعالى نفسه هو الذى خشي

---

(٦٨) كان ابو الفرج يعقوب بن كلس يهوديا بغداديا استخدمه كافور • وقد اسلم فى سنة ٣٥٦ • ثم خدم ابن كلس الفاطميين وولى الوزارة للعزيز فى سنة ٣٦٨ وظل وزيرا حتى توفى سنة ٣٨٠ (ابن منجب الصيرفى — الاشارة الى من نال الوزارة ص ١٩ وما بعدها) كذلك انظر عن سيرته (ابن القلانسى ص ٣٢) •

(٦٩) يسانيه يحيى بن سعد (ص ١٦٣) بردس الفوقاس الدومستيفشس •

(٧٠) هو مفرج بن دغفل بن الجراح وقد خلع طاعة الفاطميين فى الشام سنة ٣٧١ فسير العزيز اليه رشيق العزيزى فطرده عن الشام وهزمه وسار ابن الجراح بعد هزيمته يريد قطع الطريق على الحجاج فانفذ العزيز مفلح الوهبانى مع عسكر معه ليدافع عنهم ؛ فهزمه ابن الجراح شر هزيمة وعاد ابن الجراح الى الشام فلقيه رشيق ثانية وهزمه فدخل الى البرية والتجأ الى بكجور بحمص فاجوره ، ثم قصد انطاكية

(٧١) ابن القلانسي ص ٢٨—٢٩ •

خطر بكجور والفاطميين واستعانه بالروم (٧٢) •

وظل بكجور ينتظر تسلم ولاية دمشق ، الا ان الوزير ابن كلس اوعز الى بلتكين الا يسلمها له • وحين علم العزيز بذلك كتب يذكر باوامره وبضرورة تنفيذ وعده ، فقال له الوزير : الصواب ان « لايلي بكجور دمشق ويعصى فيها » فاجابه العزيز « نحن استدعيناه لذلك ووعدناه به» فقال الوزير « قد كان ذاك والحزم ان لا يولى » • غير ان الخليفة اصر على رأيه مما اجبر ابن كلس على ان يكتب الى كاتب الجيش بدمشق منشا ابن العزار ان يسلم ولاية دمشق لبكجور فتسلمها فعلا من بلتكين يوم السبت ٧ رجب سنة ٣٧٣ (٧٣) • وقد ادى موقف ابن كلس هذا الى ايغار صدر بكجور عليه • وقد زاد العلاقة سوء بينهما ان بكجور قتل ابن ابى العود وهو يهودى يعمل نائبا لابن كلس فى ضياعه بالشام متهما اياه بانه «عين» عليه • واعتبر ابن كلس هذا الحدث بداية عصيان بكجور وحذر منه العزيز الفاطمى(٧٤) •

واخذ ابن كلس يعمل على التخلص من بكجور ، وكلف عطارا مسيحيا من اهل دمشق يعرف بابن اخى الكويس ان يحتال على قتله • فكتب هذا برسالة سرية الى احد اعوان بكجور يغريه بالقيام بالاغتيال، الا ان هذا اطلع بكجور على «الرقعة» مما كشف المؤامرة والقائمين

= ملتمسا من باسيل ملك الروم النجدة فمنحه مبلغا وتخلص منه ، فرجع الى الشام وطلب الامان من العزيز فاجابه الى ذلك «يحيى بن سعيد ص ١٦٣ » .

(٧٢) نفس المصدر ٢٩ .

(٧٣) نفس المصدر والمكان .

(٧٤) نفس المصدر والمكان .

بها وادى الى القبض على العطار وكل الذين يجالسونه « فكحلهم وتفاهم وكان منهم ثلاثة من اهل العلم والفضل يقال لاحدهم ابن الخطابي والاخر الخلادي والثالث المسؤلي » ثم صودر ابن الكويس « وصلب » مع اثنين من المتهمين في رمضان سنة ٩٨٧/٣٧٧ م .

واخذ بكجور يؤذي اصحاب ابن كلس « وجار في البلد جورا عظيما ولم يخل من القتل والصلب والفتك » (٧٥) ويبدو انه كان قاسيا سيء السيرة ظلم الرعية واستولى على اموالها فما كان من العزيز الا ان ارسل جيشا في سنة ٩٨٨/٣٧٨ م يقوده منير الخادم لقتال بكجور . اما هذا فاستعان ببني كلاب الذين كونوا اغلب جيشه . ودارت الدائرة على بكجور وقتل كثير من الكلبيين واخذ يلح فى طلب الامان ، خاصة حين علم ان نزال والى طرابلس انضم الى جيش منير الخادم .واجيب بكجور الى طلبه فجمع ماله وسلاحه وتوجه فى منتصف رجب سنة ٣٧٨ سرا نحو الشرق بمحاذاة الجبل الى حوارين وهو حصن في نواحي حمص (٧٦) غير ان بكجور لم يلبث ان توجه سرا الى الرقة حيث راسل باذ الكردي (٧٧) من جهة محاولا عقد تحالف معه ، وراسل سعد الدولة من جهة اخرى يطلب منه ان يرده الى ولاية حمص . وقد استجاب سعد الدولة لطلبه فولاه حمص فعلا فى سنة ٩٨٩/٣٧٩م مما اثار استياء ابن كلس فارسل قوة صغيرة باغتت اصحابا لبكجور واسرتهم مما ادى الى تأزم العلاقات بين بكجور والفاطميين من جهة

---

(٧٥) ابن القلانسى ص ٣٠ .

(٧٦) نفس المصدر والمكان .

(٧٧) ابن العديم ١٧٨/١ . ابن القلانسى ص ٣٠

وبين هؤلاء وسعد الدولة من جهة اخرى(٧٨) .

واخيرا مرض يعقوب بن كلس مرض الموت وتوفى سنة ٣٨٠/٩٩٠ فتخلص بكجور من خصم كان «خبيثا ذا مكر وحيلة ودهاء وذكاء وفطنة» (٧٩) . وتتمثل سياسة الفاطميين الخارجية في عهد وزارة ابن كلس بنصيحته للعزيز :

« سالم يا امير المؤمنين الروم ماسالموك واقتنع من الحمدانيين بالدعوة والسكة ولاتبقى على المفرج بن دغفل بن الجراح» (٨٠) .

ظل بكجور يلعب لعبة مزدوجة فى سبيل تحقيق مصالحه الشخصية فاخذ يغري العزيز الفاطمي بحلب ويبالغ في وارداتها وانها « دهليز العراق ومتى اخذت كان مابعدها اسهل منها» (٨١) فأمر العزيز واليه على طرابلس ويدعى نزال وغيره من عماله في الشام ان ينجدوا بكجور الذي ادعى ان الجيش الحمدانى بحلب كاتبه سرا وبذل له الطاعة . غير ان عيسى ابن نسطوروس (٨٢) وزير العزيز كاتب نزال سرا وامره بخذلان بكجور لعداوة بينهما (٨٣) .

وحاصر بكجور بالس مدة خمسة ايام ، غير انه اخفق فى اقتحامها بسبب مقاومة غلمان سعد الدولة من الديلم وغيرهم فرحل عنها يريد حلب . ومن الغريب ان سعد الدولة لجأ الى امبراطور الروم باسيل

---

(٧٨) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ٢٨٦-٢٨٧ .

(٧٩) ابن القلانسي ص ٣١ .

(٨٠) ابن القلانسي ص ٣٢ .

(٨١) ابن الاثير . الكامل ٩/٣٥ ، ابن القلانسي ص ٣٣ .

(٨٢) كان نصرانيا ، وعزل في اوائل عهد الحاكم لمحاباته اهل ملته
حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة ٢ القاهرة ١٩٥٨) ص ٢٧٢

(٨٣) ابن الاثير ٩/٣٥ . ابو شجاع ص ٢٠٩ . ابن القلانسي ص ٣٤

الثاني الذي اوعز الى برترس البرجي والى انطاكية تنجدته • ونــــــزل البرجي في مرج دابق (على بعد فرسخين من حلب) في حيــن نزل بكجور في الناعورة وارسل فصائل من جنده الى تل اعرن (على بعــد اربعة فراسخ من حلب) • وكان جيش سيف الدولة يتألف من ستة الافــ رجل من الروم والارمن والدليم والاتراك و « لم يكن معه من عسكـــر العرب الاعمرو بن كلاب وعدتهم خمسمائة رجل ، ومن ســواهم مــن بطون العرب تني كلاب مع بكجور » (٨٤) وهذا امر يثير الدهشة ويــدل على ان سعد الدولة اخفق في كسب رضى القبائل العربية ورمى نفسه بين احضان العناصر الاجنبية •

يصف المؤرخون موقعة «الناعورة» التى جرت بين سـعد الدولة وبكجور سنة ٩٩١/٣٨١ وصـفا طريفا • وسـنقوم هنا بعرض موجـز لاحداث هذه الموقعة الفاصلة التى وضـعت حدا لحياة بكجور ، مستندين الى المعلومات التي قدمها ابو شجاع (٨٥) وابن القلانسي (٨٦) •

برز سعد الدولة واستعرض جيشه فاعجبه ما رأى من عدته وعــدده ونزل الى الارض فصلى ودعا الله ان ينصره على بكجور الذى طالما غــدر به • واجتمع اصحاب سعد الدولة اليه وقالوا له : « نفوسنا بين يديــك والله لنبذلها في طاعتك والمدافعة عنك » •

فشكرهم وقال لهم « هذه الدولة لكم وانا فيهـا واحــد منكـــم » واستدعى كاتبه المصيصي فدبج له رسالة الى بكجور « يستعطفه ويذكره الله ويخوفه ويبذل له ان يقطعه من باب حمص الى الرقة ويدعــوه الى

---

(٨٤) ابن القلانســـى ص ٣٤ .
(٨٥) ذيل تجارب الامم ٢١١ـ٢١٥ .
(٨٦) ذيل تاريـخ دمشـــق ٣٤ـ٣٨ .

الكف والموادعة ورعاية حق الرق والعبودية » (٨٧) •

وسار سعد الدولة فعسكر في البيزب (على بعد ميل من حلب) ، اما الروم فقد عسكروا بازائه ووصل رسول سعد الدولة ، الا ان بكجور قابله بغطرسة وقال له : قل له الجواب ما تراه عيانا لا ما ارسل اليك كتابا » فتقدم سعد الدولة الى «ديرالزبيب» وجعل في مقدمة جيشه فرسان عمرو بن كلاب وشجعان غلمانه ، وكان اذا عاد الواحد منهم جريحا خلع عليه واحسن اليه ، على العكس من بكجور الذى كان بخيلا واذا عاد اليه رجل على هذه الحال امر ان يكتب اسمه لينظر متأففا في امره •

ولجأ سعد الدولة الى اسلوب اخر في الدعاية فكاتب العرب الذين كانوا في جيش بكجور واغراهم بالاقطاعات الكثيرة والمنح والعطايا الجزيلة ، فانحازوا اليه تعد ان نهبوا معسكر بكجور • وحين رأى هذا تقاعس نزال ، وغدر العرب وتأخر غلمان سعد الدولة الذي كانوا كاتبوه نصحه كاتبه ابو الحسن بن المغربي ان يرجع الى الرقة ويكاتب العزيز ويستنجد به • غير ان قواده رفضوا هذا الرأي ، فقرر ان يباغت سعد الدولة بهجوم خاطف ليقتله لكن الخطة وصلت الى لؤلؤ الجراحي (من غلمان الحمدانيين) الكبار فابلغ سعد الدولة بها • وجال بكجور في اربعمائة فارس من الغلمان «عليهم الكذا تقدات والخوذ وبايديهم السيوف واللتوت وعلى خيلهم التجافيف» (٨٨) وضرب بكجور لؤلؤ على رأسه فوقع على الارض • لكن سعد الدولة اظهر نفسه لغلمانه فقويت عزائمهم وثبتوا في القتال فهزم بكجور وفر نحو حلب •

---

(٨٧) اشارة الى ان بكجور كان من مماليك الحمدانيين .

(٨٨) التجافيف نوع من الدروع يلبسها الانسان والفرس .

ويصف ابن القلانسي(٨٩) فرار بكجور فيقول انه رمى عن نفسه جوشنه وعن فرسه تجافيفه ، وكان الفرس الذي تحته من الخيول التي اعدها لمثل هذا الظرف العسير وثمنه الف دينار ووصل الى طاحونة « تسمى القيريمي» على بعد فرسخ من حلب مقابل قنسرين ، ولها سافية تتصل بها سمتها ذراعان ، فلم يستطع الفرس العبور لانه كان مجهدا ، وجاء الاعراب فسلبوا بكجور وجماعته وتركوهم عرايا فلجأوا الى الرحى واستجاروا بصاحبها فادخلهم اليها ، ثم لجأوا الى حقل حنطة واختبأوا فيه ، ومرت جماعة من الاعراب فتعرف احدهم على بكجور ، لكن هذا طلب اليه ان يحمله الى الرقة فيوقر بعيره ذهبا ، فحمله الى بيته وكساه قميصا وفروا وعمامة .

وكان سعد الدولة قد بث الخيل في طلب بكجور ونادى ان « من احضر بكجور فله مطلبه» وسمع البدوي هذا النداء فطمع في عطايا سعد الدولة ، فركب الى معسكره وصاح «نصيحة» فاحضر الى مجلس الامير فسأله : مانصيحتك ؟ فقال : ماجزاء من يسلم بكجور ؟ قال : حكمه قال : فهو عندي ، واريد عنه مائتي فدان زراعة ، ومائة الف درهم ، ومائة راحلة تحمل حنطة وخمسين قطعة ثيابا . قال سعد الدولة : وكل ذلك لك . قال وثق لي منه . وعرف لؤلؤ الجراحي بما يجري في مجلس سعد الدولة فتحامل وهو مثخن الجراح ، وسار متوكئا على غلمانه حتى حضر بين يدي سعد الدولة فقال : يامولاي ! مايقول هذا ؟ قال : يقول ان بكجور عنده وقد طلب ماأجبناه اليه وهو ماض لاحضاره فقبض لؤلؤ على يد البدوي وقال له : اين اهلك ؟ قال : في المرج على فرسخ فاستدعى جماعة من الغلمان جعل في مقدمتهم اقبال السقيفي ،

---

(٨٩) ص ٣٦ ، كذلك انظر أبو شجاع ص ٢١٢ .

وأمرهم أن يرتقوا قمم الجبال حتى يصلوا الى الحلة ويقبضوا على بكجور ويحملوه ، وفي الوقت نفسه احتفظ بالبدوي رهينة ، ولم يلبث هؤلاء الغلمان ان عادوا ومعهم بكجور • ونصح لؤلؤ بقتله قبل ان تستوهبه من الناس • فأمر سعد الدولة مزجا العدلي سيافه فضرب عنقه وصلب برجليه في الموضع المعروف بـ «حصن الناعورة»

وسار سعد الدولة بعد ان تخلص من خطر بكجور الى الرقة وفيها سلامة الرشيقي نائب بكجور وابو الحسين المغربي كاتبه واولاد بكجور وحرمه وامواله • وارسل سلامة طالبا اليه تسليم البلد فأجابه «فاني عبدك وعبد عبدك ، الا ان لبكجور علي عهودا ومواثيق لامخلص لي عند الله منها الا بأحد الامرين ، اما ان تذم (٩٠) لاولاده على نفوسهم واموالهم وتقتصر فيما تأخذه على الات الحرب والعدد وتحلف لي ولهم على ذلك ، واما ان ابلي عذرا عند الله عز وجل فيما عقدته لبكجور » فاجابه سعد الدولة الى هذه الشروط وحلف له يمينا صاغها ابو الحسن بن المغربي • ولما وثق بسلامة سلم حصن الرافقة » • وخرج القوم ومعهم من المال والرحل الشيء الكثير وسعد الدولة يشاهدهم من وراء سرداقه وبين يديه ابن ابي حصين القاضي ، فقال له : « ما ظننت ان حال بكجور انتهت الى ما اراه من هذه الاموال والاثقال • فقال له : اى شيء اعتقد الامير فى ذلك ؟ فقال له : وهل بقى فى هذا الامر موضع اعتقاد ؟ قال له ابن ابى حصين : ان بكجور وأولاده ممالبك وكل ما ملكوه فهو لك ولا حرج عليك فيما تأخذه ولاحنث في الايمان التي حلفت بها ، ومهما كان فيها من وزر واثم فعلي دونك » • كانت هذه

---

(٩٠) اى تؤمنهم على نفوسهم واموالهم .

الفتوى الظالمة غير الاخلاقيةهو مايطمح اليه سعد الدوله .فما كان منه الا ان قبض على اولاد بكجور ودويه وصار كل ما معهم (٩١) .

وكتب اولاد بكجور الى العزيز فبعث هذا بكتاب تهديد مع فايق الصقلي يحذر فيه سعد الدولة من ايذاء اولاد بكجور ويهدده بالمسير لحربه . فاهان سعد الدولة الرسول واجبره على ان يبتلع الرسالة .فاحتج الرسول قائلا : انا رسول وما عرف عن الملوك معاملة الرسول بمثل هذا . « غير انه اجبره على مضغ الرسالة وقال له : عد الى صاحبك وقل له لست ممن تخفى اخبارك عنه وتمويهاتك عليه ومابك حاجة الى تجهيز العساكر اني فانني ساير اليك ليكون اللقاء قريبا منك ، وخبري يأتيك من الرملة» . (٩٢) ونحن نتساءل عن مصدر شعور سعد الدولة بالقوة بحيث يهدد بفتح مصر . ولعل الجواب يكمن في انه كان محتميا بالروم الذين اعانوه على بكجور فهل كان الروم وراء مشروع التهديد باحتلال مصر ؟ ومهما يكن من امر فان سعد الدولة اهمل الجهاد ضد الروم ، ذلك الجهاد الذي رفع ابوه سيف الدولة رايته عاليا وكان نقطة وضيئة في افق ذلك العصر .

لقد اخفقت جهود الفاطميين في الاستيلاء على حلب بانهيار قوة بكجور وزواله من مسرح التاريخ . وهم لم يكتفوا باقامة سعد الدولة الخطبة لهم في حلب في وقت من الاوقات بل طمعوا(٩٣) في الحاق املاك الحمدانيين بدولتهم لحماية حدود مصر الشرقية . وبخاصة وقد كان العزيز بالله خليفة طموحا استطاع خلال حكمه ان يحقق هذا المشروع

---

(٩١) انظر ابن القلانسي ٣٨ ، ابو شجاع ص ٢١٤ .

(٩٢) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ٢١ آ = ابن القلانسي ص ٣٩ ابو شجاع ص ٢١٥ .

(٩٣) ابن العديم ١٧٨/١ .

فيما بعد كما سنرى (٩٤) .

وفـــاة سعد الدولة

اقام سعد الدولة بظاهر حلب مع جيشه اياما لكنه شـــعر باعراض مرض القولنج وربما الفالـــج (٩٥) فنصحـــه طبيبـــاه الثغليسي ويوانيس بدخول حلب وملازمة الحمام فرفض ذلك بحجة انه فى حالة حـــرب مع الفاطميين ، غير ان المرض اشتد عليه فدخل الى المدينة حيث خضع لعلاج طبي جيد ادى به الى البرء ، بحيث كتب الى اصحابه يبشرهـــم بعافيتـــه . واخذ المقربون اليه يعودونه ويهنأونه بالسلامة .لكنه « فى اليوم الثالث من اكله الفروج زين له البلد ليركب فيه من غد ويعود الى العســـــكر فاتفق ان حضرت عند فراشه .. جارية تسمى انفـــراد وكـــان يتحظاهـــا ويقدمها على سواها من سرياته وهن اربعمائة جاريـــة فتتبعتها نفســـه وواقعها ، فلما فرغ سقط عنها وقد جف نصفه » . (٩٦) وبادرت الجارية الى اخته ست الناس « التي كانت في غاية الحرص على صحته والاشفاق عليـــه فاعلمتها عن حالة اخيها فهرعت ست الناس الى طبيبيه فاستدعتهما.وعرف الطبيبان سبب النكسة فامرا ان يحاط بشجر الند والعنبر ليفيق مـــــن غيبوبته ، فلما أفاق قال له الطبيب الثغليسي « اعطني ايها الامير يدك لاخـــذ بجسمك». فاعطاهاليسرى فقال:«يامولاناليمين» فقال .ياثغليسي :ماتركت لي اليمين «يمينا» ، وهو بذلك يشير الى نكثه باليمين الذي حلفه لاصحاب

---

(٩٤) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٢/٤٩٩ .
(٩٥) ابن الاثير ٩/٣٦ .
(٩٦) ابن القلانســـى ص ٣٩

بكجور (٩٧) • وبعد ثلاث ليال توفي سعد الدولة ، ولم تجده عناية طبيبيه واخته الوفية •

كانت وفاة سعد الدولة ليلة الاحد ٢٦ رمضان من سنة ٣٨١/٩٩١ ، بعد ان طال مرضه خمسة شهور ، وحمل تابوته الى الرقة فدفن بمشهد في ظاهرها (٩٨) • وقد حكم حو من خمس وعشرين سنة تميزت بالنزاع الداخلي العنيف واستبداد الغلمان والمماليك وضياع هيبة المملكة ، واقتطاع اروم جزء كبيرا ن اطرافها ، وتهديد الفاطميين المستمر بابتلاع اجزائها • وكان من اسباب ضعف هيبة الحكم انشغال سعد الدولة بلهوه وملذاته حتى انه اقتنى اربعمائة جارية (٩٩) وافرط في الملذات الى حد انه لم يرعو عنها حتى في اشد حالات مرضه مما سرع في موته •

عهد سعيد الدولة :

(آ) الاحوال الداخلية

ولى سعد الدولة عهده ابنه ابا الفضائل سعيد واوصي به وبولده الاخر ابي الهيجاء واخته الاثيرة ست الناس لؤلؤ الكبير الذي جعل قيما على الامير الصغير (١٠٠) وأقر الغلمان امارة ابي الفضائل ولقبوه سعيد الدولة ، يوم الاحد ٢٦ رمضان اي غداة وفاة ابيه • وأصبح جيشه ومدبر امره ابو محمد لؤلؤ الكبير الجراحي الذي اخذ له العهد على الاجناد (١٠١) وهكذا تجددت المشكلة نفسها التي شهدناها في عهد

---

(٩٧) ابن العديم ، ١٨١/١ . ابن القلانسي ص ٣٩ ، ابو شجاع ص ٢١٦

(٩٨) ابن القلانسي ص ٣٩ •

(٩٩) نفس المصدر ص ٣٩ •

(١٠٠) ابن العديم ١٨٥/١ . ابن القلانسي ص ٣٩ •

(١٠١) ابن الاثير ٣٧/٩ . ابن القلانسي ص ٣٩ •

سعد الدولة ، فاستبد الغلمان واستأثروا بالسلطة • ولم يلبث لؤلؤ ان اصبح الحاكم الفعلي وبخاصة بعد ان زوج ابنته لسعيد الدولة (١٠٢) •

وبمجرد ان بلغ نبأ وفاة سعد الدولة قواته العسكرية المبثوثة هنا وهناك ، تراجعت الى حلب لتراقب الوضع الجديد • والتجأت بعض هذه القوات الى الفاطميين ، فاستأمن الى العزيز بالله رقي الصقلبي (١٠٣) في ثلاثمائة غلام ، وبشارة الاخشيدي في اربعمائة ورباح السيفي في قوة ثالثة • فاستقبل العزيز هؤلاء المستأمنين احسن استقبال وولى رقي عكا وبشارة طبرية ورياحا قيسارية • وكان ابو الحسن علي بن الحسين المغربي كاتب بكجور قد راسل العزيز والتجأ اليه واغراه بفتح حلب (١٠٤) •

وبدأ سعيد الدولة حكمه بان ادخل بعض الاصلاحات المالية والاقتصادية في صالح الشعب • وذلك ان جده سيف الدولة واباه سعد الدولة قاما باغتصاب املاك واموال فئات من الرعية ، فلم يكن من سعيد الدولة ــ بتدبير لؤلؤ ــ الا ان رد الاموال المغتصبة الى اصحابها ورفع الجور عن المظلومين • ولعل هذه الاجراءات كانت لخلق شعبية لسعيد الدولة وتهدئة الاحوال المتفجرة ودفع الاخطار الكثيرة المحدقة بدولة الحمدانيين في الشام •

وفي سبيل صد خطر الفاطميين المحدق تقرب سعيد الدولة الى الخلافة العباسية وحصل منها على ولاية ديار مضر • والحق ان الخلافة العباسية كانت في هذه الاونة تقاسي الضعف وتعاني من الاضراب الداخلي • فقد عمد

---

(١٠٢) ابن العديم ١/١٨٥

(١٠٣) يسميه مسكويه (٢١٧/٣) وفاء الصقلبي .

(١٠٤) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٤٩٩/٢ . ابن القلانسي ص ٣٩ . مسكويه ٢١٧/٣ .

بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي في شهر رجب سنة ٣٨١ الى خلع الخليفة الطائع لنه طمعا في مال كان قد جمعه وقطع اذنه واعتقله في دار السلطان الى ان توفي ، وبويع بالخلافة احمد بن اسحق بن المقتدر ولقب القادر بالله (١٠٦) • وكانت الفتن بين الديلم والاتراك على اشدها ، والانقسام بين افراد الاسرة البويهية قد بلغ حد الانفجار • وبعد وفاة سعد الدولة كتب اهل الرقة والرحبة الى بهاء الدولة يطلبون ارسال والي جديد ، فندب خمارتكين الحمصي (وهو تركى) فملك الرحبة . ثم سار الى الرافقة وبها حاكم الحمدانيين سعد السعدي فاعتصم بالرافقة وحال دون دخول خمارتكيين اليها مما اضطره الى العوده الى الرحبة •وحين بلغه اضطراب الامور ببغداد عاد ادراجه غير ان بعض الاعراب اسروه ولم يطلقوا سراحه الا بعد ان افتدى منهم بالمال (١٠٧) وانشغلت بغداد بمشاكلها الداخلية فاقرت حكم الحمدانيين في ديار مضر • غير ان العباسيين لم يكونوا في وضع يستطيعون معه صد خطر الفاطميين ، ومن ثم وقع سعيد الدولة فى احضان البيزنطيين •

الصراع مع الفاطميين :

اشتد طموح الفاطميين فى غزو سورية الشمالية فى عهد سعيدالدولة وكان لموقف ابي الحسن المغربى اثر فى تغذية هذا الطموح لانه« عظم امر حلب عنده ـ اى عند العزيز ـ وكثر له اموالها وهون عليه حصولها واشار باصطناع احد الغلمان وانفاذه اليها » (١٠٨) •

وقد استجاب العزيز لهذا الاغراء فسير جيشا بقيادة منجوتكين

---

(١٠٦) ابو شجاع ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، اما يحيى بن سعيد (ص ١٧٢) فيجعل خلع المطيع في ١٢ شعبان .

(١٠٧) مسكوية ٢/٢٢٩ . اما ابو شجاع ص ٢٣٩ فيسمى نائب الحمدانيين في الرحبة والرقة «بدرا» .

(١٠٨) نفس المصدر ٢١٧/٣ . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢/٤٩٩ .

التركى(١٠٩) امير الجيوش ووالى الفاطميين بدمشق ، وامره بفتح حلب(١١٠) وامر القواد باجلاله والترجل له ، وعين له كاتبا احمد بن محمد القشوري وضم اليه ابا الحسن المغربى « ليقوم بالامر والتدبير »(١١١) .

وصل منجوتكين الى دمشق حيث تجمعت لديه جيوش الفاطميين في الشام ، ثم اتجه الى حلب في جيش لجب يبلغ ثلاثين الف رجل ، في حين يقدرهم ابن القلانسى بثلاثة عشر الفا(١١٢) وتحصن سعد الدولة ولؤلؤ داخل حلب واغلقا الابواب بانتظار نجدة الروم (١١٣) وكان لؤلؤ حين علم بنوايا الفاطميين قد كاتب باسيل ملك الروم « ويذكره بما كان بينه وبين سعد الدولة من المعاهدة والمعاقدة وبذل له عن ابى الفضائل ولده الجرى (١١٤) على تلك العادة» (١١٥) ، وكان رسول لؤلؤ ملكوتا السرياني وقد وصل الى بسيل الثاني Basil وهو فى حالة حرب مع البلغار فسلمه الرسالة .وقد استجاب باسيل الى طلب الحمدانيين فكتب الى صاحب انطاكية برترس البرجي يأمره بصد المغاربة الفاطميين عن حلب .

. وصل البرجي في خمسه الاف محارب الى «جسر الحديد» (بين انطاكية وحلب) ، ففك منجوتكين الحصار عن حلب وسار للقاء الروم

---

(١٠٩) يسميه ابن العديم (١٨٥/١) بنجوتكين .
(١١٠) ابن ظافر ، ورقة ٢١ آ .
(١١١) مسكوية ٢١٧/٣ .
(١١٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٤١ ويضيف ابن القلانسي ان اهل دمشق قاسوا الامرين من هؤلاء الجند الذين استباحوا الاموال والانفس .
(١١٣) ابن الاثير . الكامل ٣٧/٩ .
(١١٤) يضيف ابن القلانسى (ص ٤١) وبذل له ... السمع والطاعة ... كذلك انظر ابو شجاع ص ٢١٧ — ٢١٨ .
(١١٥) مسكويه ٢١٧/٣ — ١٨ . ابو شجاع ٢١٧ — ٢١٨ ، ابن القلانسى ٤١ .

وعسكر على مقربة منهم تحت حصن اعزاز وعلى ضفة النهر المقلوب «وكان جيش الفاطميين متفوقا في العدد ويضم نخبة من جند الشام وفرسان بني كلاب (١١٦) . وقد دارت مناوشات عبر النهر ، ثم اقتحم الجيش الفاطمي النهر وهزموا جيش الروم وقتلوا منهم ــ وهم مدبرون ــ اعدادا ضخمة بحيث ارسلوا الى مصر عشرة الاف رأس من رؤوس القتلى البيزنطيين . وطارد جيش منجوتكين الفارين حتى ضواحي انطاكية ، حيث نهب رساتيقها واحرق ضياعها واتجه الى حلب(١١٧) .

قام لؤلؤ باجراء سلبي في محاولة منه لعرقله تقدم الجيش الفاطمي فقد احرق ماحول حلب من مزارع في وقت نضج الغلة ، لكي يحول دون استفادة الجيش الغازي منها ، وقام بأجراء اخر حيث راسل سرا ابا الحسن المغربي واحمد محمد القشوري كاتب منجوتكين واغراهما بالمال على ان يقنعا منجوتكين بالانصراف عن حلب بسبب قلة الاقوات وندرة الغلات . وصادف هذا الرأي قبولا من منجوتكين الذي يبدو انه ارهق من معاركه مع الروم فعاد الى دمشق حيث اشتاق الى «خفض العيش وضجر من الاسفار والحروب» (١١٨) . وقد اغضب تصرف منجوتكين الخليفة الفاطمي وعرف ان ابا الحسن المغربي كان هو المسؤول فاستغنى عن خدماته وعين بدله صالح بن علي الروذباري (١١٩) .

واقسم العزيز ان يمد جيشه في الشام بالميرة الكافية ، فارسل بحرا من مصر بكميات هائلة من الغلات الى طرابلس ، حملت برا الى حصن

---

(١١٦) ابن القلانسي ص ٤١ ؛ ابو شجاع ص ٢١٩ .
(١١٧) نفس المصدر والمكان .
(١١٨) مسكويه ٢١٩/٣ .
(١١٩) ابن القلانسي ص ٤٤ . مسكويه ٢١٩/٣ ابو شجاع ص٢١٩ .

افامية • وعاد منجوتكين الى حلب وحاصرها وكان صالح الروذبارى هو المدبر المسؤول عن تزويد الجند بالجرايات والميـرة من افامية (على بعـد خمسة وعشرين فرسخا من حلب) • وظل الجيش الفاطمى محاصرا لحلب ثلاثة عشر شهرا فبنيت له خارج المدينة الاسواق والخانات والحمامات فى حين تحصن ابو الفضائل سعيد الدولة ولؤلؤ داخل المدينة ، حيث ندرت الاقوات واستبد الجوع باهلها • وكان لؤلؤ يبتاع القفيز مـن الحنطـة بثلاثة دنانير ويبيعها على الناس بدينار واحد (١٢١) ، وكان يوعز بفتـح ابواب المدينة فيخرج من اضربه الجوع والمرض • وحين ساءت الاحوال بلؤلؤ فارسل ملكوتا السرياني الى ملك الروم طالبا النجـدة • ولقـي ملكوتا باسيل الثاني وهو فى بلاد البلغار وقال له : «متى اخذت حلب ، فتحت لك انطاكية بعدها ، واتعبك التلاقي • واذا سرت بنفسك حفظـت البلدين جميعا وسائر الاعمال (١٢٢) » •

واستجاب باسيل لهذا النداء فترك بلغاريا متجها الى حلب فى جيش من عشرة الاف مكون من خليط من الاجناس من روم وروس وبلغار وخزر • وكانت المسافة بين موضعه الذى سار منه وحلب تبلغ ثلثمائة فرسخ (اكثر من ١٥٠٠ كيلو مترا) فقطعها في سـتة وعشـرين يومـا بحسب روايـة مسـكويه (١٢٣) او في سـتة عشـر يـوما بحسـب روايـة ابن القلانسي (١٢٤) • وكان الفصل ربيعا وحين اقترب جيش الروم ارسل لؤلؤ تحذيرا الى منجوتكين يقول فيه : « ان عصمة الاسلام الجامعة لنـا

---

(١٢٠) القفيز : اربعة وستون رطلا اى نصف كارة (ضياء الدين الريس الخراجي في الدولة الاسلامية . ص ٣١٧ وما بعدها)
(١٢١) مسكويه /٣/ ٢٢٠ ابو شجاع ص ٢٢٠ ابن القلانسي ص ٤٣ .
(١٢٢) مسكويه ٣/ ٢٢٠ . يضيف ابن القلانسي ص ٤٣ : واعلمه انه لم يبق فيه رمق ان لم يبادر بمعونته ونصرته ..» يشير الى حال لؤلؤ .
(١٢٣) تجارب الامم ٣/ ٢٢٠ .
(١٢٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ .

تدعوني الى انذاركم والنصح لكم • وقد اظلكم بسيل في جيوش الروم فخذوا الحذر لانفسكم» (١٢٥) وهذا اجراء بارع من لؤلؤ فقد استطاع ان يضرب قوة بقوة ، ويبعد خطر منجوتكين بتهديده بالجيش البيزنطي ، ولعله كان لايريد ان يظهر امام الرأى العام الاسلامى بمظهر من يستعين بالاجنبى على ابناء دينه فيتهم بالخيانة بل بالكفر والارتداد • خاصة وقد كان العام الاسلامى ينظر الى الروم على انهم الد اعداء المسلمين باعتبارهم في «دار الحرب» (١٢٦) وهكذا رحل منجوتكين — بعد هذا التحذير — بعد ان احرق كل مابناه جيشه خارج ابواب حلب من اسواق ومنشاءات اخرى •

ووصل باسيل فلم يجد عدوه ، وخرج سعيد الدولة ولؤلؤ فلقياه عند ابواب حلب حيث اقام ثلاثة ايام رحل بعدها الى الشام ، واحتل باسيل حصنا عند شيزر وفتح حمص ونهب وسبى ثم حاصر طرابلس اربعين يوما فلما عجز من اقتحامها عاد الى بلاده(١٢٧) •

وصلت كل هذه الاخبار المثيرة الى العزيز الفاطمي فثارت ثائرته واعلن النفير العام • وخرج بنفسه لغزو بلاد الروم لكنه توفى قبل اتمام مشروعه •

واذا اردنا ان نحدد تاريخ الاحداث السالفة بصورة دقيقة نجد صعوبة بالغة لان المؤرخين القدامى الذين يكونون مصادرنا الرئيسة سردوا هذه الاحداث والوقائع دون الاهتمام بتوقيتها • فمسكويه مثلا يتحدث

---

(١٢٥) مسكويه ٢٢١/٣ . ابن القلانسى ص ٤٣ .
(١٢٦) اي البلاد غير الاسلامية وهي تعتبر في حالة حرب نظريا «على الاقل» حتى تدين بالاسلام .
(١٢٧) مسكويه ٢٢١/٣ . ابن القلانسى ص ٤٣ .

تحت اخبار سنة ٣٨١ عن كل الوقائع التي اسلفناها ابتداء من مسير بكجور الى حلب لقتال سعد الدولة وانتهاء بوصول جيش باسيل الثاني وانسحاب منجوتكين الى دمشق (١٢٨) • وهذا القول نفسه يسري على ابي شجاع وابن القلانسي اللذين سردا كل هذه الاحداث وكأنها وقعت في سنة ٣٨١ (١٢٩) لكن ابن القلانسي يوحي لنا بان حصار منجوتكين لحلب استغرق وقتا طويلا وان لم يورد تواريخ دقيقة • ومع ذلك فانه يمكننا القول استنادا الى مقارنة المصادر بان حصار منجوتكين الاول لحلب بدأ في اوائل سنة ٣٨٢ • لان ابن القلانسي يقول ان منجوتكين اقام بدمشق بقية سنة ٣٨١ (١٣٠) واذا رجعنا الى ابن ظافر نجده يقول ان حصار حلب هذا استمر شهرين • (١٣١) وهو قول مردود ، لان ذهاب رسول لؤلؤ الى بلاد البلغار وعودته ووصول جيش بيزنطي وما جرى من وقائع حربية ، كل ذلك لابد انه يستغرق وقتا اطول بكثير مما قدره ابن ظافر •

غير ان ما اورده مؤرخون ثقات اخرون يلقي الضوء على هذه القضية ويتيح لنا ان نصل بصددها الى رأي واضح • فان ابا المحاسن (١٣٢) يذكر ان جيش الروم انسحب بعد هزيمته الى حدود بلاده في سنة ٣٨٤/٩٩٤ م وهذا يدلل على ان الحصار استمر اكثر من سنتين •

اما الحصار الثاني الذي فرضه منجوتكين على حلب بعد هزيمة الروم وكان بمعيته صالح بن علي الروذباري ، فانه استمر ثلاثة عشر

---

(١٢٨) تجارب الامم ٢/٢٠٩ — ٢٢١
(١٢٩) ذيل تجارب الامم ص ٢١٧ وما بعدها ، ذيل تاريخ دمشق ص ٤٠ وما بعدها •
(١٣٠) ذيل تاريخ دمشق ص ٤١ •
(١٣١) الدول المنقطعة ورقة ٢٢ب — ٢٤ ب (تفاصيل الحصار)
(١٣٢) النجوم الزاهرة ٢/٥٠٢ ، كذلك ابن العديم ١/١٨٥

شهرا كما يذكر ثقات المؤرخين (١٣٣) ومعنى ذلك ان عودة منجوتكين الى دمشق بعد ذلك الحصار عن حلب كانت في سنة ٣٨٥/٩٩٥ م • ويثبت هذه الحقيقة ان الاخبار وصلت الى العزيز الفاطمي فعظم عليه الامر واعلن النفير العام وسار لقتال الروم لكنه توفي في بلبيس في ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦/١٤ تشرين الاول ٩٩٦ م • (١٣٤)

نهاية الحمدانيين في الشام

بدت مظاهر الضعف والوهن في كيان الدولة الحمدانية في الشام بصورة واضحة في عهد سعيد الدولة كما رأينا ، وان كانت قد بدأت على عهد ابيه سعد الدولة • فقد كان لؤلؤ الجراحي (او الكبير) هو الحاكم الفعلي خلال حكم ابي الفضائل سعيد الدولة الصغير السن والقليل الخبرة •

ان معلوماتنا عن عهد سعيد الدولة تغدو شحيحة جدا بعد سنة ٣٨٦ اي بعد وفاة العزيز وتوقف الحملة التي كان قد قرر القيام بها ضد الروم في الشام • ويزودنا المؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي بمعلومات طريفة ونادرة عن نشاط قام به منجوتكين (وهو يسميه بنجوتكين) في اواخر ايام العزيز حين حاول غزو انطاكية وبلغ «الى بابها ثم سار الى حلب ونازلها اياما ورحل عنها الى انطرطوس (١٣٥) • ويبدو ان العزيز ابدى همه عالية في الجهاد ضد الروم ، فقد جهز في ايامه الاخيرة هذه اسطولا من اربعة وعشرين مركبا شحنه بالرجال وارسله بقيادة رشيق فوصل انطرطوس ومنجوتكين يحاصرها • لكن العواصف حطمت الاسطول عند البحر فأسر

(١٣٣) ص ٤٢ ، كذلك انظر مسكويه ٣/٢٢٠.

(١٣٤) ابن القلانسي ص ٤٣ .

(١٣٥) تاريخ الانطاكي ص ١٧٩ .

رجاله ، وهرب جيش منجوتكين ناجيا بنفسه • (١٣٦) هذه المحاولات توجتها محاولة العزيز لغزو الروم بنفسه ، تلك المحاولة التي انتهت في بلبيس كما اسلفنا •

اوصى العزيز قبيل موته الى ارجوان الخادم ـ وهو متولي داره ـ بولده الحاكم وكان في الحادية عشرة (١٣٧) فاخذ له ارجوان البيعة • لكن السيطرة الفعلية الت الى الحسن بن عمار شيخ كتامة ، (١٣٨) الذي عمد الى ضرب نفوذ المشارقة وتسليم الامور الى المغاربة مما ادى الى احلال هؤلاء في المراكز الادارية العليا في مصر والشام • وقد احس منجوتكين من جراء ذلك بخطر داهم فراسل ملك الروم يطلب منه النجدة فلم يستجيب لطلبه • وجاءته الفرصة حين طلب اليه ارجوان ان يأتي الى مصر لنصرة المشارقة (١٣٩) فجمع منجوتكين جيشا ضخما من العرب وغيرهم واتجه الى مصر ، لكن الحسن بن عمار جرد له حملة اوقعت به الهزيمة في عسقلان في جمادي الاول سنة ٣٨٧/٩٩٧ م • فلما عاد الى دمشق ثار عليه اهلها وطردوه ونهبوا داره ففر على وجهه وطلب الامان من حكام مصر فأمنوه • لكن حزب المشارقة بزعامة ارجوان لم يلبث ان هزم المغاربة واسترد سطوته اثر اصطدامات دموية قتل فيهاالحسن بن عمار • وانعكست هذه الاوضاع في دمشق فثار اهلها على سليمان بن فلاح قائد المغاربة الكتاميين فهرب الى مصر (١٤٠) •

---

(١٣٦) نفس المصدر والمكان •

(١٣٧) كان في سن الخامسة عشرة على رواية مسكويه ٣/٢٢٢ •

(١٣٨) هو ابو محمد الحسن بن عمار شيخ كتامة وسيدها ويلقب بامين الدولة وهو اول من لقب في دولة المغاربة (مسكويه ٣/٢٢٢) •

(١٣٩) والحق ان تعبير المشارقة هنا يعني الاتراك بالدرجة الاولى •

(١٤٠) انظر يحيى بن سعيد ص ١٨٠ ـ ١٨١

وفي سنة ٣٨٨/٩٩٨ نسمع من جديد عن ابي الفضائل سعيد الدولة ولؤلؤ .وتفصيل الامر ان حريقا كبيرا نشب في قلعة افامية اتى على ما فيها من المؤن والمعدات بعد ان استولى عليها المغاربة كما يبدو . فسار سعيد الدولة ولؤلؤ في جيش من الحلبيين وحاصر افامية ليخلصها من المغاربة لكن داميانوس الدلاسنوس دوقس انطاكية ما لبث ان ظهر امام افامية بعد ان تأكد من خلوها من القوت والسلاح «.. فدفع الحلبيون جميع ما معهم من الاقوات والسلاح الى اهل افامية قوة لهم واشفاقا عليهم من ملك الروم وعادوا الى حلب» (١٤١) . وفي المعركة التي دارت في افامية انتصر الفاطميون وقتل القائد البيزنطي واسر ابناؤه وزهاء ستة الاف من جنده (١٤٢) .

وهنا نتساءل عن سبب خروج سعيد الدولة الى افامية ؟ يبدو ان الروم هم الذين دبروا الحريق في القلعة لايقاع الهزيمة بالفاطميين الذين كانوا يسيطرون عليها ، وأنهم هم الذين اوعزوا الى الحمدانيين باخراج الفاطميين منها . ولابد ان تغيرا جوهريا طرأ على موقف الحمدانيين دفعهم الى امداد اهل افامية بالاقوات والسلاح والانسحاب الى حلب اشفاقا عليهم من ملك الروم (١٤٣) فهل نستطيع ان نستنتج ان الحمدانيين عقدوا صلحا مع الفاطميين الموقوف في وجه الروم ؟ انني اميل الى الاخذ بهذا الرأي ، خاصة وان ابن ظافر ذكر بان صلحا كان قد عقد بين سعيدالدولة والفاطميين في هذه الفترة (١٤٤) .

---

(١٤١) نفس المصدر ص ١٨٢ .
(١٤٢) نفس المصدر والمكان .
(١٤٣) نفس المصدر والمكان
(١٤٤) الدولة المنقطعة ٢٢ب ــ ٢٤ ب

والحق ان الروم كانوا قد سادوا في الميدان في سورية الشمالية في هذه الفترة (سنة ٣٨٩) ففتحوا شيزر واخذوا حصن ابي قيس وملكوا حصن مصيات واحرقوا حصن رفنية وسبوا اهله • وبلغ جيش البيزنطيين حمص • ثم سار الى طرابلس حين بلغه اعلان الفاطميين الجهاد متجها الى انطاكية عن طريق اللاذقية في المحرم سنة ٣٩٠/٩٩٩ م • وبعد هذا عقدت هدنة بين الروم والمسلمين لمدة عشر سنوات (١٤٥)

توفي ابو الفضائل سعيد الدولة ليلة السبت منتصف صفر سنة ٣٩٢/١٠٠١ م • واختلفت الاقوال في سبب وفاته فقيل انه مات مسموما على يدي احدى جواريه ، وقيل ان لؤلؤا دس السم له ولزوجته (وهي ابنة لؤلؤ) فماتا معا (١٤٦) • ومهما يكن من صحة هاتين الروايتين ، فان سعيد الدولة لم يعد شخصا ذا مركز مرموق في توجيه الاحداث ، وقد بلغت دولة الحمدانيين في عهده حدا كبيرا من الضعف ، حتى ترنحت تحت وطأة الفاطميين من جهة وضغط الروم من جهة اخرى ، واستبداد الغلمان من جهة ثالثة •

خلف سعيد الدولة ولدين هما ابو الحسن علي وابو المعالي شريف فنصبهما لؤلؤ وقبض هو على زمام الامور دون ان يكون لهما ادنى سلطة ، (١٤٧) وهو بهذا يذكرنا بكافور الاخشيدي الذي استأثر بالحكم في عهد ابي القاسم انوجور وابي الحسن ابني محمد بن طغج • وهذه الظاهرة ــ استبداد المماليك بالسلطة ــ تحتاج الى تعليل خاصة وقد كانت متفشية في هذا القرن في كل صقع من اصقاع الدولة الاسلامية • وهي في رأيي ترجع

---

(١٤٥) يحيى بن سعيد ص ١٨٤

(١٤٦) ابن العديم • زبدة الحلب ١/١٩٢ •

(١٤٧) المصدر السابق ج١ ص ١٩٥

الى الاسباب التالية :

١ ـ امتاز المماليك على وجه العموم بشجاعتهم العسكرية التي اكتسبوها بالممارسة وكلهم عصاميون ارتفعوا من مجرد رقيق حتى وصلوا الى اعلى المناصب بفضل مثابرتهم •

٢ ـ كان اغلب الامراء المسلمين في هذا العصر ـ بما فيهم الحمدانيون في ايامهم الاخيرة ـ صغارا في السن مجردين عن التجربة والخبرة في الحكم فضلا عن الدراية بالحرب •

٣ ـ سيطر المماليك على الجند ـ بحكم عملهم في الجيش ـ واستطاعوا جذبهم الى صفهم وتوجيههم انى شاءوا •

٤ ـ ان الحياة التي عاشها الامراء ـ وهي حياة لهو وتهتك ـ افقدتهم العزيمة القوية واحترام الشعب وصرفتهم عن النظر في امور الحكم •

ثم لم يلبث لؤلؤ ان اتخذ خطوة جريئة فاعلن نفسه حاكما فعليا وارسل ابا الحسن وابا المعالي مع حرم سعد الدولة الى مصر سنة ٣٩٤/١٠٠٣م واستبد هو وابنه ابو نصر منصور بالامر (١٤٨) • فاما ابو المعالي فقد سيره الخليفة الحاكم بجيش لفتح حلب سنة ٤٠٢/١٠١١م • لكنه اصطدم بالاعراب في معرة النعمان فكادوا يفتكون به لولا ان مضيء الدولة نصرالله بن نزال انقذه منهم واعاده الى مصر حيث توفي (١٤٩) • اما ابو الحسن فلم تكن له اهمية تذكر حتى اغفل المؤرخون ذكره • ولم يلبث لؤلؤ ان توفي في سنة ٣٩٩/١٠٠٨م ودفن بحلب في مسجد كان يعرف باسمه ، فخلفه ابنه ابو نصر ، وكان بخلاف ابيه يتميز بالقسوة والظلم فكرهه اهل حلب

---

(١٤٨) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٩٥

(١٤٩) ابن العديم . زبدة الحلب ١/٢٠٠

وابغضوه في حين احبوا أباه لشجاعته ورجاحة عقله وعدله (١٥٠) •

اسلفنا القول ان سعد الدولة ترك ولدا صغيرا يسمى ابا الهيجاء وقد عاش هذا تحت حماية لؤلؤ فضيق عليه واضطهده مما دفعه الى الهرب من حلب بمعونة تاجر نصراني يدعى ملكونا ولجأ الى ملك الروم الذي رحب به واضفى عليه لقبا امبراطوريا (١٥١) • وبذلك تخلص لؤلؤ وابنه من بعده من ذرية الحمدانيين • غير ان اهل حلب لم يطيقوا ظلم ابي نصر وبخاصة قبيلة بني كلاب ـ صاحبة النفوذ في هذه الفترة ـ فراسلوا ابا الهيجاء وصهره ممهد الدولة صاحب ديار بكر طالبين انقاذهم من حاكمهم الغاشم • واستجاب ابو الهيجاء لهذا الطلب فسار الى صهره بميافارقين فامده بالجند وشجعه على فتح حلب فقصدها سنة ٤٠٠/١٠٠٩م • لكن هذه المحاولة باءت بالاخفاق لعاملين اولهما ان الفاطميين انجدوا منصورا وثانيهما لتخلي العرب عنه بناء على الوعود التي بذلها لهم هذا فهزم ابو الهيجاء الى القسطنطينية وعاش فيها حتى وفاته (١٥٢) •

اما ابو المعالي شريف بن سعيد الدولة فقد حاول ان يفتح حلب سنة ٤٠٢/١٠١١ م على رأس جيش فاطمي الا ان الاعراب في سورية وقفوا ضده وأرادوا تسليمه الى منصور فخلصه مضيء الدولة نصرالله بن نزال واعاده الى مصر حيث توفى (١٥٣) • ولا نعلم شيئا عن اخيه علي ، ويبدو انه توفي بمصر دون ان يكون له شأن تاريخي •

وقد اصبحت قبيلة بني كلاب اخطر قوة في حلب ونواحيها في هذه

---

(١٥٠) نفس المصدر ح١ ص ١٩٥
(١٥١) نفس المصدر ح١ ص ١٩٩
(١٥٢) نفس المصدر . زبدة الحلب ح١ ص ١٩٩
(١٥٣) نفس المصدر ح١ ص ٢٠٠

الفترة ، وقد مر بنا الدور الذي طالما قامت به في تاريخ الحمدانيين • وفي سنة ٤٠٢ اقتحم بنو كلاب بزعامة بن مرداس حلب وافسدوا فيها انتقاما من منصور بن لؤلؤ الذي لم يف بوعوده لهم (١٥٤) • غير ان منصورا احتال على زعماء هذه القبيلة فقبض عليهم فى وليمة دعاهم اليها وقتل عددا منهم وزج بالاخرين في السجن وفيهم صالح (١٥٥) • لكن هذا فر من سجنه سنة ١٠١٤/٤٠٥ م وعاد بجيش من العرب فدخل حلب وقبض على منصور ثم تصالحا فخرج ابن لؤلؤ الى انطاكية لاجئا الى الروم وظل هناك حتى توفي سنة ١٠٣٠/٤٢١م (١٥٦) •

وهكذا انتهى حكم الحمدانيين فى حلب واستولى الفاطميون على هذه المدينة فحكمها صالح بن مرداس نيابة عنهم ابتداء من عام ١٠٢٣/٤١٤ وظل المرادسيون يتوالون على حكمها •

وفيما يلي نجمل العوامل التي ادت الى سقوط الحمدانيين في حلب :

١ ــ استبداد الغلمان المماليك •

٢ ــ صغر سن الامراء فى العهد الاخير وقلة خبرتهم كسعيد الدولة وولديه ابى الحسن وابى المعالى مما سهل للؤلؤ وولده من بعده السيطرة عليهم •

٣ ــ ظهور قوة الفاطميين وتوسعهم في سورية •

٤ ــ قوة قبيلة بنى كلاب ونفوذها فى حلب وماحولها حتى استطاعت ان تستولى على المدينة •

---

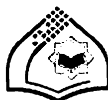
(١٥٤) ابن الاثير . الكامل ج٩ ص ٩٤

(١٥٥) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ٢٠١

(١٥٦) ابن الاثير . الكامل ج٩ ص ٩٤ــ٩٧

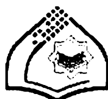
٥ ـ الدور الذى قام به الروم فى اضعاف الدولة الحمدانية سواء عن طريق الحرب او الجاسوسية او احداث الاضطرابات بفضل عملائهم امثال قرغويه وبكجور .

٦ ـ ان الحمدانيين لم يعملوا على كسب الشعب الى صفهم وخير مثل لذلك ان سعد الدولة لم يجد ترحيبا من جميع المدن التى حاول اللجؤء اليها حين طرده قرغويه .



الباب الثانى

العلاقات مع الروم



الفصل الخامس

الحدود العربية البيزنطية

١ ـ جند العواصم والثغور ٢ ـ التنظيمات البيزنطية في آسيا الصغرى : الامبراطورية البيزنطية ـ التنظيم الاداري ـ الجيش البيزنطي ٣ ـ الجيش الحمداني ٤ ـ طبيعة الحرب واهدافها ٥ ـ الاحتكاك الثقافي والحضاري .

١ ـ جند العواصم والثغور :

اكتسب سيف الدولة شهرته الذائعة من حروبه مع الروم تلك الحروب التي برهن فيها على شجاعة وشهامة نادرتين جعلتاه يستحق لقب سيف الدولة . فقد اعترف البيزنطيون انفسهم بقوته وحسبوا له الف حساب واعتبروه اصلب عدو ظهر على حدودهم في العصور الوسطى . لذلك لا يكاد كتاب اوروبي في التاريخ يخلو من ذكره والاشادة بشخصيته الفذة .

ان معلوماتنا عن حروب الحمدانيين مع الروم غزيرة وافرة . فقد افاض المؤرخون شرقيون وغربيون في ذكر تفاصيلها ، لذلك سنجد امامنا وجهتي نظر مختلفتين ، وجهة النظر الاسلامية التي عبر عنها المؤرخون والكتاب المسلمون ، ووجهة النظر الغربيةالتي عبرعنها المؤرخون الاوروبيون، ولن نعدم المغالاة والتعصب لدى الفريقين . ومما هو جدير بالذكر ان هذه الحروب اصطبغت بصبغة دينية قوية كأية حركة في العصور الوسطى واعتبرها جمهور المسلمين جهادا مقدسا في «دار الحرب» واولوها كل

الاهتمام واعتبروا التطوع فيها «فرض كفاية» يقوم به المسلم القادر على الجهاد • كما اهتم بها المسيحيون وعدوها نوعا من الحروب الصليبية بل تمهيدا للحروب الصليبية (١) •

لما ظهر الاسلام في القرن السابع الميلادي كانت الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية قد فرغتا من حروبهما المنهكة الطويلة التي انتهت بابرام صلح سنة ٦٢٨ م ، بعد ان تركتهما في حالة ضعف وتفكك ، ساعدت المسلمين على ان يطوحوا بدولة فارس ويستولوا على نصف بلاد الدولة الرومانية الشرقية اى فلسطين وسورية ومصر وشمالى افريقية حتى المحيط الأطلسي ، كما سادوا على جبال طوروس وتوغلوا فى آسية الصغرى حتى البسفور ، وهددوا القسطنطينية عاصمة الامبراطورية نفسها مرات • وهكذا بدأت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية المسيحية والدولة الاسلامية بداية عدائية واخذت تنمو وتتسع على مر الايام • ولما كانت حروب المسلمين مع الروم قد اتخذت لها ميدانا للنشاط يتمثل فى الحدود القائمة بين الدولتين فعلينا ان نلقى نظرة على هذا الميدان •

كانت المناطق الاسلامية المتاخمة لأرض الروم تسمى العواصم اى المدن التي تحمي الثغور وتعصمها من اغارات الروم وتمدها بالمتطوعة فى اوقات النفير • وتشمل العواصم حدود سورية وآسيه الصغرى التى اصبحت تابعة للدولة الاسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب• وكانت الدولتان المتعاديتان تعمدان في بداية الامر الى ترك فضاء من الارض بينهما ـ هي الضواحي وهي اشبه بمنطقة حرام ـ اي مجردة من السلاح ـ بحسب المصطلحات العسكرية الحديثة • ولما ثبت الامويون اقدامهم في هذه

(١) يقول ابن العديم (بغية الطلب ج٢ ورقة ٢٨٠) : ان نقفور فوكاس خاطب الروم من على منبر طرطوس : « لا بل انا على منبر المقدس ، وهذه البلدة التى كانت تمنعكم من بيت المقدس» .

الجهات اعادوا بناء المدن المدمرة واتخذوا هناك قلاعا وحصونا ومدنــــا عامرة . وبذلــك امتد خط القلاع الاسلامية من طرسوس حتى ملطيــة على الفرات الاعلى . وكانت اهم هذه العواصم طرسوس Tarsus واذنــة Adana والمصيصة Mopsuestia ومرعش Germanicea وملطيــة Miletene . وتقع كلها على تقاطع او في مداخل الممرات الجبلية (٢). واعتبرت هذه المنطقة حتى العصر العباسى الاول جـزءا من جند قنسرين وهو الجند الشمالى من الاجناد الخمسة التي قسم المسلمون سورية اليها لتسهيل ادارتها بعد الفتح ، لكن الرشيد جعــل العواصم ــ على اثر التوسع الذي احرزه المسلمون هناك ــ ولاية مستقلة ســميت « جند العواصم» شملت منطقة انطاكية (عاصمة الجند) Antioch حتى حلب وبالس Barbalissus ومنبــج Hierapolis فى الجنوب الشرقي وسميساط Samosata وجميع البلاد الشــمالية حتى الحدود البيزنطيــة (٣) .

وقد ميز المسلمون ــ حتى فى العصور الاولى ــ بين الحــدود الداخلية «الجنوبية» وهى العواصم بالمعنى الضيق ، وبين الحدود الخارجية (الشمالية)وهى الثغور ، التى كانت سلسلة حصون تحمى الحــدود . وكانت حول منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشــر الميلادى) تمتــد من اولاس على البحر الابيض مارة بطرسوس واذنة والمصيصــة وزبطــــرة Sozopetra ومرعش وملطية وحصن منصور حتى سميساط Samosata على الفرات ثم تحاذى ضفة النهر الغربية فى اتجاه جنوبى نحو بالـــس Barbalissus (٤) ، فالحدود اذن تسير محاذية لسلسلة جبال طوروس

(٢) Encyclopaedia of Islam, Vol. i. P. 515

(٣) نفس المصدر والمكــان .

(٤) الاسماء الافرنجية هي الاسماء اليونانية لهذه المدن .

وانتى طوروس التى فصلت بين المسلمين والروم • غير ان هذه الحدود لم تكن خطا مستقيما واضحا محددا بل كانت تسير بصورة عامة في خط متعرج من البحر الابيض المتوسط جنوبا حتى نقطة معينة مي جبال طوروس الارمينية ، وكانت بلاد ارمينية بدورها منطقة حدود بين الدولتين تداولتها الايدي على مر العصور الوسيطة (٥) •

وتقسم الثغور وهي المدن التي تقع ماوراء العواصم الى حدود جبال طوروس الى قسمين ، الثغور الجزرية وتشمل منبج وسميساط والحدث Adata وحصن منصور وملطية وزبطرة ، والثغور الشامية وهي التي تلي الشام وهي الاسكندرونة وبياس والمصيصة وعين زربة Anazarbbus واذنة وطرسوس واولاس • وكانت ملطية اكبر الثغور ـ او الحصون الفاصلة بين العرب والروم ـ واكثرها رجالا وسلاحا ، وتقع دون جبل اللكام وتعتبر من مدن الروم (٦) • اما الحدث ومرعش فثغران صغيران (٧) • وتقع زبطرة قرب بلاد الروم ، وكانت الهارونية ـ غربي اللكام ـ حصنا صغيرا بناه الرشيد ، اما الاسكندرونة وبياس والتينات فتشرف على البحر الابيض المتوسط (بحر الروم) فى حين يبتعد حصن الكنيسة عنه • وتعد طرسوس اهم مدن الحدود ، وهي ذات شهرة في تاريخ الحروب العربية البيزنطية لانها تحكمت في المدخل الجنوبي المشهور عبر طوروس •

---

(٥) فتح ابو عبيدة جميع ارض قنسرين وانطاكية ، وارسل عياضا الى منبج فصالح اهلها مثل صلح انطاكية ، وبعث عياضا الى دلوك ورعبان

قصالح اهلها مثل صلح انطاكية ، وبعث عياضا الى دلوك ورعبان

كما ارسل جيشا الى قاصرين فصالحهم المسلمون على الجزية والجلاء (البلاذرى ، فتوح البلدان ١٥٥ ـ ١٥٧) •

(٦) الاصطخرى • مسالك الممالك ص ٦٢ • انظر البلاذرى (فتوح البلدان ص ١٧٠ ـ ١٧٨ و ١٩٢ ـ ٢٠٠) عن الثغور الشامية والجزرية •

(٧) نفس المصدر السابق ص ٦٣

وهو «ابواب فاليقلا» ومن ثم غدت قاعدة للحملات الأسلامية على بلاد الروم (٨) وكانت كبيرة يحيط بها سوران وبينهما وبين حدود الروم قامت جبال طوروس الحاجزة بين الدولتين الاسلامية والبيزنطيه • ويقال ان هذه المدينة حوت مائة الف فارس (٩) اما اولاس فكانت آخر حصن للمسلمين على البحر الابيض (١٠) •

واذا رجعنا الى قدامة (١١) نجده يقرر بان الثغور الشامية هي طرسوس واذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس Nicpoolis (١٢) • ويجاور هذه الثغور برا من بلاد الروم لواء

كبادوكيا الذي يسميه قدامة «القبادق» وهو اقرب الى لواء «الناطليق» اي اناضوليا ، اما من جهة البحر فيجاور الثغور الشامية لواء سيلوقية البيزنطي •

ويقول قدامة ان الثغور الجزرية تقع الى يمين الثغور الشامية من ناحية الشمال وهي مرعش والحدث وزبطرة وحصن بطبارجي (الذي بناه المعتصم حين فتح عمورية) وحصون الحسينية وبني المؤمن وابن رجوان وثغرة كيسوم (١٣) وحصن منصور وثغر سميساط وثغر ملطية (وهو اقرب الثغور الى بلاد الروم) •

ويواجه الثغور الاسلامية ويقابلها من بلاد الروم (خرشنة Charsiane البيزنطي) والخالدية (لواء Chaldia عند البيزنطيين) •

---

(٨) HITTI. HISTORY OF SYRIA P. 442

(٩) الاصطخري . مسالك الممالك ص ٦٤

(١٠) نفس المصدر ص ٦٤

(١١) ص ٢٥٣ وما بعدها

(١٢) تدعى الان «اصلاحية» على الطريق بين انطاكية ومرعش

انظر DUSSAUD, P. 479

(١٣) كيسون الحالية جنوب بسنة DUSSAUD . P., 478

ويجعل قدامة (١٤) لهذه الثغور عواصم هي دلوك (١٥) ورعبان (١٦) ومنبج . ويلي هذه الثغور في بلاد الاسلام عن يمينها من جهة الشمال الثغور «البكرية» وهي شمشاط وحاني (١٧) وملكين (١٨) وحصون جمح وحوران والكلس ، ثم ثغر قاليقلا الذي يقع في اقصى الشمال بعيدا ومنفردا عن هذه الثغور (١٩) اما ما يقابل هذه الثغور من اعمال الروم فعمل «الارميناق» وهو لواء Armeniac وجزء من لواء «كالديا» او الخالدية على مقربة من عمل «افلاغونية» (لواء Paph Lagonia المتصل ببلاد الخزر).

وكانت جميع هذه الثغور الشامية والجزرية مناطق حربيه محصنة وقد سميت بالثغور مجازا ، لانها موضع المخاطة من الاعداء وكانت كثيرة القلاع والحصون ايضا كالعواصم بل كانت اولى بالوقاية والعناية والتحصين لانها اقرب الى حدود العدو التي يثب منها الى بلاد المسلمين .

وهنا يجدر بنا ان نشير الى ان هذه المدن ــ الثغور والعواصم ــ كانت في الاصل حصونا حربية في الغالب ، وقد تعاقبت على بنائها امم وشعوب كثيرة منذ القدم ، بل ان بعضها يرجع الى ايام الحيثيين . فلما فتح المسلمون هذه المنطقة جددوا هذه الحصون وعمروها وسماها الرشيد العواصم وجعلها جندا من اجناد الشام (٢٠) .

---

(١٤) ص ٢٥٤

(١٥) تقع دلوك على تقاطع الطرق بين مرعش والرها وسمياط ، وهي الى شمال عينتاب بقليل .انظر ياقوت ٥٨٣/٢ .

(١٦) الى الشمال من دلوك «انظر ياقوت ٧٩١/٢ وهي الان التنتاش كاله في تركية

(١٧) انظر ياقوت ١٨٨/٢ و ٨٣٢ و ٦٣٧

(١٨) لعله ملطين (المقدس ص ١٥٠) وهو بين آمد وشمشاطا .

(١٩) قدامة ص ٢٥٤ــ٢٥٥

(٢٠) الغزي ، نهر الذهب ٢١/٢

اذا استعرضنا حدود الدفاع التي قامت بين المسلمين والروم على طول جبال طوروس حتى الفرات وحتى منطقة كليكية Cilicia نجد اولا ملطية التي تقع على التقاء طريقين عسكريين هامين . ويتميز الطريق الموصل بين ملطية ومرعش عبر جبال طوروس بحصون زبطرة والحدث(٢١)وعين زربة والكنيسة والهارونية ، وقد كونت هذه الحصون خط دفاع قويا عن الجزيرة (٢٢) . اما سورية فقد حماها خط دفاع آخر اهم حصونه المصيصة واذنه وطرسوس ثم يتجه الساحل الذي يدور حول خليج السوس نحو المصيصة ويتجه غربا الى طرسوس مارا باذنه حيث يتصل اليها بطريق جسر قديم شيده الامبراطور جوستنيان على نهر ساروس Sarus (٢٣) .

اما ممرات طوروس التى اجتازها المسلمون والنصارى على بعضهم عبرها فاهمها ممران اولهما ابواب قاليقلا التي قام منها المسلمون بالجهاد في آسية الصغرى حين كانت طرسوس قاعدة لهم ، وهذا ممر تاريخي عريق يبلغ طوله سبعين ميلا وتقوم على قمته قلعة لولو Lulon التي دعاها المسلمون كذلك بقلعة الصفصاف (٢٤) وكان يتنازعها الفريقان باستمرار لانها كانت مفتاح قاليقلا ، واذا استولى عليها فريق منهما ، فان الاخر لا يستطيع ان يغزو الاراضي الواقعة وراءها (٢٥) — وقد استخدم الروم هذه القلعة حين كانت بايديهم كاخر محطة لارسال الاشارات النارية

---

(٢١) يقول فازيليف « العرب الروم ص ٨٩ » ان جرمانيكيا تسمية قديمة لمرعش او غير بعيدة عنها .

(٢٢) Bury . History Of The Eastern Roman Empire P., 244-45

(٢٣) المصدر نفسه ص ٢٤٥

(٢٤) Ramsay . The Historical Geography Of Asia Minor. P., 405

(٢٥) نفس المصدر ص ٣٥٤

الى القسطنطينية لينقلوا حركات الجيوش الاسلامية (٢٦) اما الممر الثاني فانه يوصل بين مرعش (جرمانيكيا) وعربسوس (٢٧) •

كانت الثغور اذن ـ بحسب التعبير الاسلامي التاريخي ـ هي المدن المحصنة التي تحمي البلاد الاسلامية الداخلية من غارات البيزنطيين •والثغر هو المدينة التي تحاذي بلاد العدو (دار الحرب) او تقع على حدوده • واذا كان الثغر بالمعنى المعروف هو الميناء البحري ، فان المسلمين عمموا هذا الاصطلاح فاطلقوه مجازا على المدن البرية ايضا التي تواجه حدود العدو ، باعتبارها اماكن يخوضها الجند لشن الجهاد (٢٨) • اما العواصم فهي المواقع التي تعصم الثغور وتمدها بالمتطوعة من الرجال في وقت الحرب •

وقد اسهب الجغرافيون العرب القدامى في وصف هذه المدن ، وها نحن نقدم خلاصة لهذا الوصف •

تعتبر انطاكية كبرى مدن العواصم ، وكانت مدينة كثيرة الاشجار محاطة بسور وجبل ، وهي ذات مزارع ومراع ، وتجري المياه في وسطها لتتخلل اسواقها ودورها وشوارعها • وقد استولى الروم عليها سنة ٣٥٩/٩٦٩م كما سنرى (٢٩) •

وتقع بالس على ضفة الفرات الغربية الى الغرب من الرقة ، وكانت ميناء لسورية غير انها انحطت بعد وفاة سيف الدولة وقد اشتهرت بزراعة القمح والشعير وبانتاج الصابون (٣٠) •

اما منبج فكانت تقع على مقربة من انطاكية وتمتاز بحصانتها وكثرة

---

(٢٦) Bury , P. . 246

(٢٧) نفس المصدر والمكان

(٢٨) الثغور البحرية هي سواحل جند حمص والطرسوس وبانياس واللاذقية وجبلة والهرياذة وسواحل جند دمشق وهي عرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدنوان «قدامة ص ٢٥٥»

(٢٩) ابن حوقل . صورة الارض ص ١٧٩

(٣٠) نفس المصدر ص ١٦٥

اسواقها ووفرة مياهها واشجارها وثمارها ، وهي من مدن الروم القديمة وكانت لهم فيها اثار وقلعة (٣١) .

وتقع سميساط ـ وهي Samosata الرومانية ـ (٣٢) قرب جسر منبج وهما مدينتان صغيرتان حصينتان (٣٣) . اما المقدسي (٣٤) فقد جعل بالس وسميساط ومنبج ضمن جند قنسرين .

واعتبرت ملطية من اعظم الثغور وكانت مدينة واسعة تقع دون جبل اللكام يسكنها الارمن تحف بها الجبال وتكسوها اشجار الجوز واللوز والفاكهة ، وقد فتحها الروم في سنة ٩٣١/٣١٩م ، فكانت على حد قول ابن حوقل (٣٥) اول فاجعة للمسلمين في الثغور .

وكانت الحدث ومرعش مدينتين صغيرتين فتحهما الروم ، واستعادهما سيف الدولة ، ثم انتزعهما الروم الى ان استرجعهما السلاجقة سنة ١١٥٠/٥٤٥م (٣٦) . ويصفهما ابن حوقل بان لهما زروعا واشجارا وفواكه «وكانتا ثغرين يرابط فيهما المسلمون ويجاهدون» (٣٧) .

وهناك ثمة حصون مهمة منها المثقب الذي شاده عمر بن العزيز (٣٨) والهارونية الذي بناه الرشيد ويقع غربي اللكام ، وكان ابن حوقل قد زاره في القرن الرابع فوجده «في غاية العمارة ، واهله في جهادهم في نهاية الجلد والشطارة ...» وكانت الاسكندرونة حصنا على البحر الابيض

---

(٣١) رحلة ابن جبير ص ٣٠١
(٣٢) Le Strange, Lands East, P.108
(٣٣) ابن حوقل ، صورة الارض ١٨١/١
(٣٤) احسن التقاسيم ص ١٥٤
(٣٥) صورة الارض ١٨١/١
(٣٦) نفس المصدر ١٨٢/١
(٣٧) نفس المصدر ص ١٦٧
(٣٨) الاصطخري ص ٧٣ ، اما البلاذري «فتوح البلدان ص ١٧٤ فيقول ان هشام بن عبدالملك حصن المثقب وبني حصون قطرغاش ومورة وبوقا .

ذات نخيل وزروع كثيرة وغلة وخصب ويقع حصن التينات على البحر وكان فيه مقطع لخشب الصنوبر الذي كان ينقل الى الشام ومصر والثغور (٣٩).

ومن مدن هذه النواحي التي يتردد ذكرها كثيرا في الحرب العربية البيزنطية ، عين زربة Anazarrbus وكانت ذا نخيل وثمار ومراع . ولا تقل المصيصة اهمية عنها وهي مدينتان تسمى احداهما المصيصة والاخرى كفربيا على نهر جيحان وبينهما قنطرة حجرية (٤٠) ، وكانت اذنة على ضفة نهر سيحان الغربية وهي تتوسط سهلا خصيبا ، وهي تقع على طريق طرسوس ويقول عنها ابن حوقل انها كانت جليلة حسنة المحل في كل اصل وفصل (٤١) .

اما طرسوس فتعتبر من اهم الثغور واكثرها ازدحاما بالسكان ، وقد بناها الرشيد في سنة ١٧٠ ، وقيل بناها المأمون واشتهرت بخصبها وكثيرة خيراتها . ويذكر ابن حوقل (٤٢) انه كان بطرطوس مائة الف فارس ، وانه كان بها من كل بلد اسلامي من اقصى الشرق حتى اقصى الغرب متطوعة غازون يرابطون بها .

وظلت طرسوس حصنا منيعا في وجه الروم ، حتى استطاع نقفور فوكاس — وهو خصم سيف الدولة ونده المباشر — ان يستولي عليها في سنة ٣٥٤/٩٦٥ م . وحين احتل نقفور هذه المدينة وقف على منبر مسجدها الجامع وتساءل : يامعشر الروم ، اين انا ؟ فقالوا على منبر طرسوس . قال لا ، بل على منبر بيت المقدس . وهذه البلدة هي التي كانت تمنعكم

---

(٣٩) صورة الارض ١٦٧

(٤٠) نفس المصدر والمكان . جاء في بغية الطلب لابن العديم (ج٢ ورقة ٢٣٦ — ٢٣٧) ان اول من بنى حصن المصيصة فى الاسلام هو عبدالملك ابن مروان .

(٤١) ص ١١٤

(٤٢) ابن حوقل ص ١١٥

من بيت المقدس (٤٣) •

ان تاريخ الثغور والعواصم يمثل المراحل المختلفة للصراع العظيم بين الدولتين الاسلامية (٤٤) والبيزنطية ، من اجل سيادة شرق وجنوب آسيا الصغرى ، وهي بقعة اريقت عليها الكثير من الدماء ، وكل شبر منها شهد صراعا وكفاحا مريرين عنيفين (٤٥) • وقد ادى هذا العنف المستمر الى اخلاء هذه الاقاليم من سكانها ، لذلك عمد خلفاء المسلمين من حين الى حين الى نقل جماعات من مختلف البلاد الاسلامية اليها ، مما جعل سكانها خليطا من مختلف الاجناس ، فنجد النصارى المستعربة والصقالبة والفرس والزط والترك والنيالقة ، وهم من الروم ، لكنهم يخالفونهم في العقائد ، لذلك كانوا يعينون المسلمين في غزواتهم ، كما نجد الارمن الذين كونوا قوة حربية هائلة طالما نصرت الروم على المسلمين (٤٦) •

وقد احتلت الثغور والعواصم مكانة خاصة عند المسلمين باعتبارها اماكن للجهاد ضد الروم ، فقصدها المتطوعة من المؤمنين واستقروا فيها ليشنوا الغارة على اعدائهم • وسميت ابتداء من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بالربط وهي المعسكرات التي تربط فيها الخيل على استعداد دائم لحرب الروم • وبعد حين اصبح الرباط نوعا من حصون العبادة حيث يرابط زهاد محاربون ثم اطلقت على اماكن المتصوفة من حيث انهم جاهدوا فيها في سبيل الايمان (٤٧) • وقد شجع الخلفاء المتطوعة

---

(٤٣) ابن العديم . بغية الطلب ج٢ ورقة ٢٨٠ . كذلك انظر بغية الطلب ج٣ ص ٢٧٢ وما بعدها عن احوال طرسوس

(٤٤) فتوح البلدان ص ١٧٠

(٤٥) Encyclopaedia Of Islam , vol , I.P., 515

(٤٦) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ٢٥٤

(٤٧) ديموبين . النظم الاسلامية ص ١٥٩

على الاقامة في الربط في الثغور حيث يحيون حياة صوفية محاربين •وقصد الغزاة مدينة طرسوس وهي قاعدة الجهاد من كل حدب وصوب ، ووردتها هبات المحسنين الذين لايستطيعون الخروج بانفسهم للجهاد ، وبفضلها عاش المتطوعة • وقد كرم اهل بغداد اهل الثغور ، حتى ان بعض المكدين لجأوا الى ايهام الناس بانهم سائرون الى الجهاد فنالوا بذلك الهبات والاموال (٤٨) • ومن الطريف ان الخراسانيين كانوا ذوي رغبة قوية في الجهاد حتى خرج منهم سنة ٣٥٥ هـ جيش في عشرين الفا ، لكن ركن الدولة ردهم حين طالبوه بالاموال للاستعانة بها في حرو بالروم (٤٩) •

٢ ـ التنظيمات البيزنطية في آسيا الصغرى

الامبراطورية البيزنطية :

تعرض العالم الروماني منذ القرن الثالث الى انحلال عام ، فقد تعرضت حدوده للهجمات من جميع الجهات من جانب القبائل المتبربرة من جهة ومن جانب الساسانيين من جهة اخرى • وبجانب هذه الاخطار الخارجية الداهمة ، ساد الامبراطورية الانهيار الاقتصادي والتفسخ الاداري الداخلي ولم تجد اصلاحات دقليديانوس Diocletian (٢٨٤ـ٣٠٥م) ، التي استهدفت تسهيل الشؤون الادارية والعسكرية كثيرا في دعم مركز روما المنهار • غير ان تقسيمه الامبراطورية الى ادارتين شرقية ومركزها في اسيا الصغرى وغربية ومركزها في ايطاليا ،جعل الاهتمام يتحول الى الاجزاء الشرقية من الامبراطورية ، خاصة وان الشرق هو الذي كان يزود روما باسباب الترف (٥٠) •

---

(٤٨) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ٢/٦٥

(٤٩) نفس المصدر ٢/٦٧

(٥٠) نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية «تعريب مؤنس» ص ١ـ٨

وتوج الامبراطور قسطنطين Constantine (توفي سنة ٣٣٧م) الاهتمام بالشرق باختياره عاصمة ثانية شرقية للامبراطورية هي القسطنطينية. في سنة ٣٣٠ م ، وهو التاريخ الذي يجعله بعض المؤرخين بداية تاريخ الامبراطورية البيزنطية • وعلى الرغم من ان الامبراطورية الرومانية استمرت قائمة حتى سقوطها في سنة ٤٧٦ م ، فان الاجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية اخذت تتجمع حول القسطنطينية •

ولما توفي الامبراطور ثيودوسيوس Theodosius سنة ٣٩٥م ،انقسمت الامبراطورية بين ولديه اركاديوس Arcadius في الشرق وهونوريوس Honorius في الغرب ، وتأكد ذلك الانفصال بين الشرق والغرب الذي كان قد بدأ منذ وقت طويل (٥١) •

وخلال الحقبة التي تمتد من بناء القسطنطينية الى سنة ٥١٨ م مرت الدولة بازمتين عنيفتين اجتازهما الجزء الشرقي بنجاح • فاما الاولى فهي الغزوات المتبربرة التي حطمت الامبراطورية الغربية نهائيا سنة ٤٧٦ م ، على حين اخفقت هذه الغزوات في القضاء على الدولة الشرقية ، واما الازمة الثانية فهي ظهور المذاهب الدينية المختلفة التي زعزعت كيان الكنيسة خلال القرنين الرابع والخامس ، وادت بالتالي الى شقاق ديني اسفر عن فصل روما عن بيزنطة في خلال الثلث الاول من القرن الخامس (٥٢) •

---

(٥١) Diehl, Byzance, Grandeuret Decadence .
من الفصل الاول « تكوين الامبراطورية الشرقية ـ ملحق ٢ ، بكتاب بينز (الامبراطورية البيزنطية) ص ٣٢٠-٣٢١

(٥٢) ملخص عن الفصل الاول من كتاب Byzance للمؤرخ Diehl
(ملحق بكتاب بينز ، الامبراطورية البيزنطية) ص ٣٢٠-٣٢١

وقد اكد مرور الزمن حقيقة امكان قيام دولة شرقية خالصة مستقلة ، استخدمت بعض السمات المميزة وابرزها الحكومة المطلقة والادارة المركزية الشديدة والكنيسة ذات اللغة اليونانية .

لكن الامبراطور جستنيان Justinian (٥١٨–٥٦٥م) صمم ان يظهر على انه امبراطور روماني ، وقد تبنى فكرتين الاولى فكرة الامبراطورية والثانية الفكرة المسيحية . وكان جستنيان يحلم باعادة الوحدة الرومانية واعتبر حكمه استمرارا لحكم اباطرة روما العظام . لذلك قصر اهتمامه على الولايات الغربية واندفع في غزو افريقيا وايطاليا واسبانيا ، وكله امل وطموح في اقامة الدولة الرومانية التي تدعمها وتباركها البابوية . لكن مجهودات جستنيان ادت الى ايقاف التطور الطبيعي للامبراطورية الشرقية وانهكتها وسببت لها كثيرا من الاضرار التي ظهرت في المستقبل .

ومع كل ذلك فان نظام الدولة البيزنطية ظل حتى ذلك الحين يحذو حذو روما ، فبقيت اللغة اللاتينية لغتها الرسمية ، وظلت الادارة تحتفظ باسماء الوظائف ودرجاتها التي قررها لها القياصرة وبعد وفاة جستنيان كانت الدولة مرهقة ماليا وحربيا نتيجة طموحه الذي كلف المجتمع البيزنطي غاليا . فما كاد يطل القرن السابع حتى اخذت الجيوش العربية الاسلامية تدق ابواب الامبراطورية البيزنطية التي فرغت لتوها من دفع خطر الفرس بفضل كفاءة هرقل Heraclius (٦١٠–٦٤١م) .

لكن الدولة البيزنطية بدأت تتفكك قبل موت هرقل فعلا ، فقد فتح العرب الشام ومصر والمغرب وارمينية ، وغزا اللمبارديون اكثر من نصف ايطاليا . وكان البلغار والصقالبة من جهة اخرى يهددون كيان الدولة. وكان من نتيجة هذه الاحداث ان استقر الصقالبة في البلقان والصربيون

والكرواتيون في الشمال الغربي والبلغار في الجنوب الشرقي • ولكـــني تستطيع الحكومة المركزية مجابهة هذه الاخطار فانها وضعت كل السلطات في ايدي القادة العسكريين ، وبدت تتبع نظام الإدارة الحربية في ولايات الحدود كما سنرى •

ان الحقبة التى تعنينا من تاريخ الامبراطورية البيزنطية هى الحقبـة التي حكمت خلالها الاســرة المقدونيـة (٨٦٧ـ١٠٥٧م = ٢٥٣ـ٤٤٩هـ) ؛ لان احداث الحروب الحمدانية ـ البيزنطية انما وقعت في عهد هذه الاسرة واذا شئنا التحديد الدقيق فان الاباطرة البيزنطيين الذيـــن عاصـــروا ...يين هم :

قسطنطين الســابع (بورفيــرو جينتوس ...

٩١٣ ـ ٩٥٩ ، الذى يقسم عهده الى ثلاث فترات : الاولى من ٩١٣ ـ ٩١٦ حيث حكمت امه زويه ... الوصية عليـه ، والثانيه مـن ٩١٣ ـ ٩١٤ حيث حكـم رومانوس ليكابينوس Lecapenus والثالثة من ٩٤٥ـ٩٥٩ وهى حكم قسطنطين المطلق •

وجاء رومانوس الثاني (٩٥٩ـ٩٦٢) الذي حكمت بعده ارملته ثيوفانو

---

(٥٣) هذا هو التاريخ الذي حدده المؤرخ Diehl فى كتابه Byzance (انظر ص ٢٣٢ من كتاب بينز) ويتفق معه فازلييف ، فقد جعل حكم هذه الاسرة يمتد بين (٨٦٧ـ١٠٨١م) Vasiliev , Hisstory Of The Byzantine Empire . P. 303

ويبدو ان هناك خلافا بين المؤرخين في هذا الصدد ، فقد جعــل رونسمان عهد الاسرة المقدونية بين سنتى ٨٦٧ـ١٠٥٩ الترجمة العربية ص ٣٧٢ Runciman , Byzantine Civilization

اما المؤرخ Grousset فقد جعل عهد هذه الاسرة بين سنتى ٨٨٧ ـ ١٠٥٦ L'empire Du Levant , P. 109.

وجعل المؤرخ Diehl عهد هذه الاسرة بين سنتى (٨٦٧ـ١٠٢٥) انظـر كتابه : History Of the Byzantine Empire . P. 77

وجعله Baynes من ٨٦٧ ـ ١٠٥٧

وصية على طفليه باسيل الثاني ٩٧٦ــ١٠٢٥م وقسطنطين الثاني (٩٦٣ــ١٠٢٥) والذي تفرد بالعرش من ١٠٢٥ ــ ١٠٢٧ ومن الجدير بالذكر ان ثيوفانو كانت قد تزوجت من نقفور فوكاس Phocas في سنة ٩٦٣م وقد حكم باسم نقفور الثاني (٩٦٣ــ٩٦٩م) حتى تآمر عليه الضباط وعزلوه عن الحكم ، فخلفه يوحنا الاول تسميسكيس (٩٦٩ــ٩٧٦) (٥٤) .

يعتبر عهد الاسرة المقدونية العصر الذهبي في تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، فقد توالى على عرشها حكام بارزون اقوياء نخص بالذكر منهم نقفور فوكاس ويوحنا تسيمسكيس ، وكان كلاهما غاصبا للعرش وحكما باسم الاباطرة الشرعيين . وهناك باسيل الثاني الملقب Bulgaroctonus ــ اي قاهر البلغار ــ الذي امتد حكمه نصف قرن (٩٧٦ــ١٠٢٥) . وكان هؤلاء حكاما اقوياء الشكيمة ، غير انهم جميعا غلب عليهم الميل للاستبداد والعنف ،

---

(٥٤) نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية «ترجمة مؤنس» ص ٦٢ وكذلك يختلف المؤرخون فى تحديد تواريخ حكم هؤلاء الاباطرة ، فاذا رجعنا الى فازلييف وهو ثقة فى البيزنطيات نجده يورد هذه التواريخ على النحو التالى : قسطنطين السابع (٩١٣ ــ ٩٥٩) رومانوس الاول ليكابينوس (٩١٩ ــ ٩٤٤) كامبراطور شريك ستيفن وقسطنطين ابن رومانوس ليكابينوس (٩٤٤ــ٩٤٥) ــ رومانس الثاني (٩٥٩ــ٩٦٣) ــ نقفور الثاني فوقاس (٩٦٣ــ٩٦٩) ــ جون (يوحنا) الاول تسميسكس (٩٦٩ــ٩٧٦) ــ بسيل الثاني Bulgaroctonus (اى قاهر البلغار) انظر :
واذا رجعنا الى تاريخ كامبرج الوسيط نجده يقسم حكم قسطنطين السابع الى ثلاث فترات (من ٩١٣ــ٩١٩ وهي فترة حكم امه زوى الوصية عليه ، ومن ٩١٩ــ٩٤٤ وهي فترة حكم رومانوس ليكابينوس ، ومن ٩٤٥ــ٩٥٩ وهي فترة حكم قسطنطين المطلق .. الخ والمهم في الامران عهود حكم الاباطرة البيزنطيين تتداخل في بعضها نتيجة وجود اكثر من حاكم واحد في نفس الفترة ووجود اوصياء على هؤلاء الحكام الصغار السن .

وكانوا يتصرفــون في كثيــر مــن الاحيــان دون رحمــة .
وكانوا رجال سياسة وحرب وقد برزوا في ميادين القتال ، حيث قضــوا اكثر حياتهــم بين جنودهــم .

وقد استطاع هؤلاء الاباطرة ان يوسعوا من رقعة الامبراطورية حتى امتدت من الشام الى الدانوب ومن ارمينية الى جنوبي ايطالــيا . وفي عصر الاسرة المقدونية اصبحت القسطنطينية مدينة عظيــمة تتجمع فيهــا كل انواع الترف والوان المتعة الحسية والعقلية وغرر الصناعة وروائــــع العمارة وملاهي العصر الممثلة بالملاعب والمسارح . وقد وصفها ديهل بأنهـا «باريس العصور الوسطى» (٥٥) . وحين توفي باسيل الثاني سنــة ١٠٢٥ كانت الدولة البيزنطية في اوج مجدها ، وقد تضاعفت رقعتها وازدحمـــت خزائنها بالاموال وانتشر صيتها في العالم الشرقي كله .

حكمت الاسرة المقدونية ــ وهي من اصل ارمني ــ خلال الحقبـــة التي كان العالم الاسلامي في ظل الخلافة العباسية يفقد وحدته وينقســـم الى دويلات مستقلة مثل الاخشيدية والفاطمية في مصر والحمدانيــة فـــي الموصل وحلب وغيرها من الدويلات الكثيرة التى قامت في جناحي العالــم الاســلامي الشــرقي والغربي .

وقد بدات الحرب مع العرب في عهد الاسرة المقدونية في عهد رومانوس ليكابينوس ، وكانت الحرب في مصلحة البيزنطيين ، بحيث احتل القائـــد البيزنطي يوحنا كركواس John Curcuas واخوه تيوفيل منطقــة ارضروم (ثيودوسيوبوليس) Theodosiopolis ، بعد حصار دام سبعة

---

(٥٥) الفصل الثاني من كتابه Byzance ترجمة حسين مؤنس (الملحــق ا من كتاب بينز ، الامبراطورية البيزنطية) ص ٣٣٩ .

أشهر حوالي عام ٩٢٨م (٣١٦هـ) • ولكي يقوي البيزنطيون حلفهم مع الارمن والجورجيين اعطوا حكم ارضروم «ثيودوسيوبوليس» الى امير ارمني — جورجي • وفي سنة ٩٣٤ (٣٢٣ هـ) اتم كركواس فتح ملطية واجلى سكانها عنها • وقد اسس الامبراطور رومانوس ليكابينوس على الزاوية الاخرى من الفرات مدينة Romanopolis • وفي سنة ٩٤٤م (٣٣٣ هـ) ارغم كركواس حاكم الرها على تسليم ايقونة ذات شهرة ذائعة في صورة المسيح (٥٦) •

وفي عهد ليكابينوس برز قواد عظام في الجيشين البيزنطي والعربي• وقد كان يوحنا كركواس الذي احرز انتصارات عظيمة في الجزيرة بعد هزائم في ارمينية الاسلامية والذي استولى على ملطية في سنة ٩٣٤ (٣٢٣هـ) المع قواد البيزنطيين في هذا العهد ، على حين كان سيف الدولة امير بني حمدان المع قواد الجيش الاسلامي (٥٧) •

والحق ان الذي سهل احراز هذه الانتصارات البيزنطية هو انهماك العالم الاسلامي في مشاكله الداخلية ، فقد كانت الخلافة العباسية تجتاز مرحلة اضطراب داخلي بسبب سيطرة الاتراك وبسبب قيام الدويلات المستقلة على حساب الخلافة ، فضلا عن الحروب الاهلية في افريقية الشمانية ، واجتياز الدولة الاسلامية في الاندلس ظروفا صعبة في وسط نصراني معاد(٥٨) •

لقد عرض المؤرخ فازلييف الاسباب التى سهلت احراز البيزنطيين انتصاراتهم على العالم الاسلامي وهي انهماك الخلافة في متاعبها الداخلية والحروب الاهلية فى افريقيا الشمالية ، وانطواء الاندلس على نفسها ،

(٥٦) Grousset . L, empire Du Levant , P. , 109-111

(٥٧) Cambridge Mediaeval History , vol -lv , P. , 143

(٥٨) Vasiliev , History Of The Byzantine Empire , P. , 303

مما سهل للبيزنطيين في اواخر القرن التاسع احراز انتصاراتهم على العرب .

لكن الدولة البيزنطية لم تستطع ان تحظي بانتصارات سهلة في القرن العاشر على حساب الدولة الاسلامية ، لانها هي نفسها كانت تعاني حتى نهاية العقد الثالث من هذا القرن مشاكل داخل املاكها هددت كيانها في الصميم . وقد انصبت جميع جهودها واتجهت كل قواها في هذه الفترة لصد خطر البلغار . وكان من حسن حظ الدولة البيزنطية حقا أن الخلافة الاسلامية كانت تمر يومذاك في حالة انحلال وتفسخ داخلي ، اتاحت لها — اي للدولة البيزنطية — فرصة التفرغ لميدان واحد هو ميدان الصراع مع البلغار .

ان ظهور سيف الدولة في اواخر النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، غير مجرى العلاقات الدولية بين العرب والبيزنطيين ، واتاح للمد البيزنطي ان ينحسر عن ارض المسلمين ، الى حد ان اقوى القواد البيزنطيين وجدوا فيه خصما عنيدا صعب المراس سبب لهم كثيرا من الهزائم ، واستطاع ان يحافظ على حدود الدولة الاسلامية بل وأن يتوغل داخل حدود البيزنطيين .

كان الاباطرة البيزنطيون هم الذين قادوا الجيوش في عهد سيف الدولة مثل قسطنطين السابع ونقفور فوكاس ، ويعتبر هذا الاخير من اعظم المحاربين البيزنطيين واشدهم قسوة وجرأة . وقبل أن يعتلي نقفور عرش الامبراطورية كان قائدا عاما للقوات البيزنطية في الجبهة الغربية ، وهو الذي تمكن من استعادة كريت من يد العرب سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) (٥٩) .

---

(٥٩) Cam . Medi . Hist , vol . lv , P. , 144

كان نقفور فوكاس رجلا واسع المطامع عالي الهمة ، وقد وضع نصب عينيه الوصول الى العرش ، فعقد صلات طيبة مع زوجة الامبراطور رومانوس الثاني وهي ثيوفانو ، وتزوجها بعد وفاة الامبراطور فاتاح له ذلك ان يعتلي العرش في سنة ٩٦٣م (٣٥٢هـ) باسم نقفور الثاني (٦٠) . ويشتهر نقفور الثاني هذا ، الى جانب خبرته العملية في الحروب . بأنه وضع كتابا عن حروبه مع الحمدانيين (٦١) .

التنظيم الاداري ـ العسكري

لقد دفع تهديد الجيش العربي لاسية الصغرى في القرن السابع الميلادي، الامبراطور لاوون الثالث (٧١٧ ـ ٧٤٠ م) ـ وهو من الاسرة الايسورية ـ الى الاهتمام بالحدود مع العرب ، وقد قسم الامبراطورية الى ولايات ثغرية ، وهو نظام يقوم على الحاجات العسكرية . وتدعى هذه الولايات او الالوية Themes او Themata وهو تعبير اطلق كذلك على فرق الجند التي تقيم في ذلك اللواء . فكانت كل مقاطعة او

---

(٦٠) انظر Runciman, Byzantine Empire . P. , 81

كذلك انظر : بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ٦٢ .

(٦١) Schlumberger , P. . 211

انتهت حياة نقفور بمؤامرة دبرها ضده جان تسميسكيس ـ وهو صهره وقيل ابن اخته ـ بالاشتراك مع ثيوفانو زوجة نقفور التي احبت تسمسكيس الشاب الجميل فتآمرت ضد زوجها واوصلت تسمسكيس الى العرش (سلمى الكيالي ، سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص ١٠٢) . ويروي ابو المحاسن (النجوم الزاهرة ٤/ قصة اخرى مفادها ان ثيوفانو انجبت من زوجها الاول الامبراطور رومانوس الثاني ، فاراد ان يخصيهما ويهديهما للكنيسة ، غير ان امهما ارسلت الى الدمستق ان يأتيها في زي النساء ومعه جماعة يشق بهم في زي النساء ، فجاؤا عندها ليلة الميلاد ، فوثبوا على نقفور وقتلوه .

لواء تحت سلطان حاكم عسكري ، وكانت طريقته في الحكم موضع المراقبة التامة من القسطنطينية • وتبدو اهمية الولايات الثغرية Themes في اسيا الصغرى ، انه كانت لقواد الولايات الثغرية الشرقية الاسبقية في البلاط ، وكانوا يتقاضون رواتب اعلى • وقد اتم الاباطرة الايسوريون هذا التنظيم الاداري ــ العسكري حقا ، فاصبح القائد العسكري يجمع بين السلطة العسكرية والمدنية •

لقد كان اعلى لقب قديم مباح للجميع هو لقب «بطريق» Patrician وهو رتبة استحدثها الامبراطور قسطنطين • ولم يلبث عدد البطارقة ان تزايد شيئا فشيئا ، فاعطي لعدد معين منهم الاسبقية بوصف كونهم بطارقة «اتثيبانيين» • وفي القرن العاشر ظهر لقب اعلى هو المعظم Magister وقد تزايد عدد حملة هذا اللقب ايضا ، فاستحدث نقفور الثاني لقبا اعلى هو Proedrus (٦٢) وفي القرن العاشر كان هناك احد عشر لقبا دون لقب «البطريق»• ونجد ان الخصيان في هذا القرن اختصوا بثمانية القاب وسموا بـ «البطارقة الخصيان» وكانوا اعلى مرتبة من البطارقة الاعتياديين ، وكان لكل من البطريق والماجستر زي خاص وسلاح مختلف وشارة هي لوحة من العاج ذات نقوش للبطريق ، وقميص ابيض مزركش بالذهب للماجستر (٦٣) •

وقد اصبح لدينا في القرن العاشر الميلادي وصف للتنظيم الاداري قدمه Philotheus ، بالاضافة الى قائمتين من تصنيف المؤرخين العرب تحويان اسماء الوية الثغور • ومن هذه المصادر نجد انه كان هناك خمسة وعشرون لواء Theme مقسمة الى مجموعتين : شرقية وغربية •

---

(٦٢) رونسيمان، الحضارة البيزنطية (ترجمة جاويد) ص ٩٢
(٦٣) نفس المصدر ص ٩٣

وكانت الاولى مكونة من الالوية (المقاطعات العسكرية) الاسيوية بما في ذلك تراقيا ومقدونيا . وكانت الطائفة الثانية مكونة من الالوية الاوربية بما في ذلك الالوية البحرية (٦٤) .

وكان قواد الولايات الشرقية ويلقبون Strategoi يمنحون مرتبات محددة من الحكومة المركزية ، ولهم مرتبة تعلو الطائفة الاخرى التي كان اصحابها يتقاضون مرتباتهم من الضرائب المحلية . وكان يرأس هؤلاء جميعا القائد العسكري للواء الاناضول , Strategus اللواء الانضولي) (٦٥) وهو الذي حلت وظيفته محل وظيفة «سيد الجند العام» في الشرق Magister Militum وكانت له مرتبة متميزة واسبقية خاصة .

ومع ان المقاطعات كانت تحكم عسكريا ، الا ان الحكومة المركزية ظلت مدنية ، فان الضباط العسكريين في الحكومة المركزية وهم الدمستقيون Domesticus ، والقواد ال Stra'achs لم يكن لهم شأن في الادارة (٦٦) .

كان الاصل في نظام الوية الثغور Themes هو انزال فرق عسكرية للدفاع عن نواحي ثابتة معينة ، ثم عين قائد تلك الفرق الـ Strategus رئيسا للحكومة المدنية ايضا ، ومن ثم سميت النواحي باسم الوية الثغور Themes ، وكان كل لواء في اول الامر يسمى باسم الفرقة التي تحتله مثل «لواء فرقة المختارين» Theme Optimatum او «لواء التموين» . حتى اذا أستقرت الامبراطورية وازدادت تنظيما وسادت الحياة المدنية ، اضيفت ثغور جديدة في المناطق المستردة من الاعداء وعلى التخوم .

---

(٦٤) Runciman . P . 89

(٦٥) نفس المصدر والمكان

(٦٦) نفس المصدر ص ٩٠

قسم البيزنطيون اسيا الصغرى في القرن العاشر الى عدد من الالوية الثغرية تغيرت مساحتها بحسب الاحوال الحربية ، وهي :

١ — Opsicion — وعاصمتها Nicaca

٢ — Optimaton — وعاصمتها Nicomedia

٣ — Thracesian — جنوب غربي الاناضول

٤ — Samos

٥ — Cibyrrhoeot — جنوب ساحل الاناضول

٦ — Seleucia

٧ — Anatolic

ونجد قرب البحر الاسود الالوية الثغرية التالية :

١ — Bucellarian

٢ — Cappadocia

٣ — Paphlagonia

٤ — Armeniac

٥ — Chaldia

وامتدت على الحدود الشرقية الألوية التالية :

١ — Charsianon

٢ — Lycandus

٣ — Mesopotamia

٤ — Sebastea

٥ — Colonea (٦٧)

---

(٦٧) ومن الجدير بالذكر ان هذه الالوية كانت تسمى Strategai نسبة الى قواد الالوية الثغرية الذين يتولونها ، عدا لوائي Seleucia , Charsianon .

كان قائد اللواء الثغري (الـ Strategus) اذن هو رأس الادارة العسكرية في اللواء وهو بمثابة نائب الامبراطور الذي يقوم هو بتعيينه • وينقسم اللواء Theme الى ناحيتين او ثلاث تسمى Turma وتودع الى قائد يدعى Turmarchies (قائد كتيبة) او (قائد منطقة او ناحية) • وكانت الكتيبة Turma تقسم ـ لاغراض حربية ـ الى سرايا ثلاث Moirai ، كل منها تحت قيادة «قائد سرية» Drungarius كما ان السرية تنقسم الى عشر فصائل Tagmata بقيادة قائد يدعى Comes (٦٨) • اما المؤرخ بيوري (٦٩) فيقدم تقسيمات تختلف بعض الشيء عن تقسيمات رونسيمان التي اسلفنا ذكرها فهو يقسم اللواء الى فرقتين تسمى كل منهما (تورما) يقودها قائد فيلق • وكانت التورما مؤلفة من خمس فرق Banda • كل منها تحت امرة ضابط هو (الدرنجاريوس) (٧٠) وكانت الفرقة المكونة من خمس فرق خماسية Pentarhiai تحت امرة قائد يسمى Komites • وكانت الفرقة الخماسية تنقسم الى خمس فصائل كل منها تحت امرة ضابط يسمى Pentekontarchia (٧١) • ويقول بيوري (٧٢) ان عدد الجند في هذه التشكيلات كان يختلف بحسب اختلاف اهمية الالوية • والاصل في الـ Bandon انه كان يتألف من ٢٠٠ رجلا والـ Drungos من خمس Bandon ثم اصبح (الباندون) يتألف من ٤٠٠ رجلا • اما الـ Turma

---

سميت Clissurarchiai نسبة الى وظيفة الحاكم الذي يتولى ادارة كل منهما وهو قائد الثغور

(٦٨) Runciman , P. , 140

(٦٩) History Of The Byzantine Empire ,P. 236-7

(٧٠) برتبة كولونيل .

(٧١) برتبة لفتنانت .

(٧٢) Bury , P. , 226-7

فانه يحوي (٥٠٠٠) رجلا ، وكان (التورما) ينتظم ثلاثة Drungos بحيث كانت الفرقة التي يقودها (الترمارك) مكونة من (٣٠٠٠) رجـــل فصاعدا • ويختلف بيوري في تحديده لمعنى الـ Tagmata عن رونسيمان، فقد اعتبرها ـ اي بيوري ـ فرق فرسان على اربعة انواع يقودها القـــواد الذين يحملون لقب Domesticus وفي القرن العاشر اصبح عدد فرقـــة الفرسان هذه يبلغ الفا وخمسمائة جنديا •

اما الدمستق Domesticus فهو منصب كبير من المناصب العسكرية عند البيزنطيين وبخاصة في القرن العاشر الميلادي ، حيث كان الدمســـتق ينوب عن الامبراطور في القيادة العامة للجيوشـــ ضـــد المسلميـــن (٧٣) •

ويعتبر ديهل (٧٤) الدمستق رئيسا للموظفين البيزنطيين في الـــوية الثغور ، وهو يرتب سلسلة الالقاب الادارية ـ العسكرية كما يلي :

الكونت	Count	في لواء	Opticion	،
الدمستق	Domesticus	في لواء	Optimaton	•
الدوق	Duke	في	انطاكية •	
البروموتيس	Promotes	في	بلغاريا •	
الكاتابان	Cataban	في	ايطاليا وغيرها •	

(٧٣) Bury , P., 228 الدمستق هو الذي يلي شرق الخليج القسطنطينـــي (القلقشندي ، صبح الاعشى ٥/٠٠٤)

(٧٤) Cam. Medi. Hist. , vol. 1v,, P., 734

كان الدمستق في الاصل ضابطا من ضباط القصر ، وكانت فصائل حرس القصر تنقسم الى فصائل تسند قيادة كل منها الى «دمستق» ، وكان برأس هؤلاء «الاستاذ القائد» Domes icus Scholarum الذي اخذ مكان «رئيس الادارات» ، واصبح في القرن العاشر القائد العام للجيش كله ، وكانت فرق القصر هذه تشترك في الحرب فعلا اذا خرج الامبراطور بنفسه الى الحرب ، اما اذا لم يخرج الامبراطور فانه كان ينيب عنه الاستاذ القائد الذي ظل في الواقع حوالي مائة سنة (منذ عهد باسيل الاول الى عهد نقفور الثاني ، حين لم يكن احد من الاباطرة قائدا عسكريا) يشغل اهم وظيفة عسكرية في الدولة ، وان كان يوضع دون مرتبة قائد الاناضول ، حتى ظهر في سنة ٩٦٣م (٣٥٢هـ) رئيس فصائل حرس القصر(اي الاستاذ القائد Domes icusScholarum) نقفور فوكاس ، الذي جمع بين القيادة الفعلية للجيوش وبين عرش الامبراطورية الذي توصل اليه بفضل مواهبه العسكرية (٧٥) .

الجيش البيزنطي

يصح القول ان تاريخ بيزنطية ـ كتاريخ روما ـ ليس الا تاريخ الجيش فيما يتعلق بسياستها العسكرية . وقد عمل دقلديانوس وقسطنطين على فصل السلطتين المدنية والعسكرية ، بهدف صيانة الحدود وضمان الدفاع عنها ضد الغارات الاجنبية . لذلك اوجدت بجانب حرس الحدود قوة متنقلة يمكنها ان تتوجه لنجدة اية ولاية يهددها خطر الغزو . وقدمنحت قوات الحدود هبات من الاراضي يمكن نقلها الى الغير ، وكان الابن ملزما بالوراثة بأن يأخذ مكان ابيه (٧٦) . وكان سكان الالوية الثغرية

(٧٥) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ١٧٤ ؛ رونسيمان (الترجمة العربية) ص ١٦٥ .

(٧٦) بينز الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٩ .

يتحملون نفقات الجيوش القائمة فيها وهي تؤدي نقدا الى الخزينة المركزية .

انقسمت جيوش الامبراطورية البيزنطية الى قسمين : فرق القسطنطينية ونواحيها ، وفرق الولايات . وتكون القسم الاول من اربع فرق من الفرسان وفرقة من المشاة ، وكل فرقة تحوي اربعة الاف جندي يقودها دمستق . وكان الدمستق «الاستاذ القائد» او دمستق «الحرس الامبراطوري» وهي احدى فرق الفرسان الاربع هو القائد العام للجيش في القرن العاشر الميلادي .

اما فرق الولايات فقد تراوح عدد الجنود في الواحدة منها بين اربعة الاف وعشرة الاف بحسب اهمية الولاية ، وكان يقود كل فرقة (ستراتيغوس) وكان اهم عناصر الجيش الفرسان وهم فرسان ثقيلة وفرسان خفيفة (٧٧) .

وبجانب الفرق التي اسلفنا ذكرها ، نجد جيش الحدود ، ومهمته صيانة القلاع والحصون والنقاط (الاستراتيجية) والممرات الجبلية والطرق. ولدينا وصف طريف من القرن العاشر يصور حياة الجند البيزنطيين المحاربين على جبال طوروس وفي حدود (قبدوقية)المهددة بالغزو العربي على الدوام. ففي مثل هذه الحرب شبه الدائمة والمليئة بالمفاجئات وبنصب الكمائن وبالهجوم المباغت تتفوق الفرسان الخفيفة . وعلى طول الجبهة كانت هناك شبكة من محطات المراقبة تتصل بمراكز القيادة بطريق نظام من الاشارات ينقل حركات جيش العدو . وفي الوقت الذي يحتشد المشاة في القلاع والحصون ، يقوم الفرسان بغارات على مواقع العدو بغية قطع خطوط مواصلاته (٧٨) .

---

(٧٧) Diehl, Cam. Medi . Hist. , Vol. 1v, P. 739

(٧٨) المصدر نفسه ج٤ ص ٧٤٠

كانت واجبات الكتائب مرسومة بعناية ، فكان جيش الالوية يقـوم على حراسة البلاد من الغارات الاجنبية • فاذا حدث مثلا ان اخترق العرب الحدود ابلغ القائد المحلي الامر في الحال الى قائد أللواء (الستراتيغوســس) فيرسل هذا تحذيرا الى الالوية المجاورة فتجمع قواتها لصد الغـارة ، على حين تنطلق خيالته لتعقب المغيرين ومواصلة ملاحقتهم في الاطراف ، بينما تحتل المشاة الممرات التي لابد لهم من المرور منها اثنـاء عودتهـم • وفي الوقت نفسه تكون الالوية الاخرى قد عبأت قواتها الرئيسة واستعدت للاتجاه الى المواقع التي يتوقع ان يكون العدو متجها اليهـا • فان احسن توقيت تركز الجند فربما امكن امساك المغيرين والاحاطة بهم • واقتضت الحال القيام بغارات مضادة ، في حين قام الاسطول بمهاجمة السواحـــل الاسلامية ونهبها (٧٩) •

لم يكن الجيش البيزنطي بضخامة الجيش العربي وكانت نفقته كثيرة ، لذلك كثرت تحذيرات الكتب البيزنطية من الكمائن والهجمات المباغتـــة • ونصح الجند الا يتركوا امتعتهم دون حراسة وان تكون لهم طلائع كشافة يعتمد عليها ، وان يستخدموا الخطط الحربية (الاستراتيجيـة) والحيـل • وينبغي الابقاء على حياة الاسرى وعدم ايقاع الاذى بالنساء ، وان يتساهلوا في شروط الصلح اذا كان العدو باسلا وقاتل بشجاعة • ونصح بالمفاوضات لكســب الوقت واستخدام الجاسوسية وارسال الرسـائل التي توقع قواد العدو في الشك • وقد تفتعل انتصارات وهمية ترفـع الروح المعنـوية

---

(٧٩) Bury ; P., 281-84 Runciman P. 142
وترجمته العربية (ص ١٦٦) . وقد اشار بيوري وروسـمان الى ان هذه المعلومات مقتبسـة من كتاب عن الـ Tac.ica(التكتيك) وضعه لاوون في القرن العاشر (ص ٩٧٧ــ٩٨٠) .

للجند (٨٠) .

كان الجيش البيزنطي قويا منظما ، لكن عـدده لم يـزد على (١٢٠) الفا من الجند ، منهم حوالي سبعون الفا في الوية الثغور الشرقية اي في اسيا الصغرى على الجبهة العربية (٨١) . وكـان الجيش البيزنطي يتألف من اجناس شتى من روم وارمن (٨٢) وبلغار وروس وصقالبة . والحق ان كثيرا من الاباطرة انفسهم كانوا قوادا ممتازين ، فمنذ اعتلاء ليـو الثالـث حتى موت ميخائيل الثالث اي لمدة قرن ونصف (٧١٧–٨٦٧م) ، كان كثير من الاباطرة قوادا نجدهم في مقدمة جيوشهم . وكذلك كان ليو الخامس وميخائيل الثاني ونقفور فوكاس وجون تزميسكيس وباسيل الثاني جنودا

---

(٨٠) Runciman, P., 143-4 والترجمة العربية من ١٦٧–١٦٨ . نقلا عن كتاب Tactica للاوون (ص ١٠٤٨) .

(٨١) Diehl, Camb. Hist., vol. 4, P 741

(٨٢) تمتد ارمينية عبر التقاء اوربا باسيا وقد قاست كثيرا من جراءالحروب بين الشرق والغرب في ايام رومة وبيزنطية وخلال الحروبالصليبية . وكانت ارمينية هي الطريق الذي سلكه الشرقيون لغزو الغرب ايـام الفرس او العرب او المغول او الترك ، او اذا غزا الغربيون بلاد الشرق. وقد قسمت ارمينية من ثم بين روما وفارس فـي بدايـة العصـور الوسطى ، ثم ظلت طوال تاريخها فريسة بين الشرق والغرب .وعندما تكون الحكومة الارمنية قوية ولها حرية اختيار اصدقائها فانهـا اتجهت للشرق حينا وللغرب حينا اخر ؛ ولذلك اخذت حضارتها من الجهتين . ان تمسك الارمن بكنيستهم القومية حال دون اتحادهـم الدائم مع المسيحية الغربية او مع الاسلام ، وحتى حين فقـدوا استقلالهم فان الارمن تمسكوا بعقيدتهـم المسيحيـة القوميـة . وفي القرن الـسابع فتح العرب ارمينية ، لكن الارمن قاموا بعـدة محاولات استقلالية منتهزين فرصة انشغال العرب في جبهة اخرى ؛ مما كان يؤدي الى عودة العرب اليها فاتحين . وحين وجـد الخلفاء انفسهم بحاجة الى عون الارمن في حروبهم مع الروم فـي منتصف القرن التاسع الميلادي ، منحوا (اشوت البغري) حاكم ارمينية لقـب «امير الامراء» ، لكن باسيل الاول عرض عليه تاجا ملكيا . ووقع معه =

من الطراز الاول • ومن هنا يمكن ان نجعل الجيش البيزنطي في عـــداد احسن الجيوش في العالم الوسيط (٨٣) •

هذا فضلا عن القواد من غير الاباطرة الذين تتردد اسماؤهـم فـــي الحرب مع الحمدانيين مثل برداس فوكاس وبرتزيس وجـون كـركواس وغيرهم • وكل هؤلاء سواء كانوا اباطرة ام غير اباطرة اعتبروا الحرب ضـد المسلمين من اولى واجباتهم •

كان الفرسان والمشاة ينقسمون الى فرق خفيفة السلاح وفرق ثقيلة• فكان المحارب ذو السلاح الثقيل يلبس خوذة من الفولاذ ودرعا مـن الزرد يكسوه من رقبته الى فخذيه ، وقفازا من الحديد واحذية من الفـولاذ • وكان يحمل عباءة خفيفة او برنسا ليرتديه فوق سلاحه ايام الصيف الحارة، وكان سلاحه سيفا عريضا وخنجرا ورمحا وقوسا للرماية عن ظهور الخيل ، وجعبة للسهام • واذا كان ممن يقفون في الصفـوف الاولى ويقـومون بالهجوم جعل لحصانه دروعا فولاذية على صدره وعصابات فـولاذية على جبهتـــه •

وكان الفارس ذو الاسلحة الخفيفة عادة من الرماة ، فيلبس سترة من

= معاهدة صداقة . وبعد موت اشوت الاول عمت الفوضى ارمينيـة مما اجبر المسلمين على التدخل . وفي عهد اشوت الثاني «الحديد» ـ النصف الاول من القرن العاشر الميلادي ـ تحررت ارمينية من النفوذ العربي الى حد ما بمساعدة الجيش البيزنطي ومساعدة ملكجورجيا . وكان اشوت الثاني اول ملك ارمني يتخذ لقب «ملك الملوك» وقد زار بلاد القسطنطينية ورحب به الامبراطور رومانس ليكابينوس . وقـد كون الارمن عنصرا مهما من عناصر المجتمع البيزنطي ليس في الجيش فقط بل وفي الادارة ، فقد اعتلى بعضهم عرش الامبراطورية مثـــل ميخائيل الاول وليو الخامس .

انظر Vasiliev, P. 313 - 314 Camb . medi . Hist ., Vol. 4, P. 153 - 161

(٨٣) Finlay , History Of the Byzantine Empire. P. , 189 .

الزرد ، وكان الجنود من المشاة ذوي الاسلحة الثقيلة يلبسون دروعا من الزرد تغطي انصافهم العليا ، وخوذا فولاذية ، وكانت اسلحتهم السيف والرمح وفأسا ذات نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من الناحية الاخرى . وكان جندي المشاة ذو السلاح الخفيف اما راميا عن القوس او قاذفا بالحربة فكان يلبس قميصا طويلا من الزرد يصل الى ركبتيه او درعا خفيفا في بعض الاحيان ، ويحمل جعبة للسهام فيها اربعون سهما وفأسا في حزامه ، وكان يعلق خلفه ترسا صغيرا مستديرا (٨٤) .

استخدم البيزنطيون وسائل دفاعية متقنة ، فعرفوا الاشارات النارية التي توقد على قمم الجبال والتلال لتوصل تحركات الجيوش العربية من جبال طوروس حتى القسطنطينية (٨٥) . كما استخدموا فرق الكشافة الاستطلاعية والجواسيس الذين كانوا يتغلغلون بين صفوف المسلمين . وكانت لديهم علاوة على الاسلحة المعروفة الدبابات والاماطيل والنار اليونانية . وقد وجه البيزنطيون عناية فائقة للجرحى فعينوا فرسانا وضباطا لانقاذهم ونقلهم الى الخطوط الخلفية حيث يعالجهم الاطباء في الخلف . وكان كل من هؤلاء الضباط التابعين لقسم الخدمات الطبية يحمل معه جرة ماء وسلمين للانقاذ . (٨٦)

والحق بالجيش البيزنطي مهندسون درسوا جميع العقبات الطبيعية التي كان يجب التغلب عليها في كل حملة من الحملات . وكان الجيش البيزنطي يصنع جسورا من القوارب لعبور الانهار ، وكانت هذه القوارب تحمل على ظهور الدواب . وكون فن تنظيم المعسكرات علما حيا وكانت

---

(٨٤) انظر : بينز ؛ الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٧-١٨٢

(٨٥) Bury , P. , 247

(٨٦) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

له عند البيزنطيين كتب خاصة به حتى القرن العاشر .(٨٧)

٣ ـ الجيش الحمداني :

تطلبت حروب سيف الدولة مع الروم جيشا ضخما يتألف من عشرات الالاف لذلك وجه هذا الامير همه الى توفير الرجال والمال لكي يستطيع الاستمرار في هذه الحروب . اما المال فقد دبره من الضرائب التي فرضها على مواطنيه ، واما الرجال فقد وجدهم في القبائل العربية الضاربة في سورية والجزيرة ، وفي الغلمان الاتراك والديلم الذين رباهم تربية عسكرية صارمة . واستغل سيف الدولة الشعور الديني لدى جنوده فاقنعهم انهم يؤدون فريضة الجهاد بقتال الروم ، كما استغل طمعهم في الاموال والغنائم التي تتأتى من الحرب . ويقول ابن ظافر (٨٨) في وصف جنود سيف الدولة «اشتهر غلمان سيف الدولة بشدة البأس وفضل النجدة لانه رباهم على مباشرة الحروب ومصابرة الخطوب ورمي انفسهم على العدو وكان يلقي الجمع الكثير بالعدد اليسير حتى الدمستق نقفور بن فقاس كان يخرج لكل رجل من عسكر سيف الدولة عشرة رجال من الروم اخذا بالاحتياط والحزم» .

كان سيف الدولة حاكما شديد البأس ، لذلك خضع له غلمانه خضوعا مطلقا فهو رحيم بهم اذا اخلصوا ، قاس عليهم اذا حادوا عن سواء السبيل، وقد لقي نجا وهو من اقرب ضباطه اليه واكثرهم خدمات لدولته مصيرا سيئا حين عصا مولاه وخاطبه بما لا يليق (٨٩) . ومما يدل على حزم سيف الدولة ويقظته ان غلمانه تآمروا عليه في سنة ٣٤٦ ، فاحبط المؤامرة وقتل منهم مائة وثمانين غلاما وقبض على مائتين فقطع ايديهم وارجلهم والسنتهم (٩٠) . وهذا مثل واضح يدل على خشونته وشدته . غير ان اهم ماكان يسعى اليه الجند هو الغنيمة ، وقد ادرك سيف الدولة هذه

---

(٨٧) بينز الامبراطورية البيزنطية ص ١٨٢ .

(٨٨) الدول المنقطعة ورقة ١٢٣

(٨٩) الانطاكي . تاريخ الانطاكي ص ٧٩٥

(٩٠) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٢٧ .

الحقيقة فاغدق عليهم ما كان يتخلف في الميدان من الاموال والاسلاب ، من ذلك انه لما هزم الاخشيد سنة ٣٣٣ هـ امر غلمانه الا يقتلوا احدا من الفارين قائلا «الدم لي والمال لكم» (٩١) •

وكان العرب اهم عنصر في الجيوش الحمدانية : ففي سنة ٣٣٥ هـ كون سيف الدولة جيشه من بني عقيل ونمير وكلاب لمحاربة الاخشيد ، كذلك استعان سعد الدولة ببني كلاب (٩٢) • وكثيرا ما ضم جيش الحمدانيين المتطوعة الذين دفعهم الجهاد الى حرب الروم • وبجانب العرب نجد عناصر من غير العرب في جيوش الحمدانيين وبخاصة الترك الذين تبوأ بعضهم مراكز القيادة مثل نجا وقرغويه ولؤلؤ كما اسلفنا •

يعتقد بعض المؤرخين الغربيين ان الجيوش الاسلامية التي حاربت الروم في القرن العاشر كانت ـ على الرغم من قوتها وبسالتها وروحها المعنوية العالية ـ ضعيفة من ناحية الاسلحة والفن العسكري بالقياس الى الجيوش البيزنطية (٩٣) • غير ان المسلمين امتازوا بفرسانهم الشجعان المدججين بالسلاح من اخمص القدم الى قمة الرأس ، حاملين الدروع والاقواس والرماح • ومع ذلك فقد اعتبرت الجيوش العربية ثقيلة الحركة بما تحمل من الاسلحة وآلات الميدان وادوات الحصار (٩٤) • على ان الجيش العربي كان اضخم عددا من الجيش البيزنطي ، لذلك كان الكتاب البيزنطيون يؤكدون الحذر من الكمائن والحصار وتجنب الخسائر ،

---

(٩١) نفس المصدر جـ١ ص ١١٣
(٩٢) ابن العديم ١/١٧٠
(٩٣) FINLAY, P., 189
(٩٤) نفس المصدر ص ١٨٩

فاستخدموا الكشافة والحيل والتجسس قدر الامكان • وكانوا يحذقـون اساليب عدوهم في القتال ، خاصة وقد كان العرب اخطر اعدائهم لكثرتهم وشدة بأسهم وبراعتهم في القتال •

لقد اعترف شلمبرجر (٩٥) بان الجيش الحمداني كان ذا خطط حربيـة متقنة وفن في المناورات دقيق • وكان الجند يخضعون لانضباط عسـكري صارم • لقد كانت الجيوش العربية منظمة وتتمتع بالخدمة اليومية الدائمة ، ولها كشافة وطلائع ملحقة بكل كتيبة • ويصف الامبراطور تقفور فوكاس في كتاب له عن حروبه مع الحمدانيين الجنود العـرب وصـفا شـيقا فيقول (٩٦) :كان الجنود العرب خشنين اشداء يستميتون في القتـــال ويحافظون على النصر • واذا ما احتلوا موقعا تشبثوا به وكان من العسير استرداده من ايديهم •

ولما كان الحمدانيون قد احتكوا بالبيزنطيين في حروبهم فلا بد انهم تأثروا ببعض نظمهم وفنونهم الحربية مثل النار اليونانية والاشارات النارية• ويرى المؤرخ بيوري ان المسلمين افادوا من نظامهم في تعبئة الجيـوش • فالفرقة العربية تتكون من الف رجل يقودها قائد ، وقسمت الى مئـات وعشرات • وكل عشر فرق كان يقودها امير شبيـه بالستراتيغوسـس البيزنطي (٩٧) • غير ان المسلمين لم يكتفوا بالجند النظاميين ، وانمـا استعانوا ــ كما اسلفنا ــ بالمتطوعة الذين اقبلوا على الجهاد من كل مكان• كما انهم استخدموا المراقبين والحرس والركاضـة والموكلين بالـدروب،

---

(٩٥) UN EMPREUR BYZANTIN P. 2 26-7

(٩٦) نفس المصدر ص ٢١١

(٩٧) LURY , P. 211

والمخائض والحصون (٩٨) ، وهم فئات قامت باعمال الاستطلاع ورصد حركات البيزنطيين والتجسس عليهم .

كان الفرسان في جيش سيف الدولة يحملون الرايات الملونة المزخرفة بالايات والنقوش ، والجنود من فرسان ومشاة يغطون ابدانهم بالتروس الضخمة ، وبايديهم الرماح الطويلة والاقواس التي يرمون بها النشاب . واستعمل المسلمون الطبول يقرعونها اثناء الحرب لاثارة الحماس فتختلط اصواتها باهازيج الجند الحماسية وبهدير الابل التي تحمل معدات الحرب ، فيثير كل ذلك الرعب في قلوب البيزنطيين وتجمح خيولهم (٩٩) .

اما اسلحة الجيش الحمداني فهي الرماح والسيوف والاقواس الضخمة والفؤوس والجواشن ـ اي الدروع الكبيرة ـ (١٠٠) . ومن الاسلحة التي يتردد ذكرها في حروب الحمدانيين اللت المضرس والمستوفي (١٠١) ، وهو عمود طويل مربع له مقابض مدورة ، كان سيف الدولة يحمله في حروبه (١٠٢) . ونسمع كذلك عن المناطق والتجافيف التي وجد منها نقفور في قصر «الحلبة» بحلب مائة حمل (١٠٣) .

وكانت الخيل عنصرا مهما في الجيش الحمداني ، حتى اختار منها سيف الدولة اندرها واكثرها اصالة . وكان له حصان مشهور اثير يدعى «الفحمي» (١٠٤) ، ولعل هذا الاسم جاء من سواد لونه . ويزخر شعر المتنبي ـ وهو شاعر الحرب الحمدانية بحق ـ بوصف الخيل وآداب

---

(٩٨) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ٢٥٣
(٩٩) SCHLUMBERGER , P., 210-1
(١٠٠) نفس المصدر ص ٢١٠–٢١١
(١٠١) ابن العديم ١/١٥٧
(١٠٢) نفس المصدر (الحاشية) ١/١١
(١٠٣) ابن ظافر ورقة ١١ أ (التجافيف ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح ـ شرح ديوان المتنبي (٤/٧٤)
(١٠٤) ابن العديم ١/١٣٥ .

الفروسية ، مما يدل على ان خيالة سيف الدولة تركوا في نفسه ـ وبالتالي في شعره ـ اثارا قوية . ويمدنا بديع الزمان الهمداني بصورة خياليةلولع سيف الدولة بالافراس الاصيلة والعناية بصفاتها واستقصاء مزاياها (١٠٥) ، حتى اقتنى في قصره بحلب ثمانمائة رأس من الخيل . وقد ابـدع المتنبي في وصف خيل سيف‌الدولة التي «ادبها طول القتال» حتى انها تفهم ماتريد منها سيدها باشارة من طرفه :

وادبها طـول القتـال فطـرفه ... يشير اليها من بعيـد فتفهـم
تجاوبه فعلا وما تعرف الوحـى ... ويسمعها لحظا وما يتكلم (١٠٦)

وهذه الخيل مابين الكميت والاشـقر تنقض على الاعـداء كالشهب المنقضة في الهواء في السرعة والشدة ، وجعل ابو الطيب هذه الخيـل نجوما تتلألأ في الظلام ببريق الحديد . ولانها تستغرق الارض بسيرهـا استغراق الكواكب فهي تسير في الارض كما تسير الكواكـب في السماء وهي تطأ القتلى من الابطال الذين لم تحملهم ـ اي ابطال العدو ـ وتطأ ماتكسر من قطع الرماح التي لايمكن تقويمها لتكسرها :

تبارى نجوم القذف في كل ليلة ... نجوم له منهـن ورد وادهـم
يطأن من الابطال مـن لا حملنه ... ومن قصد المران ما لا يقوم (١٠٧)

ويصف ابو الطيب عرض الجيش امام سيف الدولة ، فنجد مـن

---

(١٠٥) مقامات الهمداني ص ٥٢ـ٥٣
(١٠٦) شرح ديوان المتنبي (البرقوقي) ٧٦/٤
(١٠٧) شرح ديوان المتنبي ٧١/٤ـ٧٢

وصفه الدقيق البارع انه كان جيشا لجبا ضخما حوى كثيرا من الأجناس وانه كان مكونا من فرق الفرسان والمشاة • ويشير الشاعر الى الـرايات الكثيرة والى الاسلحة المختلفة ولباس الجند والخيل :

ولما عرضت الجيش كان بهاؤه   على الفارس المرخي الذوابة منهم
حواليه بحـر للتجافيف مائـج   يسير به طود من الخيل ايهـم
تساوت به الاقطار حتى كأنـه   يجمع اشتـات الجمـال وينظـم
وكل فتى للحرب فوق جبينـه   من الضرب سطر بالاسنة معجم
كأجناسها راياتهـا وشعارهـا   وما لبسته والسلاح المسمم (١٠٨)

ويعترف شلمبرجر (١٠٩) بان الجند البيزنطيين كانوا يصابـون بالفرق والفزع امام هجمات «كتائب القفز» التي ابتكرها سيف الدولة • لقد كان هؤلاء الجند ذوي جراءة واقدام ، وهم يقفزون من قمـة الى قمة وينقضون على العدو لينالوا منه • ويروي هذا المؤرخ (١١٠) بـان سيف الدولة حل هذه المفارز من قوات الصاعقة لانه كان يهوى الحـرب وجها لوجه وبشرف وامانة • لقد كان سيف الدولة حقـا قائدا فـذا ذا اراء حربية وخطط اكسبته تقدير اعدائه • ولسيف الدولة رأي عسكري طريف هو ان القائد لاينزل الى ميدان المعركة بـل يثبت تحت علمـه ويرسم الخطط لجنده (١١١) •

٤ ــ طبيعة الحرب واهدافها :

دأب المسلمون ايام الامويين والعباسيين على عادتهم في غزو الروم سنويا في حملات تدعى الصوائف وهي اهم غزوات المسلمين ، وكانت

---

(١٠٨) نفس المصدر ٤/٧٤-٧٦
(١٠٩) P. 224
(١١٠) نفس المصدر ص ٢٢٧
(١١١) القرماني . اخبار الدول ص ٢٦٥

تبدأ في تموز وتدوم ستين يوما . لكنهم قاموا بغزوات اخرى في الربيع هي «الغزاة الربيعية» وتبدأ في مايس ، بعد ان تكون الدواب والخيول قد اربعت ، وتدوم ثلاثين يوما . اما الشواتي فلا تكون الا في حالات الضرورة القصوى ولا يوغلون فيها ، ويحرصون على الا تدوم اكثر من عشرين ليلة (بين شباط واذار) .

ويتتبع قدامة بن جعفر سير هذه الغزوات بصورة دقيقة فيقول : (١١٥) «ان اجهدها مما يعرفه اهل الخبرة من الثغريين ان تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة ايام تخلو من ايار ، بعد ان يكون الناس قد اربعوا دوابهم وحسنت احوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوما وهي بقية ايار وعشرة من حزيران . فانهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكنا وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا ، ثم ينتقلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوما وهي بقية حزيران وخمسة من تموز ، حتى يقوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما . فاما الشواتي فاني رأيتها جميعا يقولون ان كان لا بد منها ، فليكن مما لايبعد فيه ولا يوغل ، وليكن مسير عشرين ليلة بمقدار مايحمل الرجل لفرسه مايكفيه على ظهره ، وان يكون ذلك في اخر سباط ، فيقيم الغزاة الى ايام تمضي من آذار فانهم يجدون العدو في ذلك الوقت اضعف مايكون نفسا ودوابا ، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون» .

كانت العواصم والثغور ــ وقد اسلفنا الحديث عنها ــ هي القاعدة التي انطلق منها المسلمون في جهادهم ضد الروم ، وهي «الواسطة

(١١٥) الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٥٩

ومنها كانت تقع المغازى • فان احتيج الى الغزو منها كانت النفقة حسب الغزاة » (١١٢) •

ومعنى ذلك ان الدولة الاسلامية ارصدت ميزانية سخية تتناسب واهمية الجهاد وصرفت المبالغ لتغطية نفقات المجاهدين بحسب الحاجة •

كان على الخلفاء المسلمين ان يقوموا بفريضة الجهاد ضد سكان «دار الحرب» المجاورة لـ «دار الاسلام» • وكان على قادة الجيوش الاسلامية ان يتثبتوا من ان هؤلاء السكان على علم بمبادىء الاسلام لكنهم يرفضون اعتناقها ، فاذا كان الامر كذلك ، فمن الضروري محاربتهم • ومن ثم فان الجهاد او «الحرب المقدسة» اذن قائمة على الدوام ــ من الناحية النظرية ــ على حدود الدولة الاسلامية • ومن هنا قام الخلفاء كل عام بغارة او اكثر على بلاد البيزنطيين • ان الصلح الحقيقي بين المسلمين و «الكفار» امر مستحيل من الناحية النظرية ، غير ان الشريعة الاسلامية جوزت عقد اتفاق مع «الكفار» غير ملزم للمسلمين • وقد جوزت الشريعة عقد هدنة مع «الكفار» مدتها القصوى عشر سنوات في حالة ضعف الدولة الاسلامية ، وبشرط ان تكون الهدنة لمصلحتهم • والمسلمون احرار في خرق هذه الهدنة اذا شاءوا على ان يكفروا عن ذلك (١١٣) •

والجهاد «جهد» و «غيرة» على الدين ، ونحن نجد المجاهدين بين المتطوعة الذين حاربوا على الحدود في كل عهد من عهود الخلافة الاسلاميه وتراهم يملأون «الربط» (١١٤) وهي المعسكرات التي تربط فيها الخيل

---

(١١٢) قدامة ، الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٥٤

(١١٣) ديموبين ، النظم الاسلامية (الترجمة العربية ـ بغداد) ص ١٥٩

(١١٤) جمع رباط ، والمرابط : الرجل الذي يعيش في الرباط .

على أستعداد دائم لكي تسرح للمعركة • وبعد حين أصبح الرباط نوعا من حصون العبادة يعيش فيه رجال نجد بينهم زهادا محاربين اسهموا في حرب البيزنطيين وفي حرب الصليبيين فيما بعد (١١٦) •

وقد شجع الخلفاء والحكام المسلمون المتطوعة على الاقامة في الربط المبثوثة في الثغور حيث كانوا يحيون حياة صوفية حربية معا • وقصد الغزاة مدينة طرسوس ــ وهي قاعدة الجهاد ــ من كل حدب وصوب ووردتها هبات المحسنين الذين لايستطيعون الخروج بانفسهم للجهاد وبفضلها عاش المتطوعة • وقد كرم اهل بغداد سكان الثغور حتى ان بعض «المكدين» (الشحاذين) لجأوا الى ايهام الناس بانهم سائرون الى الجهاد ، فنالوا بذلك الهبات والاموال (١١٧) • ومن الطريف ان الخراسانيين كانوا ذوي رغبة قوية في الجهاد حتى خرج منهم في سنة ٣٧٠ ﻫ جيش في عشرين الفا ، لكن ركن الدولة البويهي ردهم حين طالبوه بالاموال للاستعانة بها في حرب الروم (١١٨) •

والحق ان سيف الدولة تصدى للجهاد كخير مايكون التصدي وقام بالمهمة كأحسن مايكون القيام ، ودرأ عن الخلافة خطر التوسع البيزنطي في عهد كان الخلفاء العباسيون في غاية الخور والضعف ،والامبراطورية البيزنطية في دور من ادوار قوتها وانتعاشها في عهد الاسرة المقدونية • ترى ماهي اهداف سيف الدولة من حربه الدائبة ضد البيزنطيين ،والتي استنزفت زهرة شبابه واستغرقت جل جهده ؟

لقد اسلفنا القول ان سيف الدولة كان طموحا ذا نفس وثابة تنزع

---

(١١٦) ديمومبين ، النظم الاسلامية ص ١٦١

(١١٧) متز الحضارة الاسلامية ٢/٦٥

(١١٨) نفس المصدر ٢/٦٧

الى المجد والسؤدد . وقد رأينا كيف قاده طموحه الى تكوين مملكة في سورية الشمالية على حساب الاخشيديين ، فحظى باعتراف الخلافة العباسية وتقديرها . ولكي يستطيع سيف الدولة ان يحافظ على ملكه من جهة وان يكسب عطف الخلافة العباسية ورضاها من جهة اخرى فانه الزم نفسه بواجب الجهاد . ونحن نعلم ان العباسيين كانوا يمرون في مرحلة ضعف سياسي في هذا العصر ، وكانت ظاهرة تجزؤ الدولة الاسلامية وقيام الدويلات المستقلة قد بلغت اوجها . لذلك رحب الخلفاء بظهور شخصية لامعة مثل سيف الدولة نفذ التزاماته تجاه الخلافة كاملة : فاعترف بسيادة الخليفة الاسمية وقام نيابة عنه بفرض الجهاد ، في عصر عجز فيه الخلفاء عن الخروج بانفسهم لصد غارات البيزنطيين كما فعل اسلافهم من امثال الرشيد والمعتصم .

كان سيف الدولة يقوم بواجب قومي وديني في الوقت نفسه ، فهو في حمايته للثغور وذوده عن الحدود ، كان يهدف الى الحيلولة دون التوسع البيزنطي داخل مملكته وبالتالي داخل الدولة الاسلامية . اما الواجب الديني فهو القيام بالجهاد ليس لنشر الاسلام فحسب ، بل وللحيلولة دون تحويل مسلمي الثغور الى نصارى بفعل التغلغل البيزنطي العسكري والديني .

اما اهداف البيزنطيين فكانت تتعدى كثيرا مجرد حماية حدودهم والحفاظ على مسيحية مواطنيهم في الاقاليم التي تجاور الدولة الاسلامية . فقد تبنى بعض القادة البيزنطيين بحمية وحماسة وتعصب شعار احتلال بيت المقدس . وكان اول داعية لهذا الشعار المتطرف، هو نقفور فوكاس،

الذي كان يرتدي في ايام عيد الفصح ملابس مذهبة وينتعل نعلا مذهبا ويتشبه بالسيد المسيح (١١٩) • وكان من مظاهر تعصبه الديني انه اضفى على جيوشه طابعا دينيا فوضع في مقدمتها البطاركة والقسس وجهز الجند بصلبان ضخمة يحملونها رمزا لهدف اعلاء المسيحية والوصول الى بيت المقدس • وقد اسلفنا القول ان نقفور فوكاس عبر عن هذه الاهداف حين احتل طرسوس وصعد على منبرها قائلا لقومه : «اين انا ؟ قالوا : على منبر طرسوس • قال : لا ، ولكني على منبر بيت المقدس ، وهذه كانت تمنعكم من ذلك » (١٢٠) •

وقد اسفرت هذه النوايا عن نفسها في عهد جون تسمسكيس الذي زحف على بلاد الشام في سنة ٣٦٤ هـ (٩٧٤م) ، وفكر جديا في الوصول الى بيت المقدس ، ويقول المؤرخ فازلييف في هذا الصدد (١٢١) «كان هدف الامبراطور يوحنا تسمسكيس تحرير بيت المقدس ، اي القيام بحملة صليبية •••» لكن احلام تسمسكيس لم تتحقق ، فان الجيش البيزنطي لم يذهب الى ابعد من حدود سورية كثيرا ، وانما كان غزو فلسطين من بنات هوس الامبراطور وخياله (١٢٢) • ويصف مؤرخ بيزنطي انتصارات تسمسكيس بصورة مبالغ فيها فيقول : «كل الشعوب اصابها الرعب من هجمات يوحنا تسمسكيس ، الذي وسع املاك الرومان ، وفر امامه العرب والارمن ، وخشي بأسه الفرس ، وحمل اليه الناس الهدايا من جميع الجهات راجين عقد الصلح معه • وسار حتى الرها ونهر الفرات ، وامتلأت الارض بالجيوش الرومانية ، ووطأت خيول الرومان

(١١٩) SCHLUMBERGER , P. 304

(١٢٠) ابن العديم . زبدة الحلب ١/١٤٣

(١٢١) VASILIEV , HISTORY OF THE BYZANTINE EMPIRE , P.310

(١٢٢) نفس المصدر والمكان

سورية وفنيقيا .. لقد خاف الناس نقمة تسمسكيس ، واخذ سيف النصارى يحصد الكفار كأنه منجل » (١٢٣) . وهكذا عبر المؤرخون البيزنطيون المتعصبون عن وجهة نظرهم في هذه الحرب التي اعتبروها صليبية .

كانت هذه الحرب ذات صبغة دينية بجانب اهدافها السياسية ، وقد حرص الطرفان كثيرا على حماية اماكنهما المقدسة وعمائرهما الدينية .وقد حرص البيزنطيون على استرجاع الايقونات الدينية مثل الصوروالصلبان والاحجار التي نقشت عليها صورة السيد المسيح (١٢٤) . ومن امثلة حمية البيزنطيين الدينية انهم استعادوا في غاراتهم سنة ٣٥٣هـ (٩٦٤م) صليبا ثمينا كان المسلمون قد استولوا عليه ، ومن ثم وضعه الروم بكنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية ، كما حملوا ابواب طرسوس والمصيصة البرونزية ذات الصنعة الدقيقة ووضعوها في الكاتدرائية التي شيدها نقفور (١٢٥) .

وجهت الدولة الاسلامية اهتماما خاصا الى تحصين الثغور والعواصم ، فابتنى عبدالملك بن مروان المصيصة ، وعمر بن عبدالعزيز حصن المثقب ، وعمر الرشيد طرسوس وبنى عين زربةوالهارونية التى شحنت بالمقاتلة . وعمل العباسيون على تهيئة وسائل العيش للجند والزهاد هناك فبنوا لهم بيوتا واقطعوهم المزارع (١٢٦) . غير ان الضعف اخذ يدب فى جسم الدولة العباسية منذ منتصف القرن الثالث ، مما ادى الى تقاعس الخلفاء عن الجهاد ، لذلك اخذ الروم

---

(١٢٣) المصدر نفسه ص٣١١ وقد اورد هذا النص كذلك DIEHL , HISTORY OF THE BYZANTINE EMPIRE, P.79

(١٢٤) طابوقة نقشت عليها صورة المسيح سلمت للبيزنطيين في منبج (هيرابوليس) سنة ٩٦٦ CMB . HIST. , VOL 4 , P. 145

(١٢٥) FINLAP . P. 307

(١٢٦) ابن الفقية . كتاب البلدان ص ١١٢-١١٤

يجتاحون الثغور الاسلامية موغلين في سورية • ولما بلغ ضعف العباسيين اقصاه في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقامت الدولة الحمدانية في الجزيرة وسوريا الشمالية ، اصبحت حدودها ملاصقة لحدود الدولة البيزنطية • فتحتم نتيجة ذلك ان تأخذ على عاتقها واجب حرب الروم ، ويبدو ان الخلفاء نظروا الى قيام الدولة الحمدانية نظرة ارتياح كحامية للبلاد الاسلامية من غارات الروم ، بل انهم شرطوا على الامراء الحمدانيين في عهود التولية القيام بواجب الجهاد والعناية بالثغور (١٢٧) •

اعتبر الحمدانيون — وبخاصة سيف الدولة — حرب البيزنطيين واجبا اساسيا من واجباتهم وجندوا لها جل مواردهم ورجالهم • ومن هنا ارتفع شأنهم في اعين المسلمين الذين نظروا الى هذه الحرب على انها فرض كفاية لابد على اولي الامر من القيام بها بصورة دائمية •وقد تحدث ياقوت الحموي عن سيف الدولة وجهوده الرائعة في التصدي للجهاد ضد الروم فقال (١٢٨) «حتى ولي العواصم والثغور الامير سيف علي بن ابى الهيجاء بن حمدان فصمد الغزو وامعن في بلادهم — اى الروم — واتفق الا قابله ملوك اجلوه ورجال اولو بأس وجلال ،وبصيرة بالحرب والدين شداد» •

ان تاريخ العواصم والثغور يمثل المراحل المختلفة للصراع المرير بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية من اجل السيادة على شرق وجنوب آسيا الصغرى ، وهى بقعة اريقت عليها كثير من الدماء ، وكل شبر منها شهد صراعا عنيفا وكفاحا مريرا • وقد ادى هذا العنف المستمر الى اخلاء

---

(١٢٧) رسائل الصابي ١/١٧٤–١٧٧

(١٢٨) معجم البلدان ٣/٧

هذه الاقاليم من سكانها ، لذلك عمد الخلفاء المسلمين من حين الى حين الى نقل جماعات من مختلف البلاد الاسلامية اليها ، مما جعل سكانها خليطا من اجناس شتى ، فتجد النصارى المستعربة والصقالبة والفرس والزط والترك والفيالفة (١٢٩) والارمن الذين كونوا قوة حربية نشيطة طالما نصرت الروم على المسلمين (١٣٠) .

٥ ـ الاحتكاك الثقافي والحضاري .

على الرغم من الحروب القاسية الدامية بين العرب والبيزنطيين التى ردد صداءها التاريخ ، وملاءت قصصها صفحات كتب الادب ودواوين الشعر ، فانها ادت الى احتكاك ثقافى وحضارى كانت له آثار بعيدة فى الحياة العامة في العصور الوسيطة .

لقد تمخضت عن هذه الحروب عملية تمازج ثقافى وحضارى خصبة ومثمرة خلال توقف القتال وفى اوقات الهدنة على وجه الخصوص . وتمثلت هذه العملية فى عدة جوانب هى الثقافة والعمران والتجارة وغير ذلك من اوجه الحياة المدنية السلمية العامة .وقد ازدهرت العلاقات الدبلوماسية والتجاريةفى فصل الشتاء ،وبخاصة حين يتعذر القتال وتتوقف الجيوش لتنال قسطا من الراحة استعدادا لحملات الربيع . وقد استغلت اوقات الهدنة هذه لتبادل الاسرى وهو ما دعاه المؤرخون المسلمون «بالفداء» وقد اوردت المراجع العربية جردا بهذه الافدية يجد الباحث نموذجا لها لدى المسعودي (١٣١)

(١٢٩) الفيالفة قوم من الروم لكنهم يخالفونهم فى العقائد الدينية لذلك ساندوا المسلمين

(١٣٠) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ٢٥٤

(١٣١) لا باس من ان نورد فى هذا الصدد بيانا بالافدية التى جرت بين المسلمين والروم منذ عهد هارون الرشيد وفق ما اورده المسعودى (التنبيه والاشراف)

وكان لابد لقيام علاقات مدنية بين الدولتين لوجود العناصر النصرانية في البلاد الاسلامية التي تمتعت عموما بالتسامح من جانب المسلمين .وقد زودنا المؤرخ «شـيد» بحقائق طريفة عن هذه العلاقات وعن ثروة الكنيسة ورجال الدين النصارى في العالم الاسـلامي ، وعن العـلاقات التي قامت بينهم وبين الخلفاء والامراء المسـلمين ،والاساليب التي كان يتبعهـا رجال الدين النصارى للوصول الى كرسي البطرياكية في المدن الاسلامية كالموصل ونصيبين وبغداد (١٣٢) . والحق انه قامت علاقات دينية لم تعكرها الحرب

---

١ ــ فداء ابى سليم في خلافة الرشيد سنة ١٨٩
٢ ــ فى خلافة الرشيد سنة ١٩٢
٣ ــ فى خلافة الواثق سنة ٢٣١
٤ ــ فى خلافة المتوكل سنة ٢٤١
٥ ــ فى خلافة المتوكل سنة ٢٤٦
٦ ــ فى خلافة المعتضد سنة ٢٨٣
٧ ــ فى خلافة المكتفي سنة ٢٩٢
٨ ــ فى خلافة المكتفى سنة ٢٩٥
٩ ــ فى خلافة المقتدر سنة ٣٠٥
١٠ ــ فى خلافة المقتدر سنة ٣١٣
١١ ــ فى خلافة الراضى سنة ٣٢٦
١٢ ــ فداء سيف الدولة سنة ٣٣٥

ويقول رونسيمان Byzantine Civilization, P. 56 - 62 :
انه حين تعقد هدنة مع العرب او يجرى تبادل الاسري على الحدود يرسل جماعة يجيدون اللغة العربية . وحين يريد الامبراطـوران تجنب الحرب او يكون غير مستعد لها فانه يدفع مبلغا لاعدائه قـد يسميه هؤلاء « جــزية » .

(١٣٢) ISLAM AND THE ORIENTAL CHURCHES , P. 19-24

بين القسطنطينية والبطريركيات الشرقية في العالم الاسلامي وبخاصة انطاكية وبيت المقدس والاسكندرونة (١٣٣) ٠

لقد ترك لنا المؤرخ ابن العديم(١٣٤) في هذا المجال وثيقة تاريخية بالغة الاهمية ، ترسم صورة واضحة للعلاقات العسكرية والتجارية والاجتماعية والدينية بين المسلمين والروم في القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ومنها نستدل على رواج التجارة ونوع البضائع المستوردة والمصدرة وعلى حالة العبيد وطرق معاملتهم ٠ ونقف منها كذلك على كثرة الكنائس والعمائر الدينية وتنظيماتها الاكليركية في تلك المناطق ٠ هذه الوثيقة هي عبارة عن صلح فرضه الروم على قرغويه عامل حلب عندما ضعف شأن الخلافة العباسية وانصرم عهد سيف الدولة الزاهر ، ومن الطريف ان نوجز هنا بعض فقرات هذه المعاهدة ذات الصبغة المدنية لدلالتها على الاحوال العامة يومذاك (عقد هذا الصلح سنة ٣٥٩ هـ ـ ٩٧٠م) ٠

ـ ليس للمسلمين ان يعترضوا على من يدخل النصرانية منهم وليس للروم ان يعترضوا على من يدخل الاسلام منهم ٠

ـ للروم الحق في اعتقال اى جاسوس مسلم يدخل حدود بلادهم ٠

ـ للروم ان يعمروا الكنائس المخربة ،وعلى المسلمين تكريم البطارقة والاساقفة الذين يفدون اليهم ٠

ـ الا تؤخذ من نصراني جزية في هذه المدن الا اذا كان لديه مسكن او ضيعة ٠

---

(١٣٣) .... Canard .Deux Episodes DesRelations .P. 51

(١٣٤) زبدة الحلب ج١ ص ١٦٤ـ١٦٩

ـ اذا هرب عبد مسلم او نصراني ذكرا او انثى فعلى المسلمين تسليمه او اعطاء صاحبه ثمنه .

ـ يقدر الروم العشر الذى يؤخذ عن تجارتهم ، وبخاصة الذهب والفضة والديباج الرومي والاحجار الكريمة والسندس وعلى قرعويه وبكجور ان يقوما بالمحافظة على القوافل التجارية البيزنطية وتقديم الادلاء لارشادها ، فاذا تعرض لها قطاع الطرق وجب عليهما ان يقوما بتعويض ما نجم .

الا ان التجارة كانت فى اكثر الاحوال تجد طريقها ، بل وتشقه حتى خلال اهوال الحرب . وكان التجار ـ وهم طلاب منفعة ورزق ـ يحتالون بشتى السبل لايصال بضائعهم بين الشرق والغرب وبالعكس . لقد اهتم البيزنطيون بمدن سورية والعواصم حين كانت من ممتلكاتهم حتى بلغت التجارة البيزنطية اوجها في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، وكانت السفن اليونانية تقوم بتجارة ساحلية نشطة وبخاصة فى البحر الاسود . وقد نشط استيراد القمح من مصر وافريقية منذ الفتح العربى . ولما كان البيزنطيون بحاجة دائمة الى الحرير الذي امتازت سورية بصنعه ، والذي فقدوه حين اصبحت سورية ولاية اسلامية فانهم عملوا على تعويضه عن طريق المتاجرة (١٣٥) . وكان من اهم الطرق البحرية طريقا البحر الابيض والبحر الاحمر ، فعبرهما كانت تحمل متاجر الشرق وسورية ، كما كان ساحل البحر الاسود الشمالي الطريق الذي يلي في الاهمية (١٣٦) . غير

---

(١٣٥) Hayd ,Histoire du commerce du levant, vol. I. . p.. 19

(١٣٦) المصدر نفسه ج١ ص ٢٤ .

ان البيزنطيين خسروا سيادة هذه البحار • وعلى الرغم من العداء بين الدولتين فان التجار قاموا برحلاتهم المعتادة بين البلدان الاسلامية والبيزنطية فى فترات السلم والهدنة على وجه الخصوص • ولما كان البيزنطيون بحاجة الى منتجات الشرق كالعقاقير الطبية التى لاغنى عنها فانهم اضطروا الى ان يقللوا من كراهيتهم للمسلمين (١٣٧) كذلك وصل التجار اليهود الى حلب وانطاكية منذ القرن التاسع الميلادي • وكان التجار اليهود الراذانية يجيدون عدة لغات ، ويسافرون برا وبحرا من المشرق الى المغرب ويحملون السلع كالرقيق والديباج والجلود والفراء والسيوف ، وكانوا يركبون الى مصر فجدة في طريقهم الى الشرق الاقصى حيث يحملون منه المسك والكافور والدارصيني • ويعودون الى البحر الاحمر ثم يذهبون الى القسطنطينية يبيعون سلعهم ، او يذهبون الى انطاكية ثم ينحدرون الى بغداد فالبصرة (١٣٨) •

والحق انه ترتب على فتوح العرب فى القرون السابع والثامن والتاسع تغير فى التجارة البيزنطية • فقد وجه العرب ضربة قاصمة لنفوذ بيزنطة الاقتصادي باقتطاعهم من الامبراطورية اغنى ولاياتها واكثرها انتعاشا ورقيا اقتصاديا • وعلى الرغم من كثرة الحروب ، فقد اتيح للدولتين اقامة علاقات تجارية بينهما • وقد ظهر التجار البيزنطيون فى كثير من المدن العربية ، وكان التجار العرب كذلك يفدون على بيزنطة (القسطنطينية) • واصبحت طرابزون فى القرن العاشر الميلادى اهم مركز للاتصالات التجارية بين بيزنطة وتجار المسلمين ، وقال عنها المسعودي (١٣٩)

(١٣٧) نفس المصدر والمكان
(١٣٨) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ص ١٥٣–١٥٤
(١٣٩) مروج الذهب ج٢ ص ٣ (طبعة باريس)

ان «لها اسواقا في السنة ياتي اليها كثير من الامم للتجارة من المسلمين والروم والارمن وغيرهم» .

كانت الولايات البيزنطية المفتوحة وثيقة الصلة بالثقافة الهلنستية . وقد اصبحت المراكز الثقافية الشهيرة كانطاكية وقيصرية وغزة والاسكندرية جزءاً من الدولة العربية لما حوت من مكتبات ومدارس وتراث ثقافي وحضاري ، مما ادى الى تأثر العرب بالثقافة والحضارة الهلينية واطلاعهم على آثار القدماء في العلم والفن (١٤٠) . ان العمليات الحربية لم تقف حائلا دون التبادل الثقافي ، وقد حفلت تلك العهود بسلسلة متتابعة من اعمال الحرب والسلم والتخريب والانشاء والعداوة والصداقة . ولم يكن هناك حقد وتعصب عنصري اذ ان الامبراطور نقفور الاول (٨٠٢ ـ ٨١١م) كان ـ كما تقول المصادر الشرقية ـ من اصل عربي ، ويقول ابن الاثير (١٤١) انه من اولاد جفنة بن غسان . وبنى ليو الثالث جامعا في القسطنطينية ، ومن هنا وصفته المدونات الاغريقية بانه كان «ذا عقلية عربية» وكتب بطريق القسطنطينية نيقولا ميستكيس فى النصف الاول من القرن العاشر الى امير اقريطش (كريت) يقول «ان دولتى العرب والروم ظاهرتان على العالم كله وهما تمتازان وتتألقان كالشمس والقمر فى القبة الزرقاء ولهذا وحده لامندوحة لنا نحن ان نعيش معا كاخوة بالرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين» (١٤٢) .

وقد حفلت الكتب البيزنطية الخاصة بمراسم البلاط البيزنطي بوصف الاستقبالات الفخمة للسفراء العرب من بغداد والقاهرة ، وكان «الاصدقاء»

---

(١٤٠) راجع الفصل الذي كتبه فازلييف بعنوان Byzantium And Islam وهو الفصل الحادي عشر من كتاب Byzantium لبينز وموسى .

(١٤١) الكامل ج٥ ص ١١٨

(١٤٢) راجع فازلييف Byzantium

العرب يحتلون على المائدة الامبراطورية مقاعد اعلى من مقاعد « الاصدقاء الفرنجيين» ، كما ان سفراء الروم حينما كانوا يفدون على بغداد ــ كما حدث مثلا سنة ٩١٧م ــ كان الخليفة يستقبلهم استقبالا رسميا في ابهة بالغة ويقيم عرضا عسكريا كاملا امام انظارهم (١٤٣) • وكان سفراء بيزنطة يسافرون للخارج محملين بالهدايا من المصوغات والجواهر ، فقد ارسل نقفور رسولا من لدنه الى عضد الدولة ببغداد سنة ٩٨٠م هو يورانوس • اما اذا وصل سفير اجنبي الى القسطنطينية فانه يراقب ويعزل ويؤتي به الى البلاط حيث يحظى بالتكريم (١٤٤) • ويجد الباحث في تاريخ هذه الحقبة مراسلات رسمية عديدة بين الاباطرة البيزنطيين من ناحية والخلفاء العباسيين وامراء سورية ومصر من ناحية اخرى • كما ارسل قيسطنطين السابع كثيرا من السفارات الى سيف الدولة بحلب ، وقد ردد ذكرها ابو فراس والمتنبي (١٤٥) • ويكفي ان تتذكر تبادل الاسرى وما كان يصحبه من مفاوضات ومراسلات لندرك ان علاقات دبلوماسية واسعة قامت بين الدولتين • ويذكر لنا (الصابي) (١٤٦) ان ابا تغلب بن ناصر الدولة الحمداني هادى ملك الروم وقاد اليه الخيل الاصيلة والخمر والصلبان الذهب • كما يذكر مسكويه (١٤٧) ان (نقفور) هادى وهو يحاصر المصيصة ببغال ودواب وثياب رومية وصياغات ذهب فقابله سيف الدولة بهدايا اخرى • ولعل من اطرف الامثلة في هذا المجال ان سيف الدولة حين أسر قسطنطين

---

(١٤٣) بينز ، الامبراطورية الرومانية ص ٣٦٥ •
(١٤٤) RUNCIMAN , P. , 158
(١٤٥) كانار ص ٦٩
(١٤٦) رسائل الصابي ج١ ص ٨٩
(١٤٧) تجارب الامم ج٢ ص ٢٠٨

ابن الدمستق ومرض في الاسر كان يعني به شخصيا ولما توفي اعتنى بدفنه وعزى اباه رغم العداء بينهما (١٤٨) •

لقد تركت الحروب العربية ــ البيزنطية اثرا واضحا في الثقافةوخاصة في الاداب والفنون • فبالرغم من كثرة الحروب ، كان الاتصال الثقافي مستمرا وقد استعان بعض الخلفاء بعمال بيزنطيين لتزيين المساجد الاسلامية بالفسيفساء ، ودعا المأمون وغيره علماء بيزنطيين لزيارة بغداد (١٤٩) وهذا بمثابة ماندعى اليوم بالتبادل الثقافي •

وقد اثرت الحروب في الادب في كلا المجتمعين ، اذخلقت نماذج للبطولة تتصف بالاقدام والفروسية والكرم ، واصبحت بعض الشخصيات اسطورية• وفي القرن العاشر اصبح بلاط سيف الدولة في حلب مركزا لنشاط ادبي خصب حتى ليمكن ان يدعى عصر الحمدانيين «بالعصر الذهبي» ، ولم يقتصر شعراء العصر على معالجة اغراض الشعر التقليدية ، بل تخطوها الى نظم الملاحم في تمجيد بطولات المسلمين في الحرب • وقد غدت شخصية سيف الدولة مخلدة في شعر المعاصرين وبخاصة في شعر المتنبي • وتركت هذه الشخصية انطباعا قويا في اذهان المعاصرين البيزنطيين حتى اطلقوا على سيف الدولة لقب «الكافر الحمداني» ونحتوا له اسما بيزنطيا هو (اوبو خوداس CPOCHOUDAS) مما يدل على انه اصبح لديهم بطلا • من ابطال الاساطير (١٥٠) •

وفي الادب البيزنطي نشأت من هذه الحروب ملحمة شهيرة حول شخصية اكريتاس DIGENIS AKRITAS ، وهو شخص حقيقي كان مقتله

---

(١٤٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ج١ ص ١٢٣ــ١٢٤

(١٤٩) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ٣٧٩

(١٥٠) SCHLUMBERGER , P. 120

في الحرب ضد العرب سنة ٧٨٨م في اسية الصغرى ، منطلقا لنسج حكايات وملاحم واناشيد اسطورية غدت فيما بعد اغاني شعبية لها قيمة تاريخية في تصوير احداث الحرب العربية ــ البيزنطية تصويرا ادبيا جميلا . ان ملحمة اكريتاس او «الاغاني الاكريتية» مصدر غني لدراسة الصلات الثقافية بين العرب وبيزنطة (١٥١) . ومن هذه الملحمة وغيرها من ادبيات هذا العصر نجد أن الزواج المتبادل كان معروفا ، بل واستخدم كوسيلة سياسية (١٥٢) كما تشير الى ذلك ملحمة ديجنيس اكريتاس . على حين يقال ان يوحنا تسمسكيس كانت تربطه علاقة بسيدة مسلمة من مدينة ٢مد . بل ان المؤرخ ميخائيل سيروس يذكر بان الامبراطور نقفور الاول تجري في عروقه دماء عربية . ولابد ان هذا الامتزاج الثقافي والاجتماعي ادى الى تسرب كلمات من العربية الى اليونانية وبالعكس ، كما ادى الى تسرب الاساطير ، والحكايات . مثال ذلك ان شخصية عبدالله البطال الذي استشهد في آسية الصغرى في القرن الثامن الميلادي (١٥٣) اصبحت نموذجا بطوليا وما يزال قبره في احدى قرى جنوب (اسكي شهر) التركية. وقد ادت الدراسات الحديثة بالباحثين الى القول بان ملحمة البطال ذات ارتباط (بالف ليلة وليلة) وبشعر البطولة اليوناني في العصور الوسيطة (١٥٤)

---

(١٥١) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨٢-٣٢٣

(١٥٢) RUNCIMAN , P. 150 , P. . 2‹2 الترجمة العربية ص ٢١٦ و ٣٥٨

(١٥٣) جاء في الطبرى ج٢ ص ١٧١٦ عند الكلام على حوادث سنة ١٢٢هـ « وفيها قتل عبدالله البطال في جماعة من المسلمين بارض الروم» .

(١٥٤) راجع الفصل الذي كتبه فازلييف وهو الفصل الحادي عشر من كتاب BAYNES AND MOSS , BYZANTIUM . P. 308 -25

الفصل السادس

حروب سيف الدولة مع الروم

المرحلة الاولى ـ المرحلة الثانية ـ المرحلة الثالثة ـ المرحلة الرابعة

اخذ سيف الدولة على عاتقه مقارعة الروم بصورة منتظمة منذ استقر في حلب سنة ٣٣٣ (٩٤٤م) ، لكن علاقته الحربية بهم ترجع الى ابعد من هذا التاريخ في الواقع ، حين غزا بلادهم لاول مرة في سنة ٣٢٤ هـ . ونستطيع ان نقسم حروب سيف الدولة مع الروم الى اربع مراحل بالنسبة لخصائص معينة امتازت بها كل مرحلة سنذكرها في موضعها وهي :

١ ـ ٣٢٤ ـ ٣٣٢ (٩٣٨ ـ ٩٤٤ م)
٢ ـ ٣٣٣ ـ ٣٤٣ (٩٤٤ ـ ٩٥٤ م)
٣ ـ ٣٤٣ ـ ٣٤٨ ـ (٩٥٤ ـ ٩٥٩)
٤ ـ ٣٤٩ ـ ٣٥٦ (٩٦٠ ـ ٩٦٧ م)

المرحلة الاولى ٣٢٤ ـ ٣٣٢ (٩٣٨ـ٩٤٤ م)

لم يكن سيف الدولة في هذه المرحلة حاكما على حلب وسورية الشمالية ، بل كان يعمل تحت امرة اخيه ناصر الدولة في الجزيرة ، وقام بحروبه ضد الروم بالنيابة عنه .

كانت اولى غزوات سيف الدولة في سنة ٣٢٤ ولما يناهز الحادية والعشرين من عمره ، حين سار لصد الدمستق يوحنا كركواس John. Curcuas عن آمد وسميساط . غير ان سيف الدولة اخفق في مهمته ، ودخل القائد البيزنطي سميساط وأمن اهلها (١) .

وكان الروم في المدة الواقعة بين سنتي ٣١٤–٣١٩ (٩٢٧–٩٣١م) يجولون ويصولون على الحدود الاسلامية دون ان يصدهم احد ، فاخذوا ملطية عنوة واستباحوها ، واحتلوا سميساط وضربوا الناقوس في جامعها (٢) ثم عادوا اليها ، لولا ان ابعدهم عنها سعيد بن حمدان امير الجزيرة ألذي اشترط عليه المقتدر حين ولاه اياها حرب الروم واسترجاع ملطية منهم . واستطاع سعيد ان يدخل هذه المدينة فعلا ويوغل في بلاد الروم (٣) .

وقد رجحت كفة الروم في الفترة الثانية من حكم الامبراطور قسطنطين السابع (بورفيرو جينيتوس) ، اي حين استأثر الوصي رومانوس ليكابينوس بالسلطة (٩١٩–٩٤٤م = ٣٠٧–٣٣٣هـ) ، وذلك بفضل عاملين : اولهما : ضعف الخلافة العباسية بحيث استقلت الاطراف وقامت دويلات مستقلة في المشرق والمغرب ، وثانيهما : ظهور قواد بيزنطيين ممتازين اشهرهم يوحنا كركواس . ويعتبر عهد رومانوس ليكابينوس كبير الاهمية بالنسبة للسياسة البيزنطية في الشرق ، فبعد ثلاثة قرون من موقف الدفاع تحولت الامبراطورية الى موقف الهجوم واحرزت جملة انتصارات في ظل رومانوس هذا ، وتحررت ولايات الحدود نسبيا من ضغط الغزوات العربية. وخلال الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من حكم رومانوس لم يخترق العرب

---

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٢٥٨/٣

(٢) الحنبلي ، شذرات الذهب ٢٦٨/٢–٢٦٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ٧٣/٨

الجبهة سوى مرتين . وقد وفق رومانوس في اختيار كركواس قائدا عامــا للجبهة فهو «المع جندي انجبته الامبراطورية في مدى اجيال ، وقــد بث روحا جديدة في الجيوش الامبراطورية وقادها الى النصر .. كان كركواس اول واحد في سلسلة غزاة عظام ..» (٤) وقد اعتبر احــد المؤرخيــن (٥) كركواس بمثابة «تراجان اوبليزاريوس جديد ، وغازي الف مدينة .. وقد ادت مواهبه الى اشراق فجر جديد في الحدود الشرقية . فقد جاء بــروح جديد في السياسة الامبراطورية الشرقية وهي روح استعلاء وثقة» .

احرز كركواس نجاحا كبيرا فاستولى على ملطية في ١٩ مايــس سنة ٩٣٤م (٣٢٤هـ) بعون مليح الارمني MELIAS وقد اجلى اهلها واسس على الجهة المقابلة من الفرات شرق ملطية حصنا اسماه ROMANOPOLIS (٦) (نسبة الى رومانوس ليكابينوس) . وفي العقد الرابع احرز كركواس سلسلة انتصارات مهمة في ارمينية العربية (اي الخاضعة للحكم العربي) والجزيرة العليا . وفي ٩٤٢ـ٩٤٣م استولــى علــى ميافارقيــن ودارا ونصيبين (٧) .

في هذه الفترة ظهر سيف الدولة قائدا لامعا عظيما من قــواد الدولة العربية الاسلامية وكان حقا ندا لخصمه كركواس .

خرج سيف الدولة من حلب في ذي العقدة ٣٢٦ (٩٣٧م) فبلغ حصن دارم في منطقة هنزيط ، ووجه الحسن بن علي القواس في سرية الى الحصن التل ، ثم سار الى حصن زياد ففتحه واقام عليه سبعة ايام . وهنا التقــى به كركواس في مائتي الف فارغم سيف الدولة على التقهقر الى شميشاط

---

(٤) VASILIEV , P. 307 , RUNCIMAN . ROMANUS LECAPENUS , P. 146-150

(٥) VASILIEV نقلا عن RUNCIMAN , LECAPENUS PP. 69 , 135

(٦) GROUSSET , L,EMPIRE DU LEVANT . P. 112

(٧) CAM . MEDI . HISTORY , VOL . 4 , P. 143

وخيول الروم تسايره ، فنزل ضيعة تعرف بالمقدمية وتهيأ لحرب الروم لكنه تشاءم من اسم الضيعة . فلما كان يوم عيد النحر انتقل الى موضع آخر بين حصن سلام وزياد فتفاءل باسميهما ، واقبل الروم ، فجرت بينه وبين فرقة منهم موقعة هزم فيها الروم واسر سيف الدولة منهم سبعين بطريقا واستولى على سرير الدمستق وكرسيه (٨) . وقد ابلى مع سيف الدولة في القتال غلاماه « يماك » وعبدالاعلى بن مسلم . ومن الجدير بالذكر ان ابا المحاسن ينسب هذه الغزوة خطأ الى ناصر الدولة (٩) .

وفي سنة ٣٢٨ هـ/٩٣٩م خرج سيف الدولة من نصيبين غازيا فنزل منازكرد يريد مدينة قاليقلا ، وكان الروم قد بنوا حذاءها مدينة سموها هنجيج . فلما علم الروم بمسيره هدموا ما بنوه وهربوا ، وفي ذلك يقول ابوالعباس النامي :

ونادى الهدى مستصرخا فأجبته
بقاليقلا اذ انت بالخيل سهما
ولم تتشد هنجيج ايدى بناتها
ابدتهم تحت السنابك رغما
لئن حسنت عذراء والبحر خدرها
لقد وجدت فيه ثكولا وايما

غير ان سيف الدولة لم يفد شيئا من تقهقر الروم بسبب حلول الشتاء فأقام بارزن الروم حتى انحسر الثلج ، فخرج الى خلاط في ارمينية (١٠) وتوغل فيما وراءها حتى جاءه ملك ارمينية وخزران (وهي جورجيا) «وما

---

(٨) ابن ظافر ، ورقة ٢ب ـ ٢٣

(٩) النجوم ازاهرة ٢٦٣/٣

(١٠) ارمينية قسمان الداخلة والخارجة : وفي هذه مدن اسلامية كارجيش وخلاط ومنازجرد وقاليقلا ، والداخلة دبيد ونشوى وغيرهما.

وطىء بساط ملك قط » فأحسن اليه سيف الدولة وخلع عليه ، وتسلم منه حصونا ورده الى بلاده ، بعد ان اخذ عليه العهود والمواثيق وضمن طاعته ونصرته (١١) . والحق ان سنة ٣٢٨هـ كانت سنة موفقة لسيف الدولة ، توالت فيها انتصاراته ، فقد خرب مدينة موش ــ جنوب مراد صو رافد الفرات ــ وهدم كثيرا من حصون الروم وقلاعهم «ووطىء» مواطىء لم يطأها احد من المسلمين قبله (١٢) ، الى حد ان ملك الروم تملكه الغضب فكتب الى سيف الدولة منذرا متواعدا (١٣) فرد عليه هذا بان سار الى قلونية COLONEIA في آسية الصغرى فاحرق ارباضها واستولى على ما في ضياعها ، وكتب الى الدمستق ــ وهو رومانوس الوصي ــ كتابا من هناك ، ففزع الروم وسيروا جيشا لصده لاقى هزيمة منكرة (١٤) .

ويزودنا ابن الازرق (١٥) برواية اخرى عن غزوات سيف الدولة في سنة ٣٢٨ ، ملخصها ان الامير الحمداني سار من ميافارقين الى ارمينية ونزل

---

(١١) ابن ظافر ورقة ٣ب

(١٢) نفس المصدر والمكان .

(١٣) يقول ابن ظافر «ورقة ٣ب» : ورد اليه ــ اي سيف الدولة ــ كتاب ملك الروم فاجابه عنه جوابا شديدا وانفذه اليه ، فقال الملك لرسول سيف الدولة : يكاتبني هذه المكاتبة كانه قد نزل على قلونية استعظاما لذلك ، فاتصل قوله بسيف الدولة فعزم على قصد قلونية او يفتحها الله على يديه ، وكانه راى من بعض اصحابه استعظاما للامر فقال : لست اقلع عن قصد هذه المدينة ، فاما الشهادة واما الظفر .

(١٤) نفس المصدر ورقة ٣ب

(١٥) ج١ ص ١١١-١١٢

مليطوانة (١٦) على بحيرة وان ، واستدعى بابن جاجيق الديراني (١٧) واحمد بن عبدالرحمن ابي المعز صاحب خلاط ذات الجوز وارجيش وبركزي وعبد الحميد صاحب منزجرد ودشتة النورك والهرك ، واشوط بن جرجور (١٨) .

انشغل سيف الدولة بمشاكل الخلافة في عصر امرة الامراء وبالصراع مع الاخشيديين في سورية بين سنتي ٣٣٠-٣٣٣ هـ ، ومن ثم فنحن لا نجد نشاطا يذكر ضد الروم ، مما أتاح لهؤلاء ان يحرزوا عدة انتصارات على المسلمين الذين بددوا قواهم في النزاع الداخلي من اجل الاستحواذ على السلطة . وقد ادت هذه الظروف الى اقتراب الروم سنة ٣٣٠ (٩٤١ م) من حلب فنهبوا وخربوا وسبوا نحو خمسة عشر الف نسمة (١٩) .

وبينما كان الحمدانيون يحكمون بغداد ، اجتاح الروم ديار بكر سنة ٣٣١ فسبوا من اهلها الكثيرين ، واصبحوا على مقربة من نصيبين وطلبوا من اهل الرها ان يسلموا اليهم ايقونة مقدسة هي منديل اعتقدوا أن السيد المسيح مسح به وجهه فانطبعت عليه صورة وجهه ، مقابل اطلاق سراح اسرى المسلمين من اهل الرها . وقد سبب هذا الطلب كثيرا من الاخذ والرد في بغداد ، فأمر الخليفة المتقي ان يعقد مجلس على مستوى عال لمناقشة هذا الطلب ، حضره عدد من الشخصيات الرسمية والقضاة والفقهاء وكانت

---

(١٦) طاوان TADVAN على الشاطيء الغربي لبحيرة وان ؛ على مسافة ٢٠ كيلومترا جنوبي خلاط .

(١٧) GAGI الديراني ملك راسبوركا (توفي سنة ٩٤٣م) .

(١٨) وهو آشوت الثالث البغري BAGRATID «٩٥٢-٩٧٧م» وهو من حكام ارمينية العظام فقد بلغ عدد جيشه ثمانين الفا وقد تمتعت ارمينية في عهده بالسلم والهدوء . وكان حاكما عطوفا بنى الكثير من الكنائس والمستشفيات .

(١٩) ابن الاثير . الكامل ١٢٧/٨

وجهة نظر بعض الحاضرين أن هذا المنديل كان في كنيسة الرها منذ امد طويل وان تسليمه للروم ينطوي على اهانه كبيرة للسلام والمسلمين • غير ان علي بن عيسى — وهو وزير سابق — نصح بان فك اسر المسلمين واخراجهم «من دار الكفر» امر ملح ووجب ، خاصة وان الدولة ليست في وضع تستطيع معه ان تصد الروم (٢٠) • وهكذا سلم المنديل الى الروم مقابل اطلاق اسرى المسلمين من اهل الرها ، وعقدت هدنه • وحمل المنديل المقدس الى كنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية «ودخل اليها في اليوم الخامس من شهر آب وخرج اسطفان (٢١) البطريرك ثاوفيليفش اخوه وقسطنطين اولاد رومانوس الملك الى باب الذهب مستقبلين له ومشى اهل الدولة باجمعهم بين يديه بالشمع الكثير» وحمل الى الكنيسة العظمى ايا صوفيا ومنها الى البلاط (٢٢) •

انتهت المرحلة الاولى من علاقات الحمدانيين بالروم بانتصار هؤلاء وتوسع حدودهم ، حتى أن ارمينية خلعت طاعة المسلمين وانضم سكانها الى القوات البيزنطية • كما ان البيزنطيين اسروا فى حملة سنة ٣٣٠/٩٤١م خمسة عشر الف مسلم واحتلوا نصيبين • وقد ارتفع شأن كركواس فى اعين النصارى بسبب هذه الانتصارات ، وبخاصة حين استرجع منديل المسيح من مدينة الرها (٢٣) وفتح أرزن وملطية والرها ومرعش وآمد وسميساط (٢٤) • والحق ان انتصارات كركواس يمكن ان تفسر باتشغال

---

(٢٠) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ص ٩٨–٩٩

(٢١) ستافانوس

(٢٢) الانطاكي ص ٩٩

(٢٣) FINLAY , P. 287.

(٢٤) DIEHL , P. 78-79

الخلافة العباسية بمشاكلها الداخلية وبتحول اهتمام سيف الدولة عن الجبهة البيزنطية بسبب انهماكه في هذه المشكلة (٢٥) .

المرحله الثانيه ٣٣٢ – ٣٤٢ (٩٤٤ – ٩٥٤)

تبدأ هذه المرحلة في سنة ٩٤٤/٣٣٣م ، اي بعد ان استقر سيف الدولة بحلب . وقد دخلت علاقات الحمدانيين مع البيزنطيين في دور جديد ، ذلك ان سيف الدولة لما خرج منتصرا من حروب الاخشيديين ، وجه اهتمامه الكلي الى حرب الروم الذين أحرزوا عديدا من ألانتصارات على المسلمين كما اسلفنا .

بدأ سيف الدولة مشروعه الضخم في صد الروم في سنة ٣٣٣ هـ ، وكان الدمستق (اي كركواس) قد اوقع بمرعش وبغراس التي تبعد اربعة فراسخ عن انطاكية ، وقتل وسبى دون ان يجد اية مقاومة . فأسرع سيف الدولة نحو تلك المنطقة الجبلية الوعرة وضرب حول جيش الروم حصارا في الشعاب ، واستنقذ الاسرى والغنائم وهزم العدو . وبلغ سيف الدولةان مدينة للروم تهدم بعض سورها ، فاغتنم الفرصة وحاصرها وقتل وسبى ، لكنه فقد عددا من جنده (٢٦) .

ويلاحظ الباحث ان نشاط سيف الدولة كان فاترا بين سنتي ٣٣٤ و ٩٤٥/٣٣٦–٩٤٧م حتى اننا لا نجد ذكرا لحروبه . وكل ما قام به انه تبادل الاسرى مع البيزنطيين في ربيع الاول ٩٤٦/٣٣٥م ، وقد سمي هذا فداء سيف الدولة او «فداء ابن حمدان» ، وكان الوسيط نصر الثملي امير طرسوس . وبلغ عدد من فودي بهم من المسلمين الفين

---

(٢٥) VASILIEV , P. . 307

(٢٦) ابن العديم . زبدة الحلب ٩٩/١ . ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ٢٨٣/٣–٢٨٤ . الذهبي ورقة ١٦٠ أ

واربعمائة واثنين وثمانين من ذكر واثنى ، و «فضل للروم على المسلمين قرضا مائتان وثلاثون لكثرة من كان في ايديهم فوفاهم ابو الحسن ذلك وحمله اليهم» (٢٧) مما يدل على ان الروم كانوا متفوقين على المسلمين في الفترة السابقة . ولابد ان نشير هنا الى أن احوال الدولة البيزنطية تعرضت منذ سنة ٩٤٤ م الى تبدل جوهرى ، فقد ازيح كركواس عن منصب القيادة العامة للجيوش البيزنطية ووخلع رومانوس ليكابينوس ، واصبح قسطنطين السابع هو الحاكم المطلق بعد ان بلغ سن الرشد في سنة ٩٤٥ م (٢٨) .

وفي سنة ٣٣٦/٩٤٧ م اغار الروم على اطراف الشام فسبوا واسروا فتعقبهم سيف الدولة واسترد ما اخذوه . ثم نزل على حصن برزويه (٢٩) قرب السواحل الشامية وحاصره ، وكان فيه يومئذ ابو تغلب الكردى . غير ان القائد البيزنطي لاون بن برادس فوكاس Laon Bardas Phocas حاصر حصن الحدث فاستغاث اهله بالامير الحمداني الذي اقسم انه لن يرحل عن برزويه قبل ان يفتحه . وهكذا اتاح سيف الدولة لغريمه فرصة فتح الحدث صلحا وتدمير اسواره (٣٠) ، على حين ظل هو يحاصر برزويه حتى فتحه في السنة التالية (٣١) ، وسار الى ميافارقين مستخلفا بحلب محمد بن ناصر الدولة (٣٢) . وكان هذا النصر في الواقع هزيلا اذا

---

(٢٧) المسعودى . التنبيه والاشراف ص ١٦٥

(٢٨) Vasiliev , P. 307

(٢٩) يسمى اليوم Berze او Merze ، ويقع على مرتفع صخرى الى الشمال قليلا من افامية . انظر ياقوت ٥٦٥/١
Dussaud , P. 151-53

(٣٠) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ، النجوم الزاهرة ٢٩٥/٣

(٣١) نفس المصدر والمكان . ابن ظافر ورقة ٦ أ . زبدة الحلب ١٢٠/١

(٣٢) يحيى بن سعيد ص ١١٢

قيس بما احرزه الروم في هذا الوقت ، حين استولوا على مرعش • وفتكوا باهل طرسوس وهزموا سيف الدولة نفسه (٣٣) • ثم اعادوا الكرة في سنة ٣٣٨/٩٤٩م فهزموا محمد ابن ناصر الدولة نائب عمه بحلب في قرية بوقا شمالي انطاكية ، وقتلوا اربعمائة من جند المسلمين واسروا الكثيرين (٣٤) •

استفزت هذه الهزائم سيف الدولة فجهز جيشا من ثلاثين الفا والتحق به جيش طرسوس في اربعة الاف بقيادة القاضي ابي حصين ، فسار يوم الاحد منتصف ربيع الاول ٣٣٩/اغسطس ـ ايلول ٩٥٠م الى قيسارية (٣٥) ثم الى اقبدق (٣٦) واوغل في بلاد الروم وفتح عدة حصون وسبى وقتل • ثم سار سيف الدولة الى سمندو (٣٧) ثم الى خرشنة (٣٨) يقتل ويسبي الى ان وصل صارخة من مدن الروم وهي على مبعدة سبعة ايام من القسطنطينية فحاصرها ، ودارت بينه وبين الدمستق معركة انتصر فيها سيف الدولة واسر جماعة من بطارقة الجيش البيزنطي • وقد حالف التوفيق المسلمين في هذه الغزاة التي دامت بضعة اشهر فاسروا عددا كبيرا من الروم وغنموا كثيرا من الاموال • غير ان الطرسوسيين

---

(٣٣) مسكويه . تجارب الامم ٢/١٦٤ . النجوم الزاهرة ٣/٢٩٧

(٣٤) يحيى بن سعيد ص ١١٢ . زبدة الحلب ١/١٢٢

(٣٥) من مدن كبادوكيا وهي مدينة قديمة تقع جنوب نهر الهالس Halys وشمال جبل Argee « كنار . نخب تاريخية » ص ٨٧

(٣٦) وترد كذلك الفندق وهي من كبادوكيا (كنار ص ٨٧)

(٣٧) سمندو وهي المدينة الافريقية Tzamandos على مرتفع الكرمالاس « كنار ص ٨٧» .
حيث يقع زامانتي ـ صو رافد نهر ساروس او سيحان ، وهي قرب العزيزيه الحالية . وكانت تقع الى الشمال قليلا من طريق مرعش ـ قيسارية عبر عربسوس ، وهو الطريق الذي سلكه سيف الدولة (كنار ص ٨٧)

(٣٨) وهي المدينة البيزنطية Charsianum Castrum الى الشمال من نهر هاليس (كنار ص ٨٧)

تقفلوا راجعين كما رجع الأعراب • وحين اراد سيف الدولة العودة سد عليه الروم درب الكيكرون بناحية الحدث وهو الذى يدعى درب «مقطع الثقار» (٣٩) وحصروه في هذا المضيق االصعب وعزلوه عن مقدمة جيشه وقطعوا الشجر وسدوا به الطرق ، والقوا بالصخور الضخمة من قمم الجبال على الجند المسلمين ، في الوقت الذي كان الدمستق يضرب ساقة الجيش الحمداني بعنف ويقتل ويأسر • ووجد سيف الدولة نفسه في مأزق حرج فقتل الاربعمائة اسير من وجوه الروم الذين كانوا فى حوزته لئلا ينقلبوا الى قوة ضده وعقر جماله وكثيرا من دوابه وتخفف من احماله التى اتعبت خيله وابله • وقاتل سيف الدولة قتالا لاهوادة فيه واستبسل الى أقصى حدود الاستبسال • ولكى لايقع سيف الدولة اسيرا فى ايدى الروم وثب بفرسه من قمة جبل عال في واد سحيق ، فقيل انالفرس وقع قائما (٤٠) وهكذا نجا الامير الحمدانى باعجوبة تسلك فى عداد الاساطير • وقد قتل الروم واسروا جميع جند سيف الدولة تقريبا ، فعاد فى نفر يسير الى حلب ، لذلك يسمى الثغريون هذه الغزاة «غزاة المصيبة» (٤١) •

وقد ترك لنا ابو الطيب المتنبي وصفا لمراحل هذه الغزاة في ثلاث قصائد يتغنى في احداها بالانتصارات الاولى التي احرزها سيف الدولة حيث يقول : (٤٢) •

---

(٣٩) يحيى بن سعيد ١١٢ . الذهبى ورقة ١٦٣
(٤٠) زبدة الحب ١/١٢٢ . الذهبى ورقة ١٦٣
(٤١) يحيى بن سعيد ص ١١٢
(٤٢) شرح ديوان المتنبى «البرقوقى» ١/٣٥٩ — ٣٦٢

لهذا اليوم بعد غد اريج   ونار في العدو لها اجيج
رضينا والدمستق غير راض   بما حكم القواضب والوشيج
فان يقدم فقد زرنا سمندو   وان يحجم فموعدنا الخليج (٤٣)

ويمدنا ابو الطيب في قصيدته الاخرى «العينية» بتفاصيل طريفة عن احداث «غزاة المصيبة» هذه باعتباره شاهد عيان ، وان كنا لا نستطيع ان نركن كل الركن الى كل ما ورد فيها بسبب ان هدف القصيدة هي الدعاية والتغني ببطولة سيف الدولة . وقيمة هذه القصيدة ـ من الناحية التاريخية ـ انها تشير الى المواضع التي قصدها سيف الدولة ودارت فيها رحى هذه المعارك ، ولا بأس ان نورد بعض ابياتها ذات الدلالة (٤٤) :

---

(٤٣) يعني خليج القسطنطينية « في المصدر ص ٣٦٢ »

(٤٤) يقول شارح ديوان المتنبي «البرقوقي ٢/٣٢٩ ـ ٣٣٠» : مر سيف الدولة في هذه الغزوة بسمندو وعبر الس ـ وهو نهر عظيم على يوم من من طرسوس ـ ونزل على صارخة ، وهي مدينة هناك ، فاحرق ربضها وكنائسها وربض خرشنة وماحولها .. ثم عبر آلس راجعا . فلما امسى ترك السواد واكثر الجيش وسرى حتى جاز خرشنة وانتهى الى بطن لقان .. فلقى الدمستق في الوف من الخيل فانتشب القتال .. فانهزم الدمستق وقتل من فرسانه خلق كثير .. وعاد سيف الدولة الى عسكره وسواده حتى وصل الى عقبة ـ تعرف بمقطعة الانفار ـ فصادفه العدو على راسها ، فاخذ ساقة الناس بجميعهم .. واخذ عليه العدو عقبة المسير ـ وهي عقبة طويلة ـ فلم يقدر على صعودها لضيقها وكثرة العدو بها .. وجعل سيف الدولة يستنفر الناس فلم ينفر احد ، ومن نجا من العقبة نهارا لم يرجع ، ومن بقي تحتها لم تكن فيه نصرة ، وتخاذل الناس وكانوا قد ملوا السفر ، فامر سيف الدولة بقتل البطارقة وبقية الاسرى ، فكانوا مئات وانصرف . واجتاز ابو الطيب آخر الليل بجماعة من المسلمين بعضهم نيام بين القتلى من التعب ، وبعضهم يتركونهم فيجهزون على من تحرك منهم .

حتى اقام على ارباض خرشنــة   تشقى به الروم والصلبان والبيع

مخلى له المرج منصوبا بصارخة   له المنابر مشهودا بها الجمــع

تذرى اللقان غبارا في مناخرها   وفي حناجرها من الثن جــرع

قل للدمستق ان المسلمين لكم   خانوا الامير فجازاهم بما صنعوا

وجدتموهم نياما في دمائكــم   كأن قتلاكم اياهــم فجعــوا

ضعفى تعف الايادي عن مثالهم   من الاعادي وان هموا بهم نزعوا

لاتحسبوا من اسرتم كان ذا رمق   فليس يأكل الا الميــت الضبــع

كانت غزاة سنة ٣٣٩ فاجعة على المسلمين وخســارة كبيرة لسيف الدولة ، وخيبة امل في اماله العريضة وصدمة لكرامته واعتداده بنفسه . فقد انفسح المجال للبيزنطيين — بعد عودة سيف الدولة الى حلب — ليعيثوا في بلاد المسلمين ويأسروا ويسلبوا دون ان يصدهم احد . وفي هذه الاثناء طلب الدمستق الهدنة غير ان سيف الدولة رفض طلبــه (٤٥) وصمم على ان يغزو بلاد الروم ليثأر لنفسه . واستجمع سيف الدولـــة قواه وخرج الى بلاد الروم في صيف (جمادي الاولى) سنة ٣٤٠ (٩٥١م)

---

(٤٥) الذهبي ورقة ١٦٣

فاحرق القرى في منطقة عربسوس وعزم على التوغل داخل بلاد العدو حتى سمندو ، فتهيبت جنده من الاقدام حين علموا ان الروم حشدوا في هذا الموضع جيشا ضخما عدته اربعون الفا (٤٦) • ويبدو من شعر المتنبي وشرحه ان سيف الدولة كان متحمسا للتوغل في بلاد الروم غير ان جنده كان متهيبا (٤٧) •

وفي السنة التالية (٩٥٢/٣٤١) كلل الروم انتصاراتهم باحتلالهم مدينة سروج في الجزيرة (٤٨) في الوقت الذي كان سيف الدولة منهمكا في بناء مدينة مرعش (٤٩) التي خربها البيزنطيون منذ سنة

---

(٤٦) ابن ظافر ، ورقة ١٧

(٤٧) انشد المتنبي سيف الدولة :

وان كنت سيف الدولة العضب منهم
فدعنا نكن قبل الصواب القنا اللدنا

قال له سيف الدولة : قل لهؤلاء — واوما بيده الى من حوله من العرب والعجم — يقولون كما تقول حتى لانثني عن الجيش فما اجمل احدهم بكلام . والقصيدة :

نزور ديارا مانحب لها مغنى
ونسأل فيها غير ساكنها الاذنا

وقال ايضا يمدحه ويذكر هذه الغزاة ؛ وانه لم يتم قصد خرشنة بسبب الثلج وهجوم الشتاء :

عواذل ذات الخال في حواسد
وان ضجيع الخود مني لماجد

شرح ديوان المتنبي (مخطوطة في باريس رقم ٣٠٩١ ورقة ١١٢ — ١١٣ نقلا عن كنار : نخب تاريخية ص ٩٤ . انظر كذلك شرح ديوان (ديوان المتنبي (البرقوقي) ص١/٣٩٠ وما بعدها .

(٤٨) الذهبي . دول الاسلام ١٦٦/١

(٤٩) يقول ابن الشحنة (ص ١٩١–١٩٢)

اول الثغور الجزرية مما يلي جبل اللكام مرعش ... هي مدينة بالثغور بين الشام والبلاد الرومية احدثها الرشيد ولها سوران وفي وسطها حصن يسمى المرواني ... ثم اخربتها الروم سنة ٣٣٧ فبناها سيف سيف الدولة الحمداني في سنة ٣٤١ وجاء الدمستق ليمنع من بناها فقصده سيف الدولة فولى هاربا وتمم سيف الدولة عمارتها .

٣٣٧ (٩٤٩م) (٥٠) •

ونجد ان كفة الحمدانيين كانت راجحة على الروم بين سنتي ٣٤٢و٣٤٣/٩٥٣ـ٩٥٤م ، فقد توغل سيف الدولة في بلادهم واغار على زبطرة بين ملطية وسميساط والحدث ، غير ان الدمستق برداس فوكاس كمن له في جيش ضخم على درب موزار (٥١) قرب ملطية • واستطاع الامير الحمداني ان يستدرج عدوه الى ساحة ملائمة حيث دارت رحى معركة عنيفة تفوق فيها المسلمون وقتل فيها من الفريقين • ثم عبر سيف الدولة الفرات متجها نحو بطن هنزيط (٥٢) فدخل سميساط

---

(٥٠) ابن ظافر . ورقة ٧ ب . ويجدر بالذكر ان سيف الدولة عنى باعادة بناء الثغور المخربة ، فقد ارسل ابن عمه ابا فراس لبناء رعبان التي تقع بين حلب وسميساط قرب الفرات والتي تعد من العواصم . وهي قلعة تحت جبل خربتها الزلازل سنة ٣٤٠ ، فاعاد ابو فراس عمارتها في سبعة وثلاثين يوما .
(ياقوت . معجم البلدان ، ٧٩١/٢)

(٥١) يسمية يحى بن سعيد الانطاكي «درب مروان» ص ١١٣

(٥٢) هنزيط نهر يمتد حتى منابع دجلة . وبطن هنزيط السهل الذي حوله (ياقوت معجم البلدان ١٤٦/٣ و ١٦٨/٤ ، ٩٩٣ ـ ٩٤). ويسميه الانطاكي خطأ «هرطيط» ص ١١٣ .

لكنه تركها حين بلغه ان برداس فوكاس استغل غيبته فخرج الى اطراف الشام . وادرك سيف الدولة عدوه عند نهر جيحان فأحل به الهزيمة وقتل ابطريق لاون بن الملائين Malleinos ، واسر قسطنطين ابن الدمستق وحمله اسيرا الى حلب ، حيث ظل مريضا يعاني العلة . ومما يلفت النظر ان سيف الدولة برهن في هذا الموقف على فروسية نادرة ، فقد مرض الاسير بنفسه واعتنى به غاية العناية (٥٣) ولما توفى اعتنى بدفنه وامر النصارى فتولوا امره وكفن بكفن فاخر وجعل في تابوت في احدى الكنائس وكتب الى ابيه يعزيه (٥٤) . ويقول ابن العديم (٥٥) ان هذه الهزيمة هزت الدمستق برداس فاعتزل القيادة وترهب ولبس المسوح ، ولعله فعل ذلك حزنا على ولده . ولما دخل سيف الدولة حلب على اثر هذا الانتصار الباهر عقدت له القباب وزينت المدينة وتغنى الشعراء بالمجد الذي احرزه فقال المتنبي قصيدته المشهورة :

ليالي بعد الظاعنين شكول
طوال وليل العاشقين طويل

اتسلم للخطية ابنك هاربا
ويسكن في الدنيا اليك خليل (٥٦)

وقال النامي يصف اسر قسطنطين :

---

(٥٣) يقول ابن شداد (الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٩٢ب-١٩٣) ان سيف الدولة كان يخدم قسطنطين في مرضه وقد بذل ابوه فديه ثمانمائة الف (دينار) وثلثة آلاف اسير فاشتط سيف الدولة ، فسير الدمستق الى عطار نصراني بحلب وامره ان يسقي ولده سما ففعل ، ومات وعدت هذه من غلطات سيف الدولة .

(٥٤) يحيى بن سعيد ص ١١٣ .

(٥٥) زبدة الحلب ج١ ص ١٢٤

(٥٦) ديوان المتنبي ص ٢٩٣

واسلم قسطنطين للاسر فردس (٥٧)

وولى وقد خدته فوهاء في الخد (٥٨)

وبهذه الغزوة تنتهي المرحلة الثانية من حروب الحمدانيين مع الروم ، وكان النصر في بدايتها لهؤلاء ، لكنها انتهت بانتصار سيف الدولة .

المرحلة الثالثة ٣٤٣ – ٣٤٨ (٩٥٤ – ٩٥٩م)

بدأ سيف الدولة عملياته العسكرية في هذه المرحلة في ربيع الاول سنة ٣٤٣ (٩٥٤م) حين سار لبناء ثغر الحدث ، فقصده الدمستق بردس في جيش ضخم من الروم والروس والبلغار والارمن والصقالبة والترك والخزر (٥٩) وكان هذا الثغر قد استسلم للروم منذ سنة ٣٣٧ . وبينما كان سيف الدولة منهمكا في بنائه ، باغته برداس (٦٠) في خمسين الف فارس وراجل يحملون الصليب الاعظم فاحاطوا بمعسكر سيف الدولة ودارت حرب عنيفة انتهت بانتصار المسلمين ، وبرهن فيها سيف الدولة على شجاعة وجراة نادرتين ، فقد اخترق الصفوف طلبا للدمستق الذي ولى هاربا (٦١) . وعاد الامير الحمداني بطريق سمندو بعد ان بنى الحدث وفي ركابه كثير من الاسرى ، منهم صهر الدمستق ثيودس الاعور Theodose ، وابن

---

(٥٧) يعني بردس فوكاس .

(٥٨) وقال ابو فراس :

وآب بقسطنطين وهو مكبل   تحف بطاريق به وزرازر

وولى على الرسم الدمستق هاربا

وفي وجهه عذر من السيف عاذر

فدى نفسه بابن عليه كنفسه

وللشدة الصماء تقنى الذخائر

الثعالبي . اليتيمة ج١ ص ٢٢

(٥٩) الذهبي . تاريخ الاسلام ج١٦ ورقة ١٧٠ .

(٦٠) هذا ينفي رواية ابن العديم السابقة في ان بردس ترهب واعتزل الحرب (زبدة الحلب ج١ ص ١٢٤) .

(٦١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ج١ ص ٢٣

بنته وجماعة من البطارقة ، واختفى نقفور بن برداس في قناة خلال المعركة (٦٢) • واكثر الشعراء في التغني بهذه الوقعة فقال ابو الطيب المتنبي بذكر الحدث ويصف الجيش البيزنطي :

بناها علي والقنا تقرع القنا . وموج المنايا حولها متلاطم

وكيف ترجي الروم والروس هدمها . وذا الطعن اساس لها ودعائم

اتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد مالهن قوائم

تجمع فيه كل لسن وامة فما تفهم الحداث الا التراجم (٦٣)

غير ان بردس عاد سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م لاسترجاع الحدث فحاصره وحاول اختراق سوره ، لكنه انهزم حين قصده سيف الدولة دون ان تقع حرب بينهما (٦٤) •

ويبدو ان امراء الثغور البيزنطيين ضاقوا ذرعا بهذه الحرب التي عصفت بزرعهم وضرعهم ، فارسلوا وفدا الى سيف الدولة يمثل طرسوس وادنة والمصيصة ومعهم رسول ملك الروم يطلبون الهدنة (٦٥) •

وفي السنة التالية غزا سيف الدولة بطن هنزيط ونزل بشاطىء نهر

---

(٦٢) ابن الاثير . الكامل ج٨ ص ٢٠١ . ابن العديم . زبدة الحلب ج١

(٦٣) ديوان المتنبي ص ٣١٩ ــ ٣٢٤

(٦٤) الانطاكي . تاريخ ص ١١٣

(٦٥) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ٨ ب

ارسناس وهو الفرع الجنوبي للفرات وعبره (٦٦) ، وباغـت يانـس بـن الشمشقيق Tzimiskes في ثغر تل بطريق فهزمه وفتح هذا الثغر . لكن الروم سدوا عليه درب الخياطين اثناء عودته فجرت موقعة اخـرى هزمهم فيها ايضا (٦٧) • غير ان الروم احرزوا بدورهم انتصارا على أبـي العشائر ابن عم سيف الدولة بينما كان يبني حصـن عرمـدا (٦٨) بـل ان لاون بن الدمستق اسـره وحمله الى القسطنطينية حيث توفـي فـي الاسـر (٦٩) •

وفي جمادي الاخرة من تلك السنة (٣٤٥هـ/٩٥٦م) غزا سيف الدولة مع اهل الثغور وانفذ بسرية الى سمـندو حيث كـان القائـد البيزنطي سطراتيغوسا Balentes (٧٠) فاسره المسلمون ، ثـم قصد سيف الدولة حصن زياد فحاصره ، غير انه تركه ليصـد الدمستق الذي قصد الشام نفسها (٧١) •

وفي هذه الغارات خرب سيف الدولة كثيـرا من مواضـع الروم كخرشنة وصارخة واسر ابن بلنطس ولاون بن الاسطراطيغوسى وابن غزال بطريق مقدونية ، ولما عاد من غزوته فك قيود الاسرى وخلع عليهم واحسن

---

(٦٦) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٢٥ . يحيى بن سعيد ص١١٤
(٦٧) الانطاكى . تاريخ الانطاكى ص ١١٤
(٦٨) يسميه ابن العديم (زبدة الحلب ج١ ص ١٢٦ عرنداس
(٦٩) الانطاكى . تاريخ الانطاكى ص ٧٧٣ . ابن العـديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٢٦
(٧٠) اخطـا الانطاكـى فجعل اللقب اسـما لان الـ Strategus اى قائد اللواء الثغرى هو لقب كما اسلفنا «يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١١٤» .
(٧١) الانطاكى . تاريخ الانطاكى ص ١١٤ .

اليهم (٧٢) ، وكان من اثر هذه الانتصارات ان دخل امير طرسوس البيزنطي في طاعة الحمدانيين . وما كادسيف الدولة يستقر فيحلب حتى رد البيزنطيون بغارة على ميافارقين فاحرقوا قراها ونهبوها وسبوا اهلها وعادوا الى معسكراتهم (٧٣) .

وفي سنة ٣٤٦ حاصر الدمستق حصن الحدث الذي ظلت تتنازعه ايدي الفريقين ففتحه صلحا وامن اهله ورحلهم الى حلب ثم هدمه كيلا يتخذه المسلمون مركزا للهجوم على بلاده ، وهذه الظاهرة — تخريب الحصون — كانت اسلوبا حربيا لجأ اليه كلا الفريقين حتى غدت تلك الاقاليم على مر الايام خرابا خاليا من العمارة والسكن . واستمر الروم في توغلهم حتى بلغوا آمد وعسكروا على مقربة منها . ويبدو ان قوتهم كانت عظيمة حتى انهم ابادوا جيشا حمدانيا من عشرة آلاف رجل حاول صدهم وغنموا اسلحته فعاد قائده نجا الى حلب في حالة يرثى لها (٧٤) . وتوالت انتصارات الروم ، فاستطاع بسيل الباراكموميس Basil Parakoemomenes (٧٥) ويانس متعاوليس ان يفتحا سنة ٣٤٧ سميساط في اقل من يوم وينتصرا في موقعة اخرى جرت عند قلعة رعبان قرب الفرات على سيف الدولة ويأسرا كثيرا من جنده بحيث ادخلا الى القسطنطينية في موكبهما الفا وسبعمائة من أسرى المسلمين (٧٦) . ومن الممكن ان نقول ان هذه المرحلة من مراحل حروب سيف الدولة بدأت بتفوقه وانتهت بانتصار الروم وبخاصة في سنتي

---

(٧٢) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٢٧

(٧٣) ابن الاثير . الكامل ج٨ ص ٢٠٥

(٧٤) الانطاكي . تاريخ الانطاكي ص ١١٤ — ١١٥

(٧٥) الباراكوموينوس وظيفة عالية من وظائف البيزنطيين الادارية العسكرية كما اسلفنا .

(٧٦) الانطاكي ، تاريخ الانطاكي ص ١١٥

٣٤٧ و ٣٤٨ (٩٥٧و٩٥٨م) • وفي نهاية هذه المرحلة انتهى حكم قسطنطين بن لاون امبراطور البيزنطيين وخلفه رومانوس الثاني •

المرحلة الرابعة (٣٤٩ - ٣٥٦/٩٦٠ - ٩٦٧ م) :

امتاز عهد الامبراطور رومانوس الثاني ، الذي يكون الفترة الاخيرة من حروب سيف الدولة مع الروم بتفوقهم على المسلمين بفضل عبقرية الدمستق نقفور فوكاس الذى قدر له ان يصبح امبراطورا فى المستقبل• وكان نقفور قائدا ممتازا حاز انتصارات باهرة على الحمدانيين ،واستطاع أن يقف امام سيف الدولة ندا كفوءا • وهو عميد اسرة نبيلة من اصحاب الاراضي في آسية الصغرى • وكان جده ووالده قائدين ممتازين لكنه فاقهما براعة وشجاعة • ولم يكن نقفور جنديا فحسب ، بل كان كاتبا عسكريا الف كتابا فذا عن تنظيم الجيوش والفن الحربى مازال موجودا الى اليوم (٧٧) وقد وجد الامبراطور في هذا القائد خير عون له على تنفيذ خططه التوسعية في الغرب والشرق (٧٨) •

ولى رومانوس نقفور دمستقا اى قائدا عاما على حرب المغرب واخاه ليون دمستقا على حرب المشرق • فسار لاون Laon او ليون Leon الى طرسوس حيث سبى وقتل وفتح حصن الهارونية في اول شوال سنة ٣٤٨/٩٥٩م (٧٩) ثم قصد لاون ديار بكر فلقيه سيف الدولة ، فغادرها القائد البيزنطى الى الشام وهو يقتل فى طريقه

---

(٧٧) Oman , Byzantine Empire ' P. 228

(٧٨) نفس المصدر والمكان .

(٧٩) يحيى بن سعيد الانطاكي من ١١٦ . ابن العديم . زبدة الحلب ١/١٢٩

كل من وقع بيده ويهدم الحصون والقلاع • ثم تـوج غزوتـه بأسـره محمد بن ناصر الدولة الحمداني (٨٠) وكان تأثير هذه الهزيمة كبيرا على المسلمين ، حتى انهم اعلنوا الجهاد ، وركب كافور الى دار الصناعة ايذانا ببدء الحرب ضد البيزنطيين (٨١) •

واستفزت هذه الهزيمة سيف الدولة فخرج نغزو الروم فى السنة التالية (٣٤٩/٩٦٠ م) فى ثلاثين الفا فسبى وغنم واحرق وفتح عدة حصون ووصل الى خرشنة • ولكنه حين عاد من درب «مغارة الكحل» وجد ان الروم قد سدوه عليه • ويقول ابن الاثير (٨٢) ان الطرسوسيين نصحوا سيف الدولة انلايعود من هذا الدرب وان يعود معهم «فلم يقبل منهم ، وكان معجبا برأيه يحب ان يستبد ولا يشاور احدا لئلا يقال انه اصاب برأي غيره » • وفي الموقعة التي دارت بين سيف الدولة ولاون يوم الخميس منتصف رمضان حلت الهزيمة بسيف الدولة واسترد الروم الاسرى والغنائم واستولوا على خزائنه واسلحته ودوابه وعاد في ثلثمائة من جنده فحسب (٨٣) • اما في الغرب فقد استطاع نقفور استرداد جزيرة كريت من المسلمين في العام نفسه وخرب مساجدها فرد المسلمون في مصر على هذا العمل بتخريب الكنائس (٨٤) • وبفضل هذا النصر ، نقل الامبراطور رومانوس نقفور الى قيادة جيش المشرق (٨٥)

---

(٨٠) الانطاكي ص ١١٦
(٨١) نفس المصدر والمكان •
(٨٢) الكامل ١٧٥/٧
(٨٣) زبدة الحلب ١٣٠/١ وترد «مغارة الكحل» باسم مغارة الكحل خطأ في طبعة الاباء اليسوعيين لتاريخ الانطاكي (ص١١٧)
(٨٤) يحيى بن سعيد الانطاكي ص ١١٧
(٨٥) نفس المصدر ص ١١٨

وبذلك دخلت الحرب في مرحلة جديدة ، ذلك ان نقفور كان ندا كفـــوءا لسيف الدولة شجاعة وجرأة ، مما جعل شلمبرجر يوازن بين الشخصيتين في كتابه عن «نقفور فوكاس» (٨٦) حتى جعل كلا الخصمين صنوين فـــي القراع والنزال . وقد عبر شلمبرجر عن شـــدة بغض البيزنطيين لسيف الدولة فقال انهم أطلقوا عليه مختلف النعوت فسموه «الكافر الحمدانـــي» ونحتوا له اسما هـــو Opochoudas (٨٧) . ولا عجب في ذلك قد وجدوا ان سيف الدولة خصم عظيم الهمة اوقف جل جهوده على غـــزو بلادهم فكان في اذهانهـــم بطلا من ابطال الاساطير .

وفي السنة (٣٤٩هـ) ارسل سيف الدولة غلامـــه نجـــا فـــي جيشـــس ضخم فحاصر حصن ذي القرنين الواقع في اقصى الحدود الشرقية مـــــع الروم . فأرسل البيزنطيون لفك الحصار جيشا يقوده ميخائيل بطريـــــق بطن هنزيط وامير ارمني يدعى ترنيـــق . وعلى الرغم من ان جيشـــس البيزنطيين بلغ عشرة امثال جيش المسلمين كما قيل ، فان نجا احرز عليـــه نصرا مؤزرا فاباد اغلبه واسر عددا من قواده بينهم ترنيـــق تفســـه . (٨٨) وعاد نجا في السنة التالية (٣٥٠/٩٦١ م) الى بطن هنزيط فلقيـــه عبداللـــه الملطي (٨٩) في جيش بيزنطي ، لكن نجا قتل عددا من جند العدو واســـر ستمائة منهم واستحوذ على مائتي فرس . ثم سار الى بلد ابن مسلمـــة (٩٠)

---

(٨٦) Un Empereur Byzantin Au Dixiems Siecle : Nicephorus Phocas

(٨٧) Un Empereur Byzantin , P. 120

(٨٨) ابن ظافر ورقة ٨ ب ـ ٩ أ

(٨٩) عبدالله الملطي من ذرية امير ملطية عمر بن عبدالله الملطي ، وكان افراد هذه الاسرة موالين للروم (كنار . نخب تاريخية ص ١٣٧) .

(٩٠) باسم امير عربي كمت اسرته منطقة خلاط وارجيش وبركي . وقد مر نجا من هذه المنطقة في طريقه الى قاليقلا (كنار ، نخب تاريخية ص ١٣٧) .

فسبى وقتل • غير ان الروم سدوا عليه درب العودة ، فقتل نجا من معـــه من الاسرى وقاتل على الدرب حتى ملكه وخرج من المعمعة سالما • ثـــم سار الى قاليقلا (كيليكيا) فاسر خمسمائة فارس واستولى على عدد كبيـــر من الابقار والاغنام بحيث عجز المسلمون عن سوقها لكثرتها (٩١) •

وقد يتساءل القارىء عن سبب قعود سيف الدولة عن الجهاد خـــلال سنة ٣٤٩ هـ والاكتفاء بارسال جيوشه تحت قيادة غلامه نجا •والحق ان الامير الحمداني كان مشغول البال بما كان يجري في اجزاء الدولـة الحمدانية بالجزيرة واحتلال معز الدولة البويهي الموصل ، ممـا حـــدا بسيف الدولة الى التدخل لاصلاح ذات البين بين اخيه ناصر الدولة وبين الاميـر البويهـي •

بدأ نقفور عملياته الحربية في آسية الصغرى بأن ســار عبر ممرات طوروس الوسطى فأحتل جبل امانوس وحاصر عين زربه Anazarbbus فتصدى رشيق النسيمي حاكم طرسوس لحربه الا انه مني بخسارة كبيـــرة في جيشه حيث هزم الطرسوسيون وفقدوا خمسة الاف قتيل ونحو اربعـه آلاف اسـير •

وعاد نقفور الى عين زربة في ذي القعدة سنة ٣٥٠/كانون الاول ـ كانون الثاني ٩٦١م ففتحها صلحا وهدم اسوارها • فانتقـل كثيـر مـــن اهلها الى طرسوس (٩٢) وقد استخدم نقفور فـي هـذه المعـارك جيشـا ضخما بلغ على ما قيل مائة وستين الفا واستعمـل الدبابات فـي نقـــب

---

(٩١) ابن ظافر ، ورقة ١٩

(٩٢) يحيى بن سعيد الانطاكي ص ١١٨ . يضيف الانطاكي ان سيف الدولة عاد وبنى سورها ورد اليها اهلها .

الأسوار (٩٣) ويجب ان نلاحظ هنا بان الارقام التي يوردها المؤرخون لتقدير عدد الجيوش الاسلامية والبيزنطية والاسرى والقتلى من الفريقين معرضة للشك ولايمكن للباحث ان يقبلها على علاتها ، الا اننا لو حاولنا استقصائها لظهر لنا انها قد تزيد على عدد سكان تلك الاقاليم جميعا • ومع ذلك فقد اشاد شلمبرجر بضخامة جيش نقفور وحسن تنظيمه وتدريبه وحماسته في حرب المسلمين بسبب الشعور الديني وهبات الامبراطور (٩٤) • وقد وصف مسكويه احتلال الروم عين زربة المدينة الحصينة الواقعة على سفح جبل فذكر (٩٥) ان نقفور ارسل فرقة من الفرسان احتلت الجبل المطل على المدينة ، على حين رابط هو بجيشه على بابها واخذت فرقه الهندسيه تنقب سورها • وحين رأى السكان ضخامة الجيش البيزنطي وكثرةدباباته وقيامه بنقب السور طلبوا الامان فأمنهم وفتحوا له باب المدينة فدخلها • لكن نقفور ندم على منحه الامان لانه رأى فرقته التي احتلت الجبل قد سبقته الى دخول المدينة • «فنادى في البلد من اول الليل بان يخرج جميع اهله الى المسجد الجامع وان من تأخر في منزله قتل • فخرج من امكنه الخروج ، فلما اصبح انفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين الف رجل ، وكل من وجدوه في منزله قتلوه • فقتلوا عالما من الرجال والنساء والصبيان والاطفال • وامر بجميع مافي البلد من السلاح فجمع منه امر عظيم وكان في جملته اربعون الف رمح وقطع مافي البلد من النخل ، فقطع نحو خمسين الف نخلة • ونادي فيمن حصلوا في المسجد الجامع من الناس بان يخرجوا عن البلد الى حيث شاءوا وان من امسى ولم يخرج قتل • فخرج الناس مبادرين

---

(٩٣) ابن الاثير ، الكامل ٢١٢/٨

(٩٤) Un Empereur Byzantin , P. 118

(٩٥) تجارب الامم ١٩٠/٢–١٩١

وتزاحموا فى الأبواب فمات بالضغط جماعة من الرجال والنساء والصبيان ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يدرون الى اين يتوجهون • فماتوا في الطرقات ، ومن وجد فى المدينة آخر النهار قتل واخذ كل ماخلفه الناس من امتعتهم واموالهم وهدم السوران اللذان على المدينة وهدمت المنازل» • ان هذا النص الزاهي يصور حقا بشجاعة المجزرة التي حلت باهل عين زربة على يد نقفور ، ولعله اراد اثر تعيينه قائدا عاما لجيوش المشرق أن يبرهن لمواطنيه انه ليس اهلا لهذا المنصب فحسب ، بل وانه الصليبى المتعصب المندفع فى حرب المسلمين ، بل وانه امبراطور المستقبل •

وظل القائد البيزنطى حول هذه المدينة البائسة واحدا وعشرين يوما فتح خلالها اربعة وخمسين حصنا عنوة وصلحا (٩٦) وارتكب جنوده كثيرا من الاعمال البشعة فقد كان « فى بعض الحصون التى فتحت بالامان حصن امر اهله بالخروج منه فخرجوا فتعرض بعض الارمن النساء اللواتى خرجن منه فلحق رجالهن غيرة عليهن فجردوا سيوفهم • فاغتاظ الدمستق منهم وامر بقتل الجميع ، وكانوا اربعمائة رجل • وقتل النساء والصبيان ولم يترك الا جارية حدثة ومن يصلح ان يسترق» (٩٧) وقرر نقفور العودة بسبب الصوم على ان يعود بعد الفطر على حد قول مسكويه (٩٨)• واظن ان عودة نقفور كانت بسبب قرب اعياد الميلاد ورأس السنة الجديدة ، لان حملته هذه ـ كما اسلفنا ـ صادفت في نهاية كانون الاول وبدايات كانون الثاني • ونستطيع ان نضيف الى هذا السبب حلول موسم هطول الثلج واشتداد البرد في جبهة جبال طوروس •

---

(٩٦) تجارب الامم ٢/١٩١

(٩٧) نفس المصدر والمكان .

(٩٨) نفس المصدر والمكان .

في هذا الوقت الحرج بالذات خرجت طرسوس ـ وهي قاعدة الجهاد ـ عن طاعة سيف الدولة ، وقطع حاكمها ابن الزيات الخطبة له مستغلا سوء الاحوال. لكن اهل طرسوس انتهزوا فرصة اخفاق حاكمهم المتمرد في حرب الروم . فراسلوا سيف الدولة واعادوا الخطبة له وكأنهم ارادوا ان يعبروا عن اعجابهم به وان يطلبوا عونه في قيادتهم ضد الروم .وحين علم ابن الزيات بهذا الموقف «خرج الى روشن داره وكانت داره على شاطىءنهر ، فرمى بنفسه من داره الى النهر فغرقها (٩٩) » .

وفي صيف سنة ٩٦٢/٣٥١ م عاد نقفور نفسح دلوك ورعبان ومرعش (١٠٠) . وظهر سيف الدولة في هذا الوقت فعالا ونشيطا فقام في جمادى الاخرة (تموز ـ آب) باعادة بناء عين زربة ، وارسل جيشا من اهل طرسوس الذين اعلنوا ولاءهم له بقيادة حاجبه الى بلاد الروم فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا (١٠١) ، ورد الروم على هذه الغارة بالاستيلاء على حصن سيسيه (١٠٢) . وسار نجا غلام سيف الدولة الى حصن زياد واوقع هزيمة بجيش بيزنطي واستأمن اليه خمسمائة من الروم (١٠٣) . واذا رجعنا الى خطب ابن نباتة نجده يخصص خطبة كاملة يذكر فيها «وقعة نجا فتى سيف الدولة رحمه الله بالروم على باب حصن زياد وظفره بهم بعد خمسين حملة كانت بينهم في يوم السبت لست بقين من شعبان سنة

---

(٩٩) مسكويه ٢/١٩٠–٩١

(١٠٠) يجعل يحيى بن سعيد (ص ١١٨) تاريخ هذه الحملة في ربيع الاول وهو يصادف بدايات صيف سنة ٩٦٢ م .

(١٠١) ابن الاثير ١٧٩/٧–١٨٠ ـ يحي بن سعيد ص ١١٨

(١٠٢) ويسمى أيضا سيس ويقع الى الشمال الغربي من عين زربة فرب احد فروع جيحان انظر ياقوت ٢١٧/٣

(١٠٣) ابن الاثير ١٧٩/٨ ـ ١٨٠

أحدى وخمسين وثلثمائة» (١٠٤) مما يدل على اهمية هذه الموقعة من الناحية المعنوية . واهمية هذه الخطبة ـ بالاضافة الى توقتيها الدقيق لتاريخ المعركة ـ انها تقدم بعض الوصف التفصيلي لهزيمة الروم ، ذلك انه يشير الى إن أبا الفوارس نجا استطاع ان يشتت الاعداء ويبددهم ، فمن لم يمت منهم لجأ الى الحصون .

وحقق نقفور انتصارا مهما ومزدوجا فقد استطاع في شوال سنة ٣٥١/٩٦٢ م ان يغير على منبج (١٠٥) ويأسر اميرها الشاعر ابا فراس الحمداني وان يحمله الى القسطنطينية (١٠٦) حيث ظل في الاسر اربع سنوات حتى فداه سيف الدولة كما سنرى . وبذلك تخلصت الدولة البيزنطية من قائد باسل وسند قوي لسيف الدولة وقف الى جانبه في حروبه وساهم في قيادة الجيوش وخوض غمار الوغى على الجبهة البيزنطية .

وفي ذي القعدة ٣٥١ (كانون الاول ٩٦٢م)قصد نقفور ويانس حلب نفسها بصحبة ابن اخت الامبراطور ، في جيش عرمرم قيل انه بلغ مائتي الف فارس وثلاثين الف راجل بالدروع يرافقهم ثلاثون الف عامل للهدم وازاحة الثلج واربعة آلاف بغل تحمل حسك الحديد ليطرح حول معسكرهم ليلا .(١٠٧) .

ولم يشعر سيف الدولة بهذه الحملة الخطيرة التي يبدو انها احيطت بالكتمان ، بل لقد فوجىء بها في وقت متأخر فخرج في اربعة آلاف

---

(١٠٤) خطب ابن نباته ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .
(١٠٥) سماها البيزنطيون Bambyce وسميت كذلك باليونانية Hierapolis
(١٠٦) يحيى بن سعيد ص ١١٨
(١٠٧) ابن العديم . زبدة الحلب ١/١٣٣ . مسكويه . تجارب الامم

فارس وراجل الى عزاز (على بعد ٤٥ كيلو متراً شمالي حلب) • غير أنه حين علم بضخامة جيش الروم عاد الى حلب وخيم بظاهرها ، ثم جاءته الاخبار ان البيزنطيين مالوا نحو العمق قرب انطاكية ، (١٠٨) فجهز غلامه نجا في ثلاثة آلاف لملاقاة الروم ، لكنه لم يطمئن الى هذا الاجراء فسار بعد الظهر بنفسه ، واعلن ان «من لحق بالامير فله دينار» (١٠٩) • وكان الروم يتقدمون نحو حلب ، فعاد سيف الدولة ونزل على نهر قويق ، وفي اليوم الثاني تحول فنزل على باب اليهود ــ وهو الباب الشمالي ــ من ابواب حلب ــ وخاطب ابناء حلب قائلا : «عساكر الروم تصل اليوم وعسكري قد خالفها ، والصواب ان تغلقوا ابواب المدينة وتحفظوها وأمضي أنا التقي عسكري واعود اليكم واكون من ظاهر البلد وانتم من باطنه ، فلا يكون دون الظفر بالروم شيء • فأبى عامة الحلبيين وقالوا : «لا تحرمنا ايها الامير الجهاد • وقد كان فينا من يعجز عن المسير الى بلد الروم للغزو وقد قربت المسافة» • فلما رأى اصرارهم قال لهم : «انهضوا فاني معكم» (١١٠)، ووزع عليهم الاسلحة (١١١) •

عسكر سيف الدولة في جبل بانتوسا شمالي حلب واناخ الروم في حي الهزارة شمالي غربي المدينة (١١٢) ، ثم امتد الجيش البيزنطي على نهر قويق واحاطوا بسيف الدولة فحمل عليهم ، لكنه لم يستطع الصمود

---

(١٠٨) انظر فصل جغرافية الشام . والعمق هو غور بحيرة انطاكية (ياقوت ٣/٧٣٧)

(١٠٩) ابن ظافر ورقة ١١ أ

(١١٠) ابن العديم . زبدة الحلب ١/١٣٤

(١١١) ابن ظافر . ورقة ١١ أ

(١١٢) يقدر ابن ظافر (ورقة ١١ أ) عدد فرسان الروم بثمانين الف فارس

بجيشه القليل العدد فانسحب نحو بالس ، بعد معركة قصيرة قتل فيها كثير من جنده وفيهم عدد من افراد الاسرة الحمدانية نفسها (١١٣) • وقتل كذلك ابو محمد الفياضي كاتب سيف الدولة ، وكان اللواء قد انعقد له (١١٤) • ومات في باب المدينة الشمالي المعروف بباب اليهود (وهو باب النصر اليوم) اناس كثيرون بسبب الزحام ، وفر سيف الدولة على فرسه متجها نحو بالس والروم في اثره (١١٥) • وبغياب سيف الدولة عن ميدان القتال انخذل العامة ولاذوا بالهرب فاعمل فيهم الروم السيف •

وهكذا اتيح لنقفور ان يقف موقف الفاتح على ابواب حلب يوم السبت الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٣٥١ • وكان اول مافعله انه اقتحم دار سيف الدولة في ظاهر حلب وتسمى «قصر الحلبة» فخربها واستولى على ما فيها من الاموال وخزائن السلاح والامتعة والدواب ثم احرقها وامتلك الربض الذي حولها (١١٦) •

اقام البيزنطيون خارج حلب اربعة ايام محاصرين لها ثم تقدم منتصر

---

(١١٣) مسكويه . تجارب الامم ١٩٢/٢ . يقول ابن الاثير (٣٠٢/٧) انه لم يبق من اولاد داود بن حمدان احد فقد قتلوا جمعهم ويعدد ابن ظافر قتلى الاسرة الحمدانية وهم ابو طالب بن داود بن حمدان وابنه وداود بن علي (ورقة ١١ أ)

(١١٤) زبدة الحلب ١٣٤/١

(١١٥) ابن ظافر ورقة ١١ أ . اما ابن العديم فيقول انه فر مشرقا الى قنسرين (زبدة الحلب ١٣٥/١) .

(١١٦) مسكويه ١٩٢/٢ . يقدر مسكويه الاموال التي وجدها نقفور في قصر الحلبة بثلاثمائة وتسعين بدرة في حين يقدرها ابن الاثير بثلاثمائة بدرة ويستطرد ابن الاثير (٣٠٢/٧) بان الروم استولوا على الف واربعمائة بغل وعلى كميات كبيرة من الاسلحة . ويضيف ابن ظافر (ورقة ١٠ أ ـ ب) ان الروم استولوا على ثلثمائة حمل من البز والديباج وخمسين حملا من اواني الذهب والفضة وثمانمائة راس من الخيل ومائة حمل من السلاح والمناطق والتجافيف والسيوف ونقل معه سقوفها .

حاجب الدمستق الى السور وخاطب اهل حلب قائلا : «اخرجوا الينـــا شيخين تعتمدون عليهما فخرج شيخان الى نقفور فقربهما اليه وقـال : انـي احببت ان احقن دمائكم فتخيروا اما ان تستروا البلد أو تخرجوا عنـه باهلكم» فاستأذنا في مشاورة الناس ، وفي اليوم الثاني تقـدم الحاجب نحو السور وطلب من اهل حلب ان يبعثوا بعشرة منهم ليعاموا نقفور بمـا اتفق عليه اهلها .

فخرج عشرة اشخاص افضوا الى نقفور برغبة اهل حلب في طلـب الامان ودخول الروم المدينة . غير ان نقفور شك في نوايا اهـل حلب فخاطب الوفد قائلا : بلغني أنكم قد اقحمتم مقاتلتكم في الازقة مختفيـن ، فاذا خرج الحرم والصبيان ودخل اصحابي للنهب اغتالوهم فقالوا : ليس في البلد من يقاتل قال : «فاحلفوا» فحلفوا له (١١٧) . ثم طلب من هـؤلاء الشيوخ ان يحملوا اليه مالا ويسلموا اليه ثلاثةالاف صبي وصبية ويمكنوا جيشه من الدخول من باب والخروج من باب اخر والانصراف عنهـم مع قدرته عليهم . والحق ان نقفور كان يحتال على اهل حلب وكان يعـد العدة لاقتحام المدينة عنوة على الرغم من تظاهره بمفاوضة اهلها ومنحـه اياهم الامان وقد صح عزمه على احتلال المدينة حين تأكد لديه عدم وجود سيف الدولة فيها (١١٨) .

صمم الروم على فتح المدينة عنوة فضيقوا عليها الحصار ، ثم احدثوا ثلمة في السور عند باب قنسرين ، لكن اهل حلب رشقوهـم بالحجارة وحالوا بينهم وبين الدخول ، واجتمع المسلمون فسدوا هذه الثلمة فـي

---

(١١٧) تاريخ علي بن محمد الشمشاطي «واقعة حلب» (نقلا عـن مسكويـه ١٩٥/٢ ــ الهامش نقلا عن تاريخ الاسلام) .
كذلك : يحي بن سعيد ص ١١٩
(١١٨) يحيى بن سعيد ص ١١٩ . مسكويه ١٩٢/٢ ــ ٩٣

الليل ، فابتعد الروم الى جبل جوشن خارج حلب (١١٩) • الا ان نقفور ما لبث ان عاد بجيشه ثانية مستغلا غياب سيف الدولة وعزلة المدينة وما كان يقاسيه اهلها من الجوع والضر • ومما ساعد نقفور على احتلال حلب ان بعض رجال الشرطة احدثوا فوضى داخلية فنهبوا منازل الناس وخانات التجار ، فترك الاهلون واجب الدفاع عن مدينتهم وعادوا لحماية اموالهم مما هيأ للعدو فرصة اعتلاء السور وفتح الابواب ودخول حلب وكان ذلك في ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي القعدة (١٢٠) • وقام البيزنطيون بمجزرة هائلة رهيبة ذهب ضحاياها كثير من المدنيين الابرياء واطلقوا اسراهم من المعارك السابقة وعددهم الف ومائتان ، وسبوا بضعة عشر الف صبي وصبية من المسلمين وقتلوا معظم الرجال ونهبوا الاموال والمتاع، ثم عمدوا الى حباب الزيت فصبوا فيها الماء حتى فاض الزيت على الارض ، وهدموا واحرقوا المساجد والاسواق واكثر دور المدينة (١٢١) • وقد استمرت أعمال القتل والحرق والنهب ثمانية ايام (١٢٢) •

وتعرض المتعصمون في القلعة من اهل حلب لالام الجوع حتى كانوا يتسللون في الليل للبحث عن الاقوات (١٢٣) لكنهم صمدوا للحصار مما ساء ابن اخت نقفور وهو شاب متحمس فخاطب خاله بقوله : «هذا بلد قد حصل في ايدينا وليس بإزائنا من يدفعنا عنه ومن كان فيه من العلوية وبني هاشم والوزراء والكتاب ومن لهم أموال في القلعة ، فبأي سبب نصرف عنه قبل فتح القلعة • فاجابه الدمستق : «قد وصلنا الى مالم نكن

---

(١١٩) مسكويه تجارب الامم ١٩٢/٢
(١٢٠) تجارب الامم ١٩٢/٢ — ١٩٣ • ابن الاثير ٣٠٢/٧
(١٢١) نفس المصدر ١٩٣/٢ • ابن الاثير ٣٠٢/٧
(١٢٢) يحي بن سعيد ١٩٣/٢ يقول مسكويه (١٩٣/٢) ان نقفور بقي تسعة ايام •
(١٢٣) زبدة الحلب ١٣٩/١

تقدره ولا يقدره الملك وقتلنا وسبينا واحرقنا وهدمنا وخلصنا اسرانا واخذنا من اردنا ان نفادي به فدية وغنمنا غنيمة ما سمع بمثلها ومن حصل في القلعة فهم عراة ، واذا نزلوا هلكوا لانهم لايجدون قوتا والرأي أن ننصرف عنهم فان طلب النهايات والغايات رديء» . لكن ابن اخت نقفور أصر على عناده والح قائلا : «لا انصرف او افتح القلعة» فقال له نقفور : فانزل عليها وحاصرها فان الصورة والضرورة تقود من فيها الى فتحها فقال : «لاافتحها الا بالسيف» فقال له : «شأنك وماتريد فأني انا مقيم في عسكري على باب المدينة» (١٢٤) فلما اقترب ابن اخت نقفور من القلعة ارسل عليه من فيها من الديلم حجرا قتله ، فانتقم الدمستق شر انتقام من الابرياء العزل وذبح جميع الاسرى عدا الشبان ، وسار الى بلاد الروم (١٢٥) حيث عرض اسرى المسلمين نساء ورجالا مصفدين بالاغلال في ميدان «السيرك» (١٢٦) . ويقول المؤرخ اومان (١٢٧) ان سبب انسحاب نقفور الى طوروس يرجع الى ان مسلمي سورية الجنوبية والجزيرةقدموا بجيش

---

(١٢٤) مسكويه تجارب الامم ١٩٣/٢ — ٩٤

(١٢٥) نفس المصدر ١٩٤/٢ . يقول كذلك ان الحجر لم يقتل هذا الشاب بل انه حين ادار ظهره ليتقي الحجر ، فتح احد الحلبيين باب القلعة وطعنه برمح بين ابطيه فارداه قتيلا . يقول الاستاذ سامي الكيالي (ص ١١٧) انه يتفق مع المستشرق ماريوس كانار في ان قصة مقتل هذا الشاب غير حقيقية ، لان بن الشمشقيق اي زمسكيس قد عاد الى القسطنطينية وجرى بينه وبين الملكة التي تزوجها نقفور علاقات غرام واتفق معها على قتله . وعليه فيكون الذي قتل هو احد قواد الفرق لا ابن اخته . والحق ان المصادر العربية تذكر التقيل ب «ابن اخت الملك» وتشير الى وجود يانس بن الشمشقيق في جيش نقفور وهو يوحنا تسمكيس الذي اصبح دمستقا ثم امبراطورا في المستقبل ومن لم قد يكون القتيل ابن اخت الملك اي ابن اخت الامبراطور رومانوس .

(١٢٦) Schlumberger , P. 154

(١٢٧) The Byzantine Empire , P. 229

ضخم لانجاد قومهم ، فتقهقر نقفور بعد ان فتح ستين قلعة وحصنا في آليكيا وسورية الشمالية .

كان تأثير احتلال حلب في العالم الاسلامي كبيرا لا سيما وانه كان مقدمة لحملات اخرى قام بها الروم على الجزيرة ونواحي الموصل في هذه الفترة فذهب الى الخليفة وقد يحمل كتابا يشرح ماحل بحلب فوعدهم برد العدوان . والحق ان الخسارة التي نجمت عن احتلال حلب كانت فادحة فعلاوة على الاف الضحايا من المسلمين بين قتلى واسرى نساء ورجالا ، فقدت الاسرة الحمدانية عددا من افرادها الذين يعتبرون قوادا لامعين من امثال ابي طالب بن داود بن حمدان وابنه وداود بن علي ، كما قتل كاتب سيف الدولة ابو محمد الفياضي واللغوي ابو الطيب ، يضاف الى ذلك ما اصاب مؤسسات المدينة من مساجد وعمائر وقصور ودور واسواق من خراب نتيجة الحرق والنهب . وقد دمر قصر «الحلبة» وهو قصر سيف الدولة ونقلت ابوابه المذهبة للقسطنطينية وهي خسارة فنية لا تعوض .

اما سيف الدولة فقد كان في قنسرين يرقب الاحداث المؤسية ، وما ان علم بانسحاب نقفور حتى عاد الى حلب ليجد عاصمته في حالة يرثى لها من الخراب والدمار . وقد استفزته هذه الحادثة فاخذ يستجمع القوى من هنا وهناك لرد عادية الروم فأوكل (في سنة ٣٥٢/٩٦٣م) الى غلامه نجا مهمة القيام بغزوة في بلاد الروم من درب ، واوكل الى اهل طرسوس مهمة غزو هذه البلاد من درب اخر اما هو فقد قاد جيشا من درب ثالث (١٢٨) غير انه لم يتوغل كثيرا لانه كان مريضا بالفالج منذ سنتين ويصاب بحالات اغماء يظن معها انه قد فارق الحياة ، لذلك عاد الى حلب دون ان يتم مهمته (١٢٩) . وقد استغل نجا مرض سيف الدولة وسوء

---

(١٢٨) تجارب الامم ٢/٢٠١

(١٢٩) تجارب الامم ٢/١٩٩

الاحوال العامة فخرج عن طاعة سيده • وقد عبر الذهبي عن انحسار هيبة سيف الدولة وتفوق الروم بقوله : « (١٣٠) فضعف امر سيف الدولة بعد تلك الملاحم الكبار التي طير فيها لب العدو ومزقهم فلله الامر وما شاء الله كان» والحق ان الروم عبروا الفرات وقصدوا الجزيرة : حتى هددوا الموصل التي اغلقت اسواقها واجتمع اهلها في المسجد الجامع •

وكان رد الفعل عنيفا ببغداد وتجمهر اهلها من العامة في باب دار الخلافة «ومعهم كتاب يشرح مصيبة حلب» وطالبوا الخليفة ان يخرج بنفسه الجهاد ضد الروم والا فانهم سوف يقومون بعزله وتولية خليفة اخر ، ولم ينقذ الخليفة الا وصول الاخبار بموت امبراطور الروم رومانوس (١٣١) •

توفي الامبراطور رومانوس الثاني في سنة ٣٥٢ (٩٦٣م) تاركا زوجة شابة هي ثيوفانو Theophana وولدين ، اولهما باسيل وكان في السابعة من عمره ، وثانيهما قسطنطين وكان لا يزال في الثانية ، فاعلن نقفور نفسه وصيا على هذين الطفلين ثم تزوج من ثيوفانو فاصبح الحاكم الفعلي (١٣٢) • ووجه نقفور همه الى اصلاح الجيش وكرس جميع موارد

---

(١٣٠) هامش تجارب الامم ٢٠١/٢

(١٣١) نفس المصدر والمكان •

(١٣٢) Finlay Hist. Of Byz , EmpireP. 302 يقول ابن العديم (١٤٤/١) : مات رومانوس وجلس في الملك ولداه باسيل وقسطنطين وهما صبيان واصبح نقفور وصيا ولبس الخف الاحمر واشار عليه البطريرك ان يتزوج تفانو أم الصبيين ويتشاركهما الملك فالبس التاج . وردت هذه الرواية في تاريخ الانطاكي (ص ١١٩ـ١٢٠) مع بعض الاضافات : فقد ذكر ان رومانوس توفي في ١٦ اذار سنة ١٢٧٤ المصادف ٦ صفر ٣٥٣ هـ ورأت امهما توفانوا ان يكون تدبير المملكة لنقفور فحضرت الى الكنيسة مع ولديها وسلمتهما اليه بحضرة بليفقطس بطريرك القسطنطينية : والبسه البطريرك التاج وباركه في ايا صوفيا وتزوج تاوفانوا

الدولة لتحقيق هذا الغرض متبعا الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، ومن هنا فرض ضرائب فادحة جلبت عليه سخط الشعب الذي كان يحبه (١٣٣) . وكانت اهم مشاريع الامبراطور الجديد تحطيم قوة الحمدانيين ومد حدود الامبراطورية في سورية والجزيرة . لذلك بدأ بتنفيذ مشروعه سنة ٣٥٣ (٩٦٤م) ، فجمع جيشا في طرسوس . وكان سيف الدولة قد اقعده المرض فاصبحت جهود الحمدانيين موزعة واخذ نجا وغيره من اهل الثغور يقومون بغارات ومناوشات غير مثمرة (١٣٤) مما اتاح لنقفور ان يحتل اذنة التي هجرها اهلها ثم حاصر المصيصة وبقى فيها اسبوعا . ولما وجد صعوبة في الحصول على الميرة انسحب بعد ان احرق ضواحي المصيصة واذنة وطرسوس وقتل كثيرا من السكان الابرياء (١٣٥) . واستعاد البيزنطيون في هذه الغارات صليبا ثمينا كان قد استولى عليه المسلمون في حروبهم السابقة ووضع بكنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية ، كما حملت ابواب طرسوس والمصيصة البرنزية ذات الصنعة الدقيقة ووضعت في الكاتدرائية التي شيدها نقفور (١٣٦) . وفي هذه السنة نفسها استرد الروم قبرص (١٣٧) . ومن عجب ان نقفور هادى سيف الدولة وهو يحاصر المصيصة ببغال ودواب وثياب وديباج رومية وصياغات ذهب فقابله سيف الدولة بهدايا اخرى ، مما برر بقاء نقفور فى البلاد الاسلامية ثلاثة اشهر دون أن ينازعه احد (١٣٨) وهو امر غريب على شخصية سيف الدولة الذي لم يؤثر عنه انه تهاون في دفع الروم عن بلاده . على ان

---

(١٣٣) المصدر نفسه ص ٣٠٦
(١٣٤) مسكويه . تجارب الامم ج٢ ص ١٩٩
(١٣٥) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة (مخطوط) ج١ ورقة ٩٤ آ
(١٣٦) FINLAY. P. 307
(١٣٧) الانطاكي ١٢٢
(١٣٨) مسكويه . تجارب الامم — ج٢ ص ٢٠٨

هذه الدهشة تزول اذا عرفنا ان سيف الدولة غدا مريضا مقعدا حتى خانه اقرب المقربين اليه وهو نجا ، ومما يؤكد ذلك انه طلب الهدنة من نقفور .

ازدادت قوة نقفور (١٣٩) سنة ٣٥٤ (٩٦٥م) فبنى بقيصرية مدينة ليكون على مقربة من البلاد الاسلامية . وارسل اليه اهل المصيصة وطرسوس ان يقبل منهم اتاوة يؤدونها اليه ، وان يبعث اليهم نائبا عنه فاجابهم الى ذلك . (١٤٠) . غير انه لم يلبث ان قصد المصيصة ففتحها عنوة وساق مائتي الف اسير من اهلها الى بلاد الروم ثم سار الى طرسوس فحاصرها ، فاذعن عن اهلها له بالطاعة غير انه رحلهم الى انطاكية

---

(١٣٩) يقول ابن كثير «البداية والنهاية» ج ١١ ص ٢٤٥ في ترجمة نقفور انه أرسل قصيدة ركيكة الى الخليفة المطيع نظمها له بعد كتابه يفتخر بها ويسب الاسلام ويهدد بامتلاك بلدان المسلمين حتى الحرمين جاء فيها :

لثغوركم لم يبق فيها لوهنكم وضعفكم الا رسوم المعالم
فتحنا الثغور الارمنية كلها بفتيان صدق كالليوث الضراغم
الى كل ثغر بالجزيرة اهل الى جند قنسرينكم فالعواصم
ملطية مع سميساط من بعد كركر وفي البحر اضعاف الفتوح التواخم
وبالحدث الحمراء جالت عساكري وكيسوم بعد الجعفري للمعالم
واهل الرها لاذوابنا وتحزبوا بمنديل مولى علا عن وصف آدمي
ودارا وميافارقين وارزنا اذ قناهم بالخيل طعم العلاقم
واقريطش قد جازت اليها مراكبي على ظهر بحر مزبد متلاطم
هناك فتحنا عين زربة عنوة نعم وابدنا كل طاغ وظالم
الى حلب حتى استبحنا حريمها وهدم منها سورها كل هادم
وقد فرعنها سيف الدولة دينكم وناصركم منا على رغم راغم
ومصر سافتحها بسيفي عنوة واخذ اموالا بها وبهائمي
واجزي كافورا بما يستحقه بمشط ومقراض وقص محاجم
الا شمروا يااهل حمدان شمروا اتتكم جيوش الروم مثل الغمائم
سافتح سمرا وكوفا وعكبرا وتكرتيتها مع ماردين العواصم

(١٤٠) الذهبي . دول الاسلام ج١ ص ١٧٢

ونقل كل ماكان في مسجد هذه المدينة من القناديل الى بلاده ،وأحـرق المنبر ونصب في طرسوس والمصيصة بطريقين يحكمانهـا . وقـد وجـه تقفور لطرسوس عناية خاصة فعمرها وحصنها واتخذها مركزا لغزو بـلاد الاسلام فاصبحت مدينة بيزنطية وتنصر اكثر اهلها (١٤١) .

ومما هو جدير بالذكر ان الخيانات الداخلية كانت من عوامل تفـوق الروم على الحمدانيين ، فقد مـر بنا ذكر تآمـر رشيـق النسيمـي وابن الاهوازي ودزبر الديلمي وتواطئهـم مع الروم حتى انهم سـلموا اليهم طرسوس (١٤٢) هذا فضلا عن مرض سيف الدولة الذي اقعده ومنعه مـن صـد غارات العدو حتى انه طلب من نقفور الهدنه سنة ٣٥٤/٩٦٥م .

والحق ان الفداء كان واجبا فقد كان في اسر الروم شخصـان عزيزان على سيف الدولة هما ابو الفوارس بن ناصر الدولة وابو فراس الحمداني لذلـك سار الامير الحمداني في سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م)من ميافارقين الى سميساط واقام الفداء على شاطىء الفرات ونادى بمحمد بن ناصر الدولة وبابي فراس وغيرهما بمن عنده من الروم مثـل ثيودوس الاعور وابـن بلنطس . ولما لم يبق لدى سيف الدولة مـن يفـادي به اشتـرى مـن الروم بقية اسرى المسلمين وكانوا ثلاثة الافبمائتين واربعين الف دينار رومي (١٤٣) . وقد شجع ضعف سيف الدولة نقفور فسار الى الشـام فـي نفس هذه السنة وظل يعبث بحلب وقراها خمسين يومـا ، فاغـار علـى منبج ودمر ربضها ، وحاصر انطاكية حصارا طويلا فلما اخفق في دخولهـا لاستماتة اهلها في الدفاع خرب ضواحيها وعاد بجيشه الى طرسوس مركـز

---

(١٤١) مسكويه . تجارب الامم ح٢ ص ٢١١–٢١٢ ابـن شـداد الاعـلاق الخطيرة (مخطوط) ورقة ٩٤ ا – ٩٤ ب .

(١٤٢) المصدر السابق ح٢ ص ٢١٤

(١٤٣) تاريخ الانطاكي ١٢٦

عملياته العسكرية (١٤٤) •

وبوفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ تخلص الروم من اخطر عدو ظهر على حدودهم لذلك استطاعوا في السنين التالية ـ كما سنرى ـ ان يتوغلوا في سورية ويوجهوا تيار الحوادث فيها وبخاصة في عهد سعيد الدولة •

ويتحدث فازلييف عن تفوق الروم في هذه المرحلة فيقول (١٤٥) ان المدة بين ٩٦٣ ـ ٩٦٩ م (٣٥٢ ـ ٣٥٩ هـ) تكون المع صفحات التاريخ العسكري للامبراطورية البيزنطية في صراعها مع المسلمين • فقد استطاع نقفور فوكاس ان يركز اهتمامه على الشرق • فاحتل طرسوس وكيليكية على حين نجح الاسطول البيزنطي في انتزاع جزيرة قبرص من ايدي العرب وبذلك فتح لنقفور طريق سورية ، فبدا يعمل على تحقيق حلمه الغالي وهو غزو انطاكية وهي قلب سورية • وبعد غارات تهديدية على سورية ، حاصر نقفور انطاكية غير انه ادرك ان الحصار سيطول فترك جيشا يحاصرها وعاد الى العاصمة ، غير انه عاد فاستولى عليها في آخر سني حكمه (٩٦٩م ـ ٣٥٩هـ) كما سنرى •

---

(١٤٤) مسكويه • تجارب الامم (الهامش) ج٢ ص ٢٢٠-٢٢١

(١٤٥) P. 308

الفصل السابع

الحروب مع الروم

في عهد خلفاء سيف الدولة

لمامات سيف الدولة زالت اكبر عقبة من طريق نقفور في الشرق ، غير ان حروبه مع بلغاريا ومشاكل الامبراطورية الداخلية فوتت عليه فرصة الانتفاع بالاضطراب الداخلي الذي تعرضت له الدولة الحمدانية في عهد سعد الدولة ، فمرت هذه السنة (٣٥٦ ـ ٩٦٧م) هادئة هدوءً نسبيا سوى بعض المناوشات والغارات التي شنها المسلمون على حدود عدوهم غير ان نقفور اصبح حرا في اواخر سنة ٣٥٧ (٦٦٨م) فعزم على المسير الى الشرق وكان هدفه الاول غزو مدينتين عظيمتين في سورية هما انطاكية وحلب • وحين علم سعد الدولة بتوجه نقفور الى الشام خرج من حلب الى بالس واستخلف في حلب قرغويه الحاجب • ونزل نقفور على انطاكية واقام يومين • وفي اليوم الثالث تركها ورحل الى معرة مصرين ودخلها وهجر الفا ومائتين من اهلها الى بلاد الروم (١) وفتح معرة النعمان وخرب جامعها واكثر دورها وسار الى كفر طاب وشيزر واحرق جامعها ثم الى حماة ففتحها • واستولى على حمص واخذ منها

---

(١) زبدة الحلب ١٥٧/١ . يحيى بن سعيد ص ١٣١

رأس يوحنا المعمدان (٢) • وفي العاشر من ذي الحجة (٣٥٧ هـ) سار الى طرابلس واستولى عليها (٣) ثم حاصر مدينة عرقة تسعة ايام ثم له بعدها اقتحام حصنها المنيع واسر جميع من لجأ اليها من البلاد المجاورة واستولى على كثير من الاموال (٤) •

عاد نقفور بعد هذه الغارات الناجحة الى بلدان الساحل وفي موكبه اعداد ضخمة من السبى ، وفتح حصن انطرسوس ، وهي ثغر لجند حمص على بحر الروم ومرقية وحصن جبلة (٥) وصالح اصحاب اللاذقية وخرب الكثير من القرى التي مر بها • والحق ان مدن الشام قاست كثيرا من غارات نقفور واعمال العنف التي رافقتها (٦) • ثم حاصر القائد البيزنطي انطاكية ، لكنه فك عنها الحصار حيا اقترب الشتاء وعاد الى معسكراته الشتوية في انتظار الربيع القادم بعد ان ترك فرقا لمراقبة المدينة ، ومنع السكان من جمع المؤن والذخائر وامر قواده الا يفتحوها في غيبته (٧) • وبنى نقفور حصن بغراس BAGRAS مقابل انطاكية على سفح جبل اللكام ورتب فيها جيشا بقيادة ميخائيل البرجي (٨) •

---

(٢) يحيى بن سعيد ١٣١ . زبدة الحلب ١٥٧/١

(٣) يقول ابن العديم (١٥٨/١) ان اهل طرابلس كانوا قد احرقوا ربضها.

(٤) يقول يحيى بن سعيد (ص ١٣١) : ان حاكم طرابلس ابا الحسن احمد بن نحرير الارغلي كان في حصن عرقا لان اهل طرابلس كانوا قد طردوه لجوره ، وكان معه مقدار كبير من المال ، فاسره نقفور واخذ جميع ماله .

(٥) جبلة قلعة مشهورة بساحل الشام من اعمال حلب قرب اللاذقية (ياقوت ٣٤/٢)

(٦) CAMBRIDGE MED . HIST VOL. 4, P. 146

(٧) FINLAY . HIST . BYZ. EMP. , P. 307

(٨) يقول ياقوت ٦٩٣/١ : بغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ في البلاد المطلة على نواحي طرسوس .

كان ميخائيل البرجي (برتزيس BURTZES) هو القائد الذي عهد اليه نقفور بمهمة البقاء امام أسوار انطاكية . فصادف ان دله جاسوس للبيزنطيين على برج ضعيف يمكن اقتحامه والدخول منه الى المدينة . وفي ليلة شتاء حالكة الظلام تساقط فيها الثلج ، قاد برتزيس ثلاثمائة من خيرة جنوده واستولى على هذا البرج ، وارسل الى القائد بطرس فوكاس PETERPHICAS (وهو اخو نقفور) اشارة بان يتقدم للاستيلاء على انطاكية . وبعد ثلاثة ايام دخل الجيش البيزنطي هذه المدينة في ٢٨ اكتوبر ٩٦٩ ـ يوم الخميس ١٣ ذو الحجة سنة ٣٥٨ بعد ان ظلت في ايدي المسلمين ثلاثمائة وثمان وعشرين سنة . غير ان نقفور عزل ميخائيل البرجي فيما بعد لمخالفته اوامره (٩) . ويورد الانطاكي (١٠) بعض التفاصيل الطريفة عن احتلال انطاكية فيقول ان بطرس الاسطراطوبدرج وميخائيل البرجي حاصرا انطاكية بجيوش ضخمة . كانت المدينة في حالة ضعف ووهن بسبب الغارات المستمرة عليها وعلى اعمالها «وضجر اهلها في حراستها لانهم ما كانوا يشعرون انها تقصد في ذلك الوقت ولم يتمكنوا من جمع رجال يصعدون الى الجبل ليحفظوا السور فرآه الروم خاليا فبادروا بالطلوع اليه فلم يروا احدا فيه... وطرح المسلحون النار لتحول بينهم وبين الروم وفتحوا باب البحر وخرج منه جماعة من

(٩) FINLAY , P. 307

(١٠) من ١٢٣ ـ ١٢٤ كذلك انظر زبدة الحلب ١٦٣/١ وابن الاثير ٢٧/٧ ... جاء في زبدة الحلب ١٦٣/١ وكان دخولهم انطاكية ليلة عيد الميلاد فلما طلع الروم على جبلها جعلوا ياخذون الحلوس. فيقولون له كبر وهلل فمن لم يفعل قتلوه . فكانوا يهللون ويكبرون والناس لا يعلمون حتى ملكوا جميع ابرجتها . وصاحوا صيحة واحدة فمن طلب باب الجنان اسر . واجتمع جماعة الى باب البحر فبردوا القفل فسلموا وخرجوا .

أهلها واسر الروم جميـع من فيها واطلقـوا من كان بهـا من النصارى واقروهم فيها» •

وهكذا استطاع الروم في سنة ٣٥٨هـ ان يفتحوا معـرة النعمـان ومعرة مصرين وعرقة وطرابلس واللاذقية وانطاكية • وقد اسروا وسبوا فى هذه الغزوات ـ كما قيل ـ مائة الف من فتيان المسلمين وفتياتهم وقتلوا الشيوخ والعاجزين (١١) • وفتح نقفور او ملك الروم على حد تعبير ابن العديم ـ (١٢) « ثمانية عشر منبرا اما القرى فلا يحصى عدد ما اخرب واحرق منها» جرى كل ذلك فى الوقت الذى كان سعد الدولة فى نزاع حاد مع قرغويه الذى هادن الروم • ومن الجدير بالذكر ان اهل بوقا من النصارى الذين انتقلوا الى انطاكية قاموا بدور فعال فى مساعدة الروم وتسهيل مهمتهم في اقتحام المدينة (١٣) •

ويقول فازلييف (١٤) ان نقفور كان يعتبر الاستيلاء على انطاكيـة حلما غاليا باعتبارها قلب سورية ، وهكذا تحقق فى عام ٩٦٩ م هذا الحلم وارضى طموحه واستعاد المسيحيون انطاكية العظمة THEOUPOLIS كما سماها جستنيان والمنافسة القديمة لبيزنطية في الشرق ومدينة البطارقة العظام والقديسيين المبجلين ومركز الهرطقات (١٥) • وعلى الرغم من سرور نقفور باحتلال انطاكية ، فانه حقد على ميخائيل (برتزيس) لفجيعته بحريق المدينة كما يقول الانطاكي (١٦) •

وبعد سقوط انطاكية اصبحت حلب الهدف المباشر والمهم لنقفور •

---

(١١) زبدة الحلب ١٥٩/١

(١٢) نفس المصدر والمكان

(١٣) نفس المصدر ١٦٢/١

(١٤) P. 308-309

(١٥) SCHLUMBERGER , 723

(١٦) ص ١٣٥ •

ولما علم سعد الدولة بدخول الروم انطاكية هجر عاصمته وانتقل الى حمص تاركا شؤون حلب بيد قرغويه الحاجب ذى النوايا السيئة • وسار القائد البيزنطي نحو حلب (١٧) فتحصن اهلها في القلعة ، واستمر الحصار مـــدة سبعة وعشرين يوما وترددت المراسلات بين الجانبين الى ان تقرر الأمر على عقد هدنة و « مال يحمل في سـنة الى ملك الروم» (١٨) • لقـــد كان استيلاء نقفور على حلب في اواخر ايامه (اواخر سنة ٩٦٩م = ٣٥٩ هـ) انتصارا باهرا للروم على المسلمين • وقد عقدت الهدنة قبيل مقتل نقفـــور في نهاية سنة ٩٦٩ بين الروم وقرغويه • وقد اورد ابن العديم (١٩) نص شروط هذه الهدنة المهينة التي عقدت في صفر من تلك السنة وفيما يلي ملخـــص لما جاء فيها •

١ ـ فرض الروم الجزية على جميع المسلمين بمعدل دينار (ستة عشر درهما) في كل سنة (٢٠) عن حمص وجوشيه وسلمية وحماة وشيزر وكفر طاب وافامية ومعرة النعمان وحلب وجبل السماق ومعـرة مصريـــن وقنسرين والاقارب وغيرها من الحصون والقلاع (٢١) •

٢ ـ ان يكون قرغويه اميرا على المسلمين وبعده بكجور ثم ينصب ملك الروم اميرا يختاره من سكان حلب وليس للمسلمين ان يختاروا اميرا بانفسهم •

---

(١٧) يسميه يحيى بن سعيد الانطاكي (ص ١٣٤) الاصطر الحوبدرج ولعلـه يعني (الستراتيجوس) . اما ابن العديم (١٦٣/١) فيسميه «الطربازي»

(١٨) يحيى بن سعيد ص ١٣٤

(١٩) زبدة الحلب ١٦٤/١ـ١٦٩

(٢٠) اشترط الروم ان يحمل اليهم المسلمون في كل سنة جزيـة قدرهـــا سبعمائة الف درهم نفس المصدر (ص ١٦٤)

(٢١) يقول فازلييف (ص ٣٠٩) ان هذه الوثيقة التي تركها ابـن العديـــم حددت بدقة مناطق الحدود والمقاطعات والمدة التي سلمت للبيزنطيين بما في ذلك انطاكية وحلب .

٣ ـ الا يؤخذ من نصراني جزية في هذه المدن الا اذا كان له بها مسكن او ضيعة .

٤ ـ على قرغويه ان يصد اي جيش اسلامي يريد غزو الروم فان عجز فعليه ان يخبر الروم بذلك . وعلى بكجور ان يستقبل جيوش الروم الغازية ويشيعها عند رحيلها ويسهل لها الحصول على الاقوات والميسرة .

٥ ـ على الامير قرغويه ان يساعد الروم على غزوهم لبلاد غير اسلامية .

٦ ـ ليس للمسلمين ان يعترضوا على من يدخل النصرانية منهم وليس للروم ان يعترضوا على من يدخل الاسلام منهم .

٧ ـ اذا هرب عبد مسلم او نصراني ذكرا او انثى فعلى المسلمين تسليمه او اعطاء صاحبه ثمنه .

٨ ـ على المسلمين ان يقوموا بتسليم المجرمين الهاربين من الروم الى قائد الجيوش البيزنطية .

٩ ـ للروم الحق في اعتقال اي جاسوس مسلم يدخل حدود بلادهم .

١٠ ـ ليس للمسلمين الحق في هدم الحصون او بناء حصون جديدة وللروم ان يعمروا الكنائس المخربة وعلى المسلمين تكريم البطاركة (٣٢) والاساقفة الذين يفدون عليها .

١١ ـ يقدر الروم العشر الذي يؤخذ عن تجارتهم وبخاصة الذهب والفضة والديباج الرومي والاحجار الكريمة والسندس . وعلى قرغويه وبكجور ان يقوما بالمحافظة على القوافل التجارية البيزنطية وتقديم الادلاء لارشادها في الطريق ، فاذا تعرض لها قطاع الطرق وجب

(٣٢) وهم كبار قواد الروم .

عليهما ان يقوما بتعويض ما نجم .

وقد شهد على هذا الصلح جماعة من الشيوخ مع قرغويه وبكجور وسلم الى الروم رهائن من وجوه اهل حلب . وكان المتوسط في هذه المفاوضات طاهر الهاشمي (٢٣) .

واذا تأملنا هذا الصلح وجدناه بالغ الاهمية لانه يعتبر وثيقة قيمة ترسم صورة واضحة للعلاقات العسكرية والتجارية والاجتماعية والدينية بين المسلمين والروم في ذلك العصر ، ومنه تستدل على رواج التجارة والبضائع المستوردة والصادرة وعلى حالة العبيد وطريقة معاملتهم . كما نقف منه على كثرة الكنائس وتنظيماتها الاكليركية في هذه المناطق .

ونستطيع القول ان المسلمين لم يعرضوا في حروبهم مع الروم لمثل هذه الهزائم ، فقد اخذت منهم قاليقلا وجزء من سورية . وعلى اثر توقيع هذه المعاهدة اغتيل نقفور في اواخر سنة ٩٦٩ م على يد زوجته ثيوفانو وقريبه يوحنا تسمكيس TZIMISCES الذي اشترك معها في المؤامرة وتولى عرش الامبراطورية (٢٤) . وقد قال المؤرخ الاغريقي المعاصر ليو الشماس : ان نقفور لو لم يقتل لاستطاع ان يمد حدود امبراطورية الروم في الشرق حتى الهند وفي الغرب حتى نهاية العالم وبعبارة اخرى حتى المحيط الاطلسي . وواضح ان في هذه الاقوال الشيء الكثير من المبالغة ، بدليل ان مشاريع

---

(٢٣) ابن العديم «زبدة الحلب ج١ ص ١٦٩ . يقول يحيى بن سعيد (ص ١٣٤) عن شروط هذا الصلح «تقرر الامر على صلح وهدنة مؤبدة ومال يحمل في كل سنة الى ملك الروم عن حلب وحمص وجميع اعمالها من المدن والقرى وهو ثلاثة قناطير ذهب عن حق الارض وسبعة قناطير ذهب عن خراج هذه الاعمال . وعن كل رجل حالم دينار واحد في السنة سوى ذوي العاهات . وان يكون لملك الروم صاحب مقيم يجلب ويستخرج اعشار الامتعة الواردة اليها من البلاد» .

(٢٤) CAMB. MED. HIST. , VOL,4, P. , 146

فوكاس في الغرب اصابها الاخفاق ، فقد فتح المسلمون صقلية وفرضوا سيادتهم عليها في اواخر عهد هذا الامبراطور . وقيم يحي بن سعيد الانطاكي (٢٥) نقفور فوكاس بقوله : «ولم يشك احد في ان نقفور الملك يفتح جميع الشامات وديار مضر وديار ربيعة وديار بكر وتحصل في يديه . وذلك انه قد بنى امره على قصد سواد المدن والقرى التي يمر بها فيغزوها ويحرقها ويسبى اهلها ومواشيها . واذا بلغ وقت الحصاد للزرع خرج واحرق جميع الغلات وترك اهل المدن يموتون جوعا . وكان لايزال يفعل ذلك بهم سنة بعد سنة الى ان تدعيهم الضرورة الى تسليم المدن اليه .. حتى كانت غزواته قد صارت كالنزهة له ولاصحابه ... وكان يقصد حيث يشاء ويخرب من غير ان يلقاه احد من المسلمين يدافعه عما يريده ...» .

كان الهدف الرئيس ليوحنا تسمكيس الذي خلف فوكاس على عرش الامبراطورية (٩٦٩-٩٧٦م = ٣٥٩-٣٦٦هـ) ، ان يوالي سياسة الفتح في قليقية وسورية . وفي خلال السنوات الاولى من حكمه لم يستطع ان يشارك بنفسه في الحرب في الجبهة الشرقية لانشغاله بحرب الروس والبلغار وبثورة برداس فوكاس . وقد وفق تسمكيس الى الانتصار في الحروب الشمالية وفي القضاء على ثورة برداس ، وتغلب على مشاكل الامبراطورية في ايطاليا بتزويجه ثيوفانو الى وارث التاج الالماني اوتو الثاني امبراطور المستقبل ، وبذلك تفرغ تسمكيس للجبهة الشرقية (٢٦) .

كانت اولى حملات الروم على المسلمين في عهد تسمكيس بقيادة مليح الارمني أو MELCHI MLEH في سنة ٣٦١هـ (٩٧١م) الذي قصد اقليم الجزيرة (٢٧) فاغار على الرها وبلغ نصيبين فملكها واحرقها وسبى من المسلمين

(٢٥) ص ١٢٥

(٢٦) P. 310

(٢٧) CAMB . MED. , VOL .4 ,P. 147

وفعل مثل ذلك في ديار بكر ، فلم يحرك ابو تغلب الحمداني ساكنا لصد القائد البيزنطي • بل دفع اليه مبلغا من المال ليكف عن عدوانه (٢٨) • وقد اثار ذلك غضب العامة ببغداد وسارت من الجزيرة جماعات تظاهرت امام دار الخلافة ورمت الخليفة المطيع بالعجز عن مناهضة الروم ، فوعدهم بشن الغارة عليهم وكتب بذلك الى ابي تغلب الحمداني يأمره باعداد العدة لتحقيق هذا الغرض (٢٩) • وقد حسن موقف المسلمين قليلا انتصارهبة الله بن ناصر الدولة على الروم بميافارقين واسره الدمستق الذي حبسه ابو تغلب فساءت حالته ومات في الاسر سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م (٣٠) • كذلك جرت محاولة من جانب العزيز الفاطمي لاستعادة انطاكية في سنة ٣٦١هـ وقد حوصرت حصارا قاسيا ، لكن غارات القرامطة على الجيش الفاطمي اضطرته الى فك الحصار عنها ، فارسل ميخائيل برتزيس الذي اعاد بناء سور المدينة (٣١) • انشغل تسمكيس في النصف الاول من حكمه بحرب الروس والبلغار فلم يتفرغ لحرب المسلمين بنفسه لكنه سار في سنة ٣٦٣ (٩٧٤م) نحو الشرق وعقد حلفا مع ارمينية ومر منتصرا عبر آمد وميافارقين ونصيبين • وتتميز هذه الحملة بوثيقة تاريخية مهمة وهي رسالة كتبها الامبراطور الى حليفه اشوت الثالث ASHOT ملك ارمينية ، وخلفها المؤرخ ماثيو الرهاوي ومنها

---

(٢٨) ذكر الصابي في رسالته (٨٩/١) على لسان المطيع لله ان ابا تغلب لاطف طاغية الروم وهاداه وماراه (اي قدم له الميرة وقاد اليه الخيل العتاق ومما هو عون للكفر على الايمان وكان فيما اتحفه به الخمر الذي حظر الله عليه ان يشربها ويسقيها وصلبان ذهب صاغها له وتقرب بها اليه •

(٢٩) ابن الاثير . الكامل ج٨ ص ٢٤٤ ــ مسكويه . تجارب الامم ج ٢ ص ٣٠٢

(٣٠) ابن الاثير . الكامل ص ٢٤٧ . مسكويه تجارب الامم ج٢ ص ٣١٢

(٣١) CAMB. MED. , VOL. 4 P. 147

نستدل على ان خطة الامبراطور تسمكيس كانت تهدف الى الاستيلاء علـى بيت المقدس اي القيام بحرب صليبية (٣٢) • وقد استولى الامبراطور علـى بعلبك وسلمت له دمشق صلحا ودفعت الجزية ، اما في فلسطين فقد خضعت له طبرية والناصرة وقيصرية صلحا • وسار على الساحـل فاستـولى على بيروت وصيدا وجبلة لكنه هزم في طرابلس • وفي رسالته لاشوت يقـول في شيء من المبالغة : «اليوم تحررت كل فينيقيا وفلسطين وسورية من نيـر المسلمين واعترفت بسيادة الروم كما اصبح جبل لبنان العظيم خاضـعا لسيادتنا» (٣٣) غير انه لم يستطيع اتمام مشروعه لانه لم يلبث ان توفي مسموما في القسطنطينية في ١٠ يناير سنة ٩٧٦م (٧ جمادي الاولى ٣٦٥هـ) على اثـر عودته من هذه الحملة (٣٤) • حكم بعد تسمكيس ولدا رومانوس باسيـل وقسطنطين وكانت السنوات الثلاث الاولى من حكمهما مليئـة بالصـراع الداخلي الناتج عن ثورة برداس السقلاروس BARDAS SCLERUS الذي سماه المسلمون ورد الرومي (٣٥) • غير ان القائد بردلس فوكاس قضى على هذه الثورة وانصرف الى حرب الحمدانيين الضعفاء في المشـرق والى محاولة صد التوسع الفاطمي في سورية (٣٦) •

لقد اسلفنا القول ان العزيز بالله الفاطمي طمع في حلب وانجد بكجور ضد سعد الدولة فاستنجد هذا بالروم الذين انجدوه بجيش بقيادة البرجـي MICHAEL BURTZES صاحب انطاكية الذي حلت به الهزيمة كما

---

(٣٢) CAMB. MED. VOL. 4, P. 148

(٣٣) نفس المصدر والمكان

(٣٤) FINLAY , P. 333

(٣٥) مسكويه . تجارب الامم ج٢ ص ٣٨٦

(٣٦) CAM. MEDI, VOL ' 4' P. 148

مر بنا (٣٧) في عهد سعيد الدولة وقد سير العزيز بالله منجوتكين الاخذ حلب سنة ٣٨٤ (٣٨) ، غير ان باسيل الثاني ظهر عند اسوارها مجبرها من حصار الفاطميين واستولى على حمص MESA وشيزر (٣٩) وفي سنة ١٠٠١م (٣٩٢هـ) عقد باسيل صلحا لمدة عشر سنوات مع الحاكم الفاطمي ، وحتى وفاته لانجد حروبا بينه وبين المسلمين (٤٠) .

وبعد ان اتينا على الحروب الحمدانية والبيزنطية وفصلنا احداثها حسب التسلسل الزمني نخرج بالنتائج التالية :

١ ـ ان هذه الحروب كانت ذات صبغة دينية بالنسبة للفريقين المتحاربين ، فقد اعتقد المسلمين بفرض الجهاد على حين رغب الروم في وجه التوسع الاسلامي وحاولوا بدورهم نشر المسيحية وحرصوا على استرجاع الايقونات الدينية كالصور والصلبان . وخير دليل على ماتقول محاولة الامبراطور تسمكيس فتح بيت المقدس . ويجب ان نلاحظ ان كلا الفريقين خرب العمائر الدينية التي تعود للفريق الاخر .

٢ ـ ادت هذه الحروب الى اضرار اقتصادية وبشرية هائلة فقد اودت بسكان العواصم المسلمين وعرضتهم للتشريد والجوع وعطلت الزراعة التجارة واخلت مدن الحدود من كل مظهر من مظاهر الحياة .

٣ ـ ذهبت عشرات الالاف من جند الفريقين ضحايا لهذه الحروب الطاحنة واشتركت فيها مختلف الاجناس : العرب والروم والصقالبة والروس والارمن والبلغار وغيرهم .

---

(٣٧) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق ص ٣٨ يحيى بن سعيد ص ١٧٦ وما بعدها .

(٣٨) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٢ ص ٥٠٢

(٣٩) نفس المصدر ج٢ ص٥٠٣ ـ ٥٠٤ . ابن العديم ـ زبدة الحلب ج١ ، ص ١٩٢ .

(٤٠) CAMB. MED. VOL. 4 P. 147

٤ ـ نجد ان حوادث هذه الحروب متكررة متشابهة وهي عبارة عن غارات صيفية ـ غالبا ـ يشنها الفريقان على العواصم والثغور فيحرقون ويدمرون ويسلبون ويسبون ثم يعودون الى قواعدهم .

٥ ـ لعبت الجاسوسية دورا كبيرا في هذه الحروب فلجأ اليهاالفريقان المتحاربان . كما ان الروم استخدموا الرشوة لتفريق صفوف الحمدانيين الذين ظهر من بين اعوانهم بعض الخونة من امثال رشيق النسيمي وقرغويه وبكجور .

وعلى الرغم من ان العداء بين الحمدانيين والبيزنطيين كان مستحكما ، نجد في فترات السلم او الهدنة القصيرة ، وبخاصة في فصل الشتاء ، علاقات سياسية واخرى تجارية بين الفريقين ، هذا فضلا عن العلاقات الدينية بين القسطنطينية والبطريركيات الشرقية في العالم الاسلامي وهي انطاكية وبيت المقدس والاسكندرية (٤١) .

ويجد الباحث في التاريخ البيزنطي عدة مراسلات رسمية بين الاباطرة من ناحية وبين الخلفاء العباسيين وامراء سورية ومصر من ناحية اخرى . كما ارسل الإمبراطور قسطنطين السابع كثيرا من السفارات الى سيف الدولة بحلب وقد ردد ذكرها ابو فراس والمتنبي (٤٢) . ويكفي ان نتذكر تبادل الاسري الذي كان يجري بين الحمدانيين والبيزنطيين وما كان يصحبه من مفاوضات ومراسلات ، لندرك ان العداء لم يحل دون قيام علاقات سياسية بين الدولتين . وقد اشرنا الى الفداء كما اشرنا الى المعاهدة التى عقدها قرغويه مع الروم ، وهي كبيرة الدلالة على نشاط القوافل التجارية وتعتبر خطوة كبيرة في سبيل تنظيم الشؤون المدنية بين الطرفين .

---

(٤١) CANARD ، DEUX EPISODES P. 51

(٤٢) المصدر نفسه ص ٦٩

اما العلاقات الدينية فكان لابد من قيامها بين الدولتين لوجود العناصر النصرانية في البلاد الاسلامية التي تمتعت عموما بالتسامح والتساهل من جانب المسلمين • وقد زودنا المؤرخ شيد بحقائق طريفة عن هذه العلاقات وعن ثروة الكنيسة ورجال الدين في العالم الاسلامي وعن العلاقات التي قامت بينهم وبين الخلفاء والامراء المسلمين والاساليب التي كان يتبعها رجال الدين النصارى للوصول الى كرسي البطريركية في المدن الاسلامية كالموصل ونصيبين وبغداد (٤٣) •

وقد مر بنا ماذكره المؤرخون من ان سيف الدولة تبادل الهدايا مع نقفور الذي ارسل اليه بغالا وثيابا وديباجا وصياغات ذهبية فرد عليه سيف الدولة بهدايا مماثلة سنة ٣٥٣ (٤٤) • ويذكر لنا الصابي (٤٥) ان ابا تغلب بن ناصر الدولة هادي ملك الروم وقاد اليه الخيل الاصيلة والخمر وصلبان الذهب ، كل ذلك يؤكد وجود علاقات مدنية بين الحمدانيين والبيزنطيين • وقد ألمحنا الى ذكر العلاقات التجارية بين هاتين الدولتين ، تلك العلاقات التي حرص الروم برغم عدائهم مع المسلمين على تقويتها والاحتفاظ بها •

---

(٤٣) SHEDD. ISLAM AND THE ORIENTAL CHURCHES . P. 196-248

(٤٤) مسكويه . تجارب الامم ج٢ ص ٢٠٨

(٤٥) رسائل الصابي ج١ ص ٨٩

الباب الثالث

الحضارة والثقافة

الفصل الثامن

حلب

عاصمة سيف الدولة

١ ـ حلب في التاريخ ٢ ـ تحصينات حلب ٣ ـ عمائر الحمدانيين

١ ـ حلب في التاريخ

ان حلب مدينة عريقة في القدم ، بل هي من اقدم المدن الاثرية الباقية الى اليوم . وقد لقيت هذه المدينة الكثير من اهتمام الباحثين القدماء والمحدثين ومع ذلك فما زال هناك نقاش حول تسميتها واصل بنائها .

يعزو العرب حلب الى ابراهيم الخليل . فقالوا انه بعد ان هرب من النمرود واتى هذه البقعة اقام بالتل ـ الذي ... الان قلعتها ـ فكان يرعى اغنامه حوله ويحلبها فيوزع لبنها على الفقراء فيقولون «حلب ابراهيم» فسميت حلب لهذا السبب (١) . وقد خطأ ياقوت هذا الرأي فقال : (٢) «ان ابراهيم عليه السلام وأهل الشام في ايامه لم يكونوا عربا انما العربية في ولد ابنه اسماعيل عليه السلام وقحطان . على ان لابراهيم في قلعة حلب مقامين يزاران الى الان فان كان لهذه اللفظة اعني حلب اصل في العبرانية او السريانية لجاز ذلك لان كثيرا من كلامهم يشبه كلام العرب ..» وللعرب

---

(١) ابن الشحنة . الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص ٢٥

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٢١١

خبر اخر اورده ابن الشحنة (٣) وياقوت (٤) مفاده ان حلب وحمص وبرذعة كانوا اخوة من بني عمليق فبنى كل منهم مدينة سميت باسمه ، وعمليق هذا من نسل سام . ويقول الغزي ان هذا الرأي لايستند الى اية حجة تاريخية ولم يعثر على شخص يدعى حلب بن مهر بن خاب في اي كتاب ذي قيمة على حين نجد ان حلب بن مهر كان والي بلوكش ملك الموصل ، ويروي الطباخ (٥) انه اول من بنى هذه المدينة . لذلك مال اكثر الباحثين الى الاخذ بالرأي الاول الذي ينسب حلب الى ابراهيم . وحاول الغزي (٦) ان يوفق بين هذا الرأي واقوال الاغريق كهيرودوت واسترابون اللذين صرحا بان كثيرا من القبائل العربية كانت قد ارتحلت من بلاد العرب الى سورية منذ القدم فلعلها اخذت اسم المدينة من فعل «حلب» المنسوب الى ابراهيم .

ان النقوش الهيروغليفية التي وصلت الينا والتي لاتزال في حلب الى الان ترجع الى ماقبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، غير ان علماء الآثار استطاعوا اخيرا قراءة النصوص الحثية فظهر ان تاريخ حلب يرجع الى ماقبل المسيح بعشرين قرنا (٧) ويقال ان اول من سكن هذه المدينة الاراميون ثم طردهم الحيثيون الذين اسسوا لهم مملكة بسطت نفوذها في جميع انحاء سورية والجزيرة واسية الصغرى (٨) . ويرجح ان الحيثيين هم الذين اسسوا حلب في الالف الثاني ق.م وسموها Halvan, Hallav, Hallab كما اورد في الكتابات البابلية والاشورية والمصرية (٩) . وتشهد النقوش

---

(٣) الدر المنتخب ص ٢٥
(٤) معجم البدان ج٣ ص ٣١١
(٥) اعلام النبلاء ج١ ص٧٥
(٦) نهر الذهب ج١ ص ٣
(٧) لامانس . حلب في القرن ٢٠ ق.م (المشرق عدد ٩٢٨) ص ٦٧٧
(٨) الغزي . نهر الذهب ج٢ ص ٣-٤
(٩) Ency. Of Islam, vol. II, P. ٧

الهيروغليفية من عهد رمسيس الثاني ان حلب كانت في القرن الرابع عشر ق.م. بلدة عامرة شاهدها جماعة من المصريين وسموها «خلبو». وورد في نص لنقش في هيكل رعمسيس الله انتصر على امير حلب حين ذهب لنصرة الحيثيين «الخطى» في واقعة قادش (١٠). اما البابليون فسموا حلب باسم «حلبو» على حين دعاها اليهود في مزامير داود «ارام صوبا» ويرجح ان معنى هذه اللفظة «صوب العربية» (١١). واذا فحصنا جميع الاقوال وجدنا ان الحيثيين هم الذين بنوا حلب بدليل ان اثارهم هي اقدم الاثار وقد وجدت لهم هنالك تماثيل ونقوش ترجح ان اسماء هذه المدينة مشتقة من اللغة الحثية (١٢). ولا صحة لما يقول الدكتور بيشوف (١٣) من ان حلب من بناء المصريين بدليل كتاباتهم الهيروغليفية على حائط جامع القيقان في داخل باب انطاكيا وان كانت هذه النصوص تثبت ان المصريين سكنوا حلب وملكوها.

ان اقدم اسم ورد لهذه المدينة هو حلب كما جاء في الكتب المقدسة وكما جاء في الاثار بشكل «حلبن اوحلبون». اما هلبون وهلية فتصحيفان لهذه اللفظة. وكان المؤرخون يظنون حلب هي «حلبون» التي ذكرها حزقيال و «شاليبون» التي ذكرها سترابو وبطليموس، غير ان بعض المحققين اكتشفوا بلدة تدعى حلبون قرب دمشق (١٤). اما الرومان فسموا حلب باسم «بيريا» في حين سماها اليونان «برويا» (١٥) اي «البربري»، وقد اطلق

---

(١٠) بولس جوون . نظرة في محاسن حلب (المشرق عدد ١) ص ١٧
(١١) النزي . نهر الذهب ج١ ص ١٢
(١٢) بولس جوون . نظرة في محاسن حلب (المشرق عدد ١) ص ١٧
(١٣) تحف الانباء ص ٣-٤
(١٤) الكرملي . معنى حلب الشهباء (المشرق عدد ١٠) ص ٩٦٩
(١٥) جرجي بني . تاريخ حلب (المقتطف ج٦) ص ٢٢٨

كزانفون لفظة حلب على جميع المنطقة من اذنه الى الفرات (١٦) ، وايد ياقوت هذا الرأي فسمى حلب باروا (١٧) .

يرى الاب انستاس الكرملي (١٨) ان اصل مادة حلب «هولب» وتعني الضخامة والخصب وبالتالي فمعناها المدينة الخصبة . ومن الخطأ الشائع ان حلب معربة عن «الب» المأخوذة من اسم مجددها البيوس احد وزراء يولبانوس ، ذلك ان البيوس عاش بعد المسيح على حين نسمع هذا الاسم منذ عهد الاسرائيليين (١٩) . على حين يرى الغزي (٢٠) ان حلب كلمة سريانية محرفة عن «حلبا» ومعناها البيضاء بدليل ان العرب وصفوها بالشهباء وانها مازالت تحوي حتى الان محلات تسمى باسماء سريانية .

كانت بيريا او حلب مدينة ذات تجارة رائجة ومركز حكومة رومانية امتدت حتى الفرات ، بل انها ما زالت حتى اليوم محط رحال القوافل . لذلك اهتم المسلمون بفتحها فامر عمر بن الخطاب ابا عبيدة على سورية الشمالية وحثه على فتح المدن غير المفتوحة فسار الى قنسرين فسلم له اهلها ودفعوا الجزية ، ثم سار الى حلب وكانت ذات قلعة حصينة واسوار منيعة وفيها حاكم ينوب عن ملك الروم . وصادف ان توفي هذا الحاكم وخلف ولدين هما يوكنا ويوحنا يميل اولهما الى الحرب ويؤثر الاخر السلام والمعرفة . فلما شاع اقتراب العرب من حلب جزع الاهلون وقرروا التسليم وارسلوا وفدا الى ابي عبيدة عقد معه شروط الصلح . فلما علم يوكنا بذلك وكان في

---

(١٦) الدر المنتخب ص ٣٠ الغزي نهر الذهب ج١ ص ١٤

(١٧) معجم البلدان ج٣ ص ٣١٢ يقول ابن الشحنة (ص ٣٠) ان بيروا كان اسما جاريا في المعاملات الرسمية ولا سيما في الكتب الكنسية اما عند العامة فبقيت المدينة معروفة باسم حلب .

(١٨) معنى حلب (المشرق عدد ١٠) ص ٩٧٠

(١٩) الغزي . نهر الذهب ج١ ص ١٥

(٢٠) نفس المصدر ج١ ص ١٥–١٦

حرب المسلمين دخل المدينة وقتل اخاه وبعض وجوهها بتهمة الخيانة (٢١) • ثم وصل العرب فهزموه واستولوا على حلب دون قلعتها التي تحصن فيها يوكنا • وحاصر ابو عبيدة وخالد بن الوليد القلعة خمسة شهور ثم اقتحموها فطلب اهلها الامان واسلم يوكنا وبعض انصاره وذلك في سنة ١٥ هـ (٦٣٣م) (٢٢) • ووجد المسلمون بجوار حلب قبائل عربية قديمة تقطن في مكان يدعى حاضر حلب وكانت من تنوخ وغيرها فصالحهم ابو عبيدة على الجزية ثم اسلموا (٢٣) •

ضمت حلب الى الدولة الاسلامية وظلت كغيرها من سائر المدن السورية تحت حكم الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين ، حتى اتخذها سيف الدولة الحمداني حاضرة لحكمه ، فبرزت الى الصف الاول بين مدن الدولة الاسلامية • ومما هو جدير بالذكر ان حلب كانت تصلح كل الصلاحية كحاضرة لدولة كبيرة ، فهي مدينة مجيدة ذات تاريخ قديم تحوي من اثار الاولين الشيء الكثير ، فقد سكنها كما اشرنا الاراميون والسريان والحيثيون والمصريون واليهود والكلدانيون والساسانيون والمقدونيون والسلوقيون والرومان الذين استولوا عليها حوالي سنة ٦٤ ق•م وجعلوها مركزا لسورية (٢٤) •

وقد نالت حلب من بعض امراء بني امية اهتماما خاصا فشيدوا بها وبضواحيها قصورا ظلت اثارها حتى اليوم منها القصر الذي شاده الامير مسلمة بن عبدالملك في الناعورة بين حلب وبالس وكان مبنيا من الحجارة

---

(٢١) ابن الاثير • الكامل ج٢ ص ٣٨٥ • البلاذري • فتوح البلدان ص ١٤٥
(٢٢) ابن الاثير • الكامل ج٢ ص ٢٤٣-٢٤٤ •
البلاذري • فتوح البلدان ص ١٤٥
(٢٣) البلاذري • فتوح البلدان ص ١٤٥
(٢٤) الغزي • نهر الذهب ج٣ ص٦

وتروي مياه العيون (٢٥) • كذلك بنى هذا الأمير حصنا بقي منه برج الى القرن السابع الهجري (٢٦) • وشيد سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز وهشام بن عبدالملك قصورا فخمة في تلك النواحي (٢٧) • وقد تغنى الشعراء بجمال حلب وطبيعتها وبخاصة الصنوبري (٢٨) الذي خلف قصيدة في اكثر من مائة بيت وصف فيها المدينة وضواحيها وقراها كباقوسا وباصقرا وبابلا وباسلين وباشقليا وبعازين وكلها ـ كما يبدو ـ تحمل اسماء سريانية ، كما اشاد بنهرها وقنواتها وبركها ومنتزهاتها ورياضها كبركة التل ومغنى الكاملي والراموسة وغيرها •

اما موقع حلب ففي غاية الاهمية لانها تقع بين الشرق والغرب ، ومنها تخرج القوافل الى العراق وما وراءه ، والى الشام والحجاز ومصر وافريقيا، وقد ظلت حلب تحتفظ بمركزها التجاري حتى كشف البرتغاليون طريق راس الرجاء الصالح فى سنة ٩٠٣ هـ/١٤٩٧ م ففقدت المدينة تلك الاهمية (٢٩) • وحلب باب ارمينية والجزيرة تجتمع في اسواقها الخيرات ويلتقي صنوف من التجار كما انها تؤدي الى الثغور وسائر الشامات (٣٠) • ومن هنا نالت هذه المدينة اهميتها الحربية ؛ و « الاستراتيجية » خلال الحروب العربية البيزنطية • وقد بنيت المدينة فى سهل غزير المياه ويرويها نهر قويق (٣١) • واشاد ياقوت (٣٢) باسواقها وتجارتها وعمرانها ومنتجاتها الزراعية الوفيرة مثل القطن والسمسم والفاكهة والذرة فضلا عن غابات الجوز والغار والصفصاف التي اكسبت تلك المدينة طبيعة جميلة •

---

(٢٥) ياقوت . معجم البلدان جـ٨ ص ٢٤٠
(٢٦) الغزي . نهر الذهب ج٣ ص ٢٥
(٢٧) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة (مخطوط) ج١ ورقة ١٨ أ
(٢٨) ياقوت . معجم البلدان ج٣ ص ٣١٧ انظر ديوان الصنوبري
(٢٩) الغزي . نهر الذهب ١/١٤٥
(٣٠) ابن حوقل . صورة الارض ص ١٦٤
(٣١) المقدسي . احسن التقاسيم ص ١٥٥
(٣٢) معجم البلدان ٣/٣١٤-٣١٥

والحق أن موقع حلب الجغرافي وأهميتها الاستراتيجية هما اللذان يفسران العنف الذي طبع تاريخها الوسيط والصراع الذي دار بين مختلف القوى لامتلاكها .

٢ ـ تحصينات حلب

امتازت حلب بمتانة سورها الحجري القديم الذي كان يليه ثلاثة اسوار حجرية بناها الروم . وحين ملك الفرس هذه المدينة رمموا ماتهدم من سورها . ولما دخلت تحت سلطان المسلمين وجهوا عناية خاصة للاسوار وفي سنة ٣٥١ هـ احتل نقفور هذه المدينة فخربها وهدم سورها ، فلما عاد سيف الدولة جدد سورها سنة ٣٥٣ هـ وكان اسمه مكتوبا على بعض ابراجها في جانب باب قنسرين من جهة الغرب . كما جدد ابنه سعد الدولة في سنة ٣٦٧ ابراجا اخرى واتقن سورها ، ثم بنى مرداس ابراجا جديدة وظلت المدينة كذلك حتى خربها التتر (٣٣). ويصف لنا ابن شداد (٣٤) الابراج في سور حلب ايام الايوبيين فنجد «من باب اربعين الى باب قنسرين اى من شمال حلب الى قبليها نيف وعشرون برجا كل برج فوق الاربعين ذراعا وسعة مابين الاربعين الى الخمسين وكل برج له رواقات تستر المقاتلة من حجارة المجانيق والنشاب وكل السور تشتمل على مايه وثمانية وعشرين برجا ». ولحلب ابواب عديدة ذكرها ابن شداد (٣٥)

---

(٣٣) ابن شداد الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٤ أ

(٣٤) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٨ب . ابن الشحنة . الدر الدر المنتخب ص ٣٢ .

(٣٥) الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٣ أ ــ ١٤ أ

وابن الشحنة (٣٦) وهي :

١ ـ باب قنسرين مما يلي القبلة ويمكن ان يكون قد بناه سيف الدولة بدليل وجود اسمه على برج الى جانب هذا الباب .

٢ ـ باب العراق في الشرق جدده بنو مرداس بعد سنة ٤٢٠ هـ

٣ ـ باب دار العدل بناه الملك الظاهر غازي .

٤ ـ الباب الصغير وباب آخر جددهما غازي

٥ ـ باب الاربعين .

٦ ـ باب المقام في القبلة وهو منسوب الى مقام ابراهيم الخليل .

٧ ـ باب النيرب .

٨ ـ باب القناة ويعرف الان بباب الحديد .

٩ ـ باب اليهود .

١٠ ـ باب النصر .

١١ ـ باب الفراديس انشاه الظاهر غازي

١٢ ـ باب الفرج

١٣ ـ باب الجنان الذي يؤدي الى البساتين المحيطة .

١٤ ـ باب السعادة الذي انشاه الناصر بن غازي سنة ٦٤٥ هـ

١٥ ـ باب قنسرين .

١٦ ـ ابـ باب انطاكيا الذي خربه نقفور سنة ٣٥١ هـ واعاد بناءه سيف الدولة وبنى عليه برجين عظيمين وعمل له درجات وجعل له بابين .

١٧ ـ باب السلامة الذي هدمه الروم .

كان سور حلب ايام سيف الدولة يبتدىء من باب قنسرين فينعطف جنوبا حيث يعلو قلعة الشريف ثم ينقطع ويبقى جبل القلعة دون سور .

---

(٣٦) الدر المنتخب ص ٣٩ ـ ٤٧

ثم يعود السور الى الظهور شرقا ويتجه شمالا تجاه ساحة بزى ويظل يتجه شمالا منحرفا الى الشرق حتى يصل الى شمالي جامع النار فيـن .

تعتبر قلعة حلب من اقدم العمائر ، حتى ان البعض يرجع بناءها الى الحيثيين (٣٧) في حين يقول ابن الشحنة (٣٨) وابن شداد (٣٩) انها من بناء ميخائيل او من بناء سلوقوس المقدوني في القرن الاربع ق.م وتقـع على جبل يشرف على المدينة وعليها سـور حصـين وكان لها قـديما بابان من الحديد احدهما دون الاخر وفي وسطها ينزل فيها بمائة وخمسة وعشرين مرقاة وعمقها اربعة وعشرون مترا وحين فتح المسلمون حلب رمم ابو عبيدة القلعة وترك فيها الامويون والعباسيون آثارا ولما احتل نقفور حلب سنة ٣٥١ هـ وانسحب منها وجد سيف الدولة ان القلعة غير محمية واهتم بعمارتها وتحصينها وبنى مواضع منها حين بنى سور المدينة . ولما ولي سعد الدولة بنى اجزاء اخرى من القلعة ، وبنى سور المدينة واتخذ القلعة سكنا له (٤٠) .

وتعتبر القلعة اليوم من العمائر الاسلامية المهمة وهي بشكل اسطوانـي يتضاءل قطرها كلما ارتفعت ، وحولها خندق واسع منقور في الصخر يفصلها عما حولها وجوانب التل الذي بنيت فوقه مغطاة بالحجارة الضخمة . وفي اعلى الربوة سور ذو عدة ابراج لسكنى الجند . ويجد الداخل اليهـا دهليزا ذا نقوش عربية ترجع الى عهد عبد الملك الاشرف خليل بن قلاوون . ولهذا المدخل عدة ابواب منقوشة ومكتوبة وحول سطحه شرفات ومـرام لالات الحرب ، وفي اعلاه شباك كبير مستطيل ذو اطار دقيق الصنع ، واذا

(٣٧) برلس جوزن ، نظرة في محاسن حلب (المشرق عدد ١ ، ص ١٨)
(٣٨) الدر المنتخب ص ٤٨ ولا تدري من هو ميخائيل ويقول ناشر الدر المنتخب الراجح ان هذا الاسم ورد خطأ وهو من غلط النساخ .
(٣٩) الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٤ أ
(٤٠) نفس المصدر ج١ ورقة ١٤ ب

ارتقى الممر الذي يؤدي الى سفح القلعة شاهد عدة ابواب اجملها الباب الاوسط الذي نقش في جانبه ثعبانان كبيران تعلوهما نقوش جميلة للملك الظاهر غازي • على حين يرى في صحن القلعة ابنية دارسة عدا باب الجامع القديم ذي الوشي والنقوش الدقيقة (٤١) • وتحوي هذه القلعة العتيدة اثار الامم التى حلت بحلب فى جميع العصور التاريخية وهى مازالت الى اليوم اثرا تاريخيا من ناحيتي القدم والضخامة (٤٢) •

٣ ـ عمائر الحمدانيين

حوت مدينة حلب في عهد الحمدانيين الكثير من المساجد والقصور والمشاهد والعمائر الاخرى التي تدل على رقي فن العمارة الاسلامية في هذا العصر، ومما هو جدير بالذكر ان العمارة بحلب تميزت بشخصية خاصة قليلة التأثر بالمؤثرات الاجنبية ونجد فيها نفس الخصائص الفنية التى نجدها فى كنائس انطاكية وبفضل هذه الخصائص اثرت حلب تاثيرا قويا فى فن العمارة فى سورية الاسلامية كلها (٤٣) •

شيد الحمدانيون لانفسهم قصورا واحاطوا انفسهم بشيء من الابهة

---

(٤١) بولس جوون .. نظرة في مجاسن حلب (مجلة المشرق عدد ١ سنة ١٨٩٩ـ ص ١٨ـ٢٠) •

(٤٢) يبلغ ارتفاع القلعة ٣٧ مترا وارتفاع السور ١٢ مترا هدمته زلازل سنة ١٨٢١ واجمل اثارها ترجع الى عهد مابعد الحمدانيين كالرواق المفروش بالجص والطابق الاول ذي الغرف الجميلة . وهناك الغرفة الفارسية التي تعتبر من اروع مافي القلعة وقد اصلحها المسلمون وهي مؤلفة من احجار مربعة من الطوب وتزيدها جمالا ، وفي القلعة كان يسكنه امراء حلب اجمل ما فيه باب الجناح المعد للحرم (سامي الكيالي سيف الدولة ص ٦١ـ٦٢) . كما وصف ابن جبير القلعة (ص ٢٠٤) فقال : انها ربوة .. ويحيطها خندق عميق ، سورها الاعلى للابراج وكل برج مسكون ، وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الملوكية .

(٤٣) SAUVAGET ' INVETAIRE DES MONUMENTS . ' P: 59

وبخاصة سيف الدولة في حلب الذي كان له بلاط لايقل بهاء عن بـــلاط الخلفاء • وقداشتط متزفي تقمته على الحمدانيين حين قال انهم (٤٤) اسوء من يمثل خصال البدو بدليل ان سيف الدولة لما التقى مع المتقي وابن رائق في الموصل نزل المتقي دار ابن فهد الموصلي وابن رائق في دار قريبة ،اما هو فنصب لنفسه خيمة بالدير الاعلى • فهذه حادثة لايمكن ان نحكـــم منها على بداوة سيف الدولة لانه كان انذاك في حالة حرب وعدم استقرار فلما كون له دولة واستقر بحلب اخذ يفتن في ضروب التمدن وشيد لنفسه قصـــرا في الحلبة يضاهي قصور الخلفاء كما اسلفنا • ويذكر المؤرخون ان سيف الدولة كان يجلس على سرير ويلبس تاجا مرصعا بالجوهر(٤٥) • وهذه ـ كما يقول ابن خلدون (٤٦) ـ مظاهر اتخذها سائر ملوك الأسلام فـــي الشرق والغرب الذين جعلوا في قصورهم سريرا ومنبرا وتختا وارائـــك لجلوسهم عليها مرتفعين عن غيرهم من الجالسين • ويمدنا شعر المتنبـــي بصورة زاهية لبلاط سيف الدولة وبخاصة حين يستعد لاستقبال وفـــود الــــروم (٤٧) •

وشيد سيف الدولة في حلب عدة قصور اشهرها قصره الفخـم الذي بناه في سفح جبل الجوشن بالحلبة وهي محلة من ضواحي حلب الغربـــة تمتاز بطيب الهواء وجودة التربة مشرفة على نهر قويق (٤٨) • ولم يكـــن هذا اول القصور التي بنيت في العصر الاسلامي بهذه المدينة فقد لقيـــت حلب منذ عهد الامويين عناية خاصة واتخذها امراؤهم مسكنا لهم فشيدوا

---

(٤٤) الحضارة الاسلامية ج١ ص ٢٣
(٤٥) الانطاكي . تاريخ الانطاكي ص ٧٩٥
(٤٦) مقـدمة ابن خلدون ص ٢٢٦
(٤٧) ديوان المتنبـي ص ٢٨٨
(٤٨) ابن الشحنة . الدر المنتخب ص ٦١

بها القصور الضخمة الجميلة التي ظلت آثارها باقية عدة قرون • واشهرها القصر الذي بناه مسلمة بن عبد الملك بالناعورة ونزل به حين تولى هذه المدينة ومنها قصر بناه سليمان عبد الملك وآخر شيده اولاد صالح يعرف بالدارين خارج باب انطاكيا في وسطه قنطرة مقسمة على نهر قويق وبنوا حولـه ربضا (٤٩) •

غير ان اجمل قصور حلب على الاطلاق هو قصر الحلبة الذى اطنب المؤرخون والشعراء في ذكره ، والذى يعتبر نموذجا رائعا لفن العمارة فى عصر الحمدانيين وقد شيده سيف الدولة على ضفة نهر قويق وغرس فيه الكروم حوله ميدانين لسباق الخيل(٥٠) ويقال انه رأى فى المنام ان حية تحيط بداره فقال له بعض المفسرين ان الحية فى الحلم تعنى الماء فأمر بحفر خندق بين داره وبين نهر قويق حتى طوق الماء الدار(٥١) • وقد تغنى الشعراء بوصف هذا النهر فقال المتنبي :

حجب ذا البحر بحار دونه
يذمها الناس ويحمدونه
ياماء هل حسدتنا معينه
ام اشتهيت ان ترى قرينه
ام جئته مخندقا حصونه
ان الجياد والقنا يكفينه(٥٢)

ووصفه الصنوبرى بقوله :

قويق له عهد لدينا وميثاق
وهذه العهود والمواثيق اطواق

---

(٤٩) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ح١ ورقة ١٧ ب – ١٨ أ
(٥٠) ابن الشحنة . الدار المنتخب ص ٦١
(٥١) ابن العديم . زبدة الحلب ح١ ص ١٣٩
(٥٢) ديوان المتنبي ص ٣٠٤ – ٣٠٥

اقامت به الحيتان شرقا ولم يـزل

يقبـام على شطيه للطير اسواق(٥٣)

ويرجح ان سيف الدولة بنى قصره هذا سنة ٣٣٦ هـ (٥٤) وقد افتـن في عمارته واحاطه بالاسوار ، وكان قويق يجرى فيه من الخناقية وهـي من منتزهات حلب ويمـر من الموضع المعروف بالسقايات حتى يدخل فى القصر من جانب ويخرج من الجانب الاخر منصبا عند الفيض وهو موضع قرب جبل الجيوش ، وبنى حول هذا القصر اصطبلا ومساكن لحاشيته (٥٥) وظل امراء حلب يقيمون في قصر الحلبة وغيره حتى ايـام بني مرداس الذين فضلوا الاقامة بالقلعة وجعلوا ذلك سنة لمن اتي بعـدهم(٥٦) .

وصف المؤرخون الاوربيون قصر الحلبة مسـتمدين معلوماتهم من مصادر بيزنطية فقال اندريه داتيس (٥٧) « اجاء يعني سيف الدولـة ـ باحذق المهندسين وامهر المصورين وابرع البنائيـن والنجاريـن يعتنـون ببناء وفرش هذا القصر على افخم طراز وابدع ماتضـمه قصورا باطـرة الرومان . وعندما افتتحت ابواب القصر للمرة الاولـى كان ذلك مثـار الدهشة والاعجاب لان الابواب كانت من البرونز النحاس نقشت عليهـا الوف التصاوير المستغربة الجميلة وهى تدور على قواعد من الزجاج حتـى لاتأتي بحركة ، واذ تدخل الباب تواجهك قاعات متتابعة ملاءى بالاعمـدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة وجعل المصورون رسوم الازهار

---

(٥٣) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٥٠ ب .

(٥٤) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١١٩

(٥٥) نفس المصدر ج١ ص ١٣٨

(٥٦) ابن شداد . اعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٨ ب . ابن الشحنة . الدر المنتخب ص ٦١

(٥٧) سامي الكيالي . سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص ٧٩ـ٨٠

فى اواسط القبب العالية حيث حفروا بين جهة واخرى ايات من كتاب الله الكريم باحرف كوفية جميلة وابيات مختارة لاعاظم الشعراء باحرف فارسية فتانة منمقة . وكانت للقاعة الكبرى خمس قبب بلون اللازورد يحملها ١٤٢ عمودا من المرمر المزركش بالفضة والذهب تنيرها الوف من النوافذ الزجاجية الملونة وفى وسط كل عمود خرجت احص ملأى بالازهار والنباتات النادرة . وفي وسطها افريز عظيم من الخشب الابنوس الموشى بالذهب جعل خصيصا لجلوس الأمير ورجاله المقربين ، ونقشت عليه صورة الامير منتصرا على الصحراء .

حقا لقد كان قصر الحلبة كبيرا فخما بلغ طوله ستة الاف ذراع(٥٨) وكان يحوى افخر الرياش والمتاع ، وسقوفه موشاة بالذهب لذلك نقلها الدمستق نقفور حين فتح حلب سنة ٣٥١هـ (٥٩) . ومما يدل على فخامة هذا القصر ما وجده فيه نقفور من الاموال والمتاع ، فقد نقل منه بثلثمائة بدرة عين ومائتين ورقا ، وخمسين حملا من البز الفاخر والديباج ،ومن اواني الذهب والفضة مالا يحصى ، ومن الخيل ثمانمائة ومن الجمال نحو الف ومن السلاح مائة جمل(٦٠) . وقد احرق نقفور هذه الدار بعد ان نهبها فلم تعمر بعد ذلك وان ظلت اثارها حتى القرن السابع الهجرى(٦١).

ويذكر لنا المؤرخون قصرين اخرين من عهد الحمدانيين احدهما القصر الذي بناه سيف الدولة بميافارقين ، وهو القصر العتيق الذي افتن الامير الحمداني فى بنائه واجرى اليه الماء فى قناة تاخذ مياهها من رأس المعين بالربض (٦٢) وثانيهما القصر الذي بناه مرتضى الدولة مولى بني حمدان

---

(٥٨) ابن ظافر . الدول المنقطعة ص ١٩

(٥٩) نفس المصدر ص ١٩

(٦٠) ابن ظافر . الدول المنقطعة ص ١٩

(٦١) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٣٩

(٦٢) ابن الازرق (مخطوط) ورقة ١١٣ ا — ١١٤ ب «عن كنار ص ٢١٠»

داخل باب الجنان وقد خرب وشيدت مكانه دور صغار(٦٣) .

ووجه الحمدانيون فى حلب عنايتهم الى بناء الجوامع والمساجد شأنهم شأن غيرهم من الحكام المسلمين . واول مسجد جامع في حلب هو مسجد الشعيبية الذي شيده ابو عبيدة على أثر فتح هذه المدينة ، وكان في موضعه بستان للكنيسة العظمى فى ايام الروم ، فصالح المسلمون اهلها على هذا الموضع . وقد جدد سليمان بن عبد الملك عمارته وتأنق في ذلك حتى اصبح يضاهي المسجد الاموي في دمشق في الزخرفة والفسيفساء واناقة البناء (٦٤) . وقيل ان سليمان نقل الى هذا المسجد آلة كنيسة قورص التى عدت من عجائب الدنيا ، حتى ان ملك الروم بذل فى ثلاثة اعمدة كانت فيه سبعين الف دينار فلم يرض الوليد (٦٥) ، وحين جاء العباسيون هدموه ونقلوا رخامه وآلاته الى جامع الأنبار ، ولم يزل جامع حلب قائما حتى احرقه نقفور سنة ٣٥١ هـ (٦٦) .

عنى سيف الدولة بالمسجد الجامع فرممه بعد خروج نقفور ، ثم جاء ابنه سعد الدولة فبنى بمساعدة قرغويه قبة الفوارة التى فى وسطه ، وطول عمودها سبعة اشبار ، وفيها جرن رخامي ابيض كبير يقال انه كان قديما لبعض كنائس حلب (٦٧) . وقد كتب في حافة هذا الجرن « هذا ما أمر بعمله قرغويه غلام سيف الدولة بن حمدان فى سنة اربع وخمسين وثلثمائة» . (٦٨) واذا صح هذا القول الاخير فمعنى ذلك ان المسجد عمر في عهد سيف الدولة لا في عهد ابنه سعد الدولة . وظل الامراء الذين

---

(٦٣) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٨ أ .
(٦٤) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٩ ب
(٦٥) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٢٠ أ
(٦٦) ابن الشحنة . الدر المنتخب ص ٦٢
(٦٧) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٢٠ أ
(٦٨) ابن الشحنة . الدر المنتخب ص ٦٣

تولوا حلب بعد الحمدانيين يعنون بالمسجد الجامع ويوسعونه حتى سنة ٤٨٢ حيث شيدت منارته على يد القاضي ابى الحسن محمد بن يحيى(٦٩) كما جدد عمارته نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي والناصر محمد ابن قلاوون وغيرهم(٧٠) . وكان على منبر هذا الجامع كتابة تشير الى انه من صنع الملك الظاهر ابى الفتح محمد ، اما الكتابات الموجودة على الابواب والحجر والمقاصير والاروقة فترجع جميعا الى القرون السابع والثامن والتاسع للهجرة (٧١) . وقد وصفه ابن جبير فقال انه(٧٢) «جميل الماف بصحنه الواسع بلاط كبير له ابواب تنيف على الخمسين وفي صحنه بئران . محرابه ومنبره في غاية الاتقان» وذكره الصنوبري في احدى قصائده واشاد بروعته ومنبره وحسن بنائه وجمال زخرفته (٧٣) . وكانت حلب تضم جوامع كثيرة لكنها شيدت بعد عصر الحمدانيين كجامع اسدالدين شيركوه وجامع القلعة الذي بناه بنو مرداس (٧٤) . ومازال الجامع الكبير الذي اتينا على ذكره موجودا الى اليوم ، غير ان عمارته الحالية لاتتعدى فترة المماليك عدا منارته التي تعتبر من طراز المعمار السوري ــ الاسلامي في القرن الحادي عشر ومنبره الخشبي الذي يبدو انه حفر في القرن الرابع عشر الميلادي (٧٥) . ويذكر سوفاجيه جامعا اخر قديما هو جامع الصالحين غير ان محرابه جديد يرجع الى سنة

---

(٦٩) نفس المصدر ص٦٨ . ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ح١ ورقة ١٢٠ ا

(٧٠) SAUVAGET TRESORS D'OR' VOL. I' P., 16

(٧١) ديووان الصنوبري كذلك انظر ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ح١ ورقة ١٠ ب ــ ١٢٢ ا

(٧٢) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥

(٧٣) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ح١ ورقة ٢٣ ب

(٧٤) نفس المصدر ح١ ورقة ٢٤ ا

(٧٥) SAUVAGET" INVENTAIRE DES MONUMENTS' REI ' TOME' 5' P. 73

١١٠٥م (٧٦) .

وفي حارة الفردوس جامع جليل متقن البناء أجمل ما فيه المنبر والمحراب وفي شرقي قبلته حجرة فيها قبران يزعمون ان الشمالي دفن فيه الامام علي بن ابي طالب وقد كتب على رقعة في ثوب الضريح «هذا قبر امير المؤمنين علي بن ابي طالب نقل صندوقه سيف الدولة ايام دولته من النجف سنة ٣١٧» وهذا غير صحيح لان قبر علي (ع) ما زال في النجف ، ولان سيف الدولة لم يدخل حلب قبل سنة ٣٣٣ (٧٧) .

وقد حوت حلب كثيرا من مشاهد الاولياء والصالحين (٧٨) ، وكان الناس يزورونها في المواسم ويقدمون لها النذور . ومن اشهر هذه المشاهد والمزارات ، مشهد ينسب للامام علي بن ابي طالب بسوق الحدادين آمن زائروه ان الدعاء به مستجاب ، وكانت به كتابه اعتقد الناس انها من خط علي (٧٩). وكان هناك مقام لابراهيم الخليل وقبر لبلال بن رباح ومقابر بها قبور جماعة من الاولياء والعلماء (٨٠) . ومشهد للحسين بن علي (ع) عمر في ايام الملك الظاهر وفيه ذكر لائمة الشيعة الاثنى عشر (٨١) .

ومن اهم المشاهد «مشهد الدكة» غربي حلب وقد سمي بهذا الاسم لأن سيف الدولة كانت له دكة على الجبل المطل على المشهد يجلس عليها لمشاهدة سباق الخيل . وفي سنة ٣٥١هـ خيل لسيف الدولة وهو في احد مناظر قصر الحلبة انه يرى نورا على الدكة ، فركب بنفسه الى ذلك المكان وحفره فوجد حجرا عليه . «هذا المحسن ابن الحسين بن علي بن ابي طالب» . فبنى هذا المشهد قائلا «هذا هذا موضع قد اذن الله لي في عمارته على

---

(٧٦) نفس المصدر والمكان

(٧٧) الغزى . نهر الذهب ج١ ص ٢٦٠

(٧٨) ابن شداد . الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٣٥ أ

(٧٩) نفس المصدر ج١ ورقة ٣٦ ب

(٨٠) ابن الشحنة . الدر المنتخب ص ٧٩

(٨١) بيشوف . تحف الانباء ص ١٥١

اسم اهل البيت » (٨٢) • ونقش على قنطرة بخط كوفي «عمر هذا المشهد المبارك ابتغاء لوجه الله وقربه اليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب - رضي الله عنهم - الامير الاجل سيف الدولة ابو الحسن بن عبدالله ابن حمدان» (٨٣) • وقيل في هذا الصدد ان سبي نساء الحسين حين وردن هذا المكان طرحت بعض النساء هذا الطفل ، ويقول ابن الشحنة (٨٤) ان هذا الموضع سمي الجوشن لان شمر بن ذي الجوشن نزل فيه بالسبي ورؤوس قتلى موقعه كربلاء • والواقع انه لم يعرف للحسين ولد يدعى المحسن ولا يبعد ان يكون من اولاد علي بن ابي طالب (٨٥) ،وما زال لهذا البناء بقايا الى اليوم ، كما انه لم يظل كما شيده الحمدانيون ، بل عمر في القرنين السادس والسابع ، وجدده نور الدين زنكي • والبناء عبارة عن فناء في الوسط اقيم فيه حوض ، وفي الواجهة الجنوبية ظلة للصلاة ، وقاعتان اخريتان احداهما في الزاوية الجنوبية الشرقية واخرى في الزاوية الشمالية الغربية (٨٦) • هذا وقد ضمت حلب كثيرا من الخوانق والزوايا والمدارس والمارستانات لكنها ترجع في الغالب الى ما بعد عصر الحمدانيين لذلك ضربنا عنها صفحا •

واذا حاولنا ان نستقصي فنون الرسم والزخرفة وجدنا الشعر الحمداني يزخر بوصف رسوم الاحياء والجماد ، على الرغم من ان الاسلام حرم رسم الاحياء وتصويرهم واعتبر ذلك ضربا من الوثنية ، وقد ذكر المؤرخون (٨٧) ان سيف الدولة عني بالرسم فضرب نقودا للصلات تقش عليها صورته ، فقال الببغاء في وصفها :

---

(٨٢) ابن الشحنة . الدر المنتخب ص ٨٥
(٨٣) نفس المصدر ص ٨٥ - ٨٦
(٨٤) نفس المصدر ص ٨٥
(٨٥) المسعودي . مروج الذهب ح٢ ص ٩٢
(٨٦) ELLISSEEFF , LES MONUMENTS DE NUR-ADDIN (INS, FRANC. DE D̄MAS) VOL. 13, P. 7, SAUVAGET. DEUX SANCTUAIRE (ARCH, ISLAM.) VOL. Q, P. 43.
(٨٧) يتيمة الدهر ح١ ص ١٢

فقد غدت باسمه وصورته   في دهرنا عوذة من العدم .

وصورة الامير الحمداني في حرب امبراطور الروم وبطارقته فقال (٨٨) :

ووصف المتنبي خيمة لسيف الدولة نقشت عليها صور الاشجار

عليها رياض لم تحكها سحابة   واغصان دوح لم تغن حمائمه
وفوق حواشي كل ثوب موجه   من الدر سمط لم يثقبه نظمه
ترى حيوان البر مصطلحا بها   يحارب ضد ضده ويسالمه
اذا ضربته الريح ماج كانه   تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه
وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة   لا بلج لا تيجان الا عمائمه

ومن هذه المقطوعة تستدل على ان خيمة سيف الدولة كانت منقوشة بصورة حقل ذي اشجار وارفة واغصان تعلوها حمامات • ويصف ثياب النساء وهن يلبسن قلائد من الدر ، ومنظر صيد في البيداء ومشهد حرب بين سيف الدولة والروم • ثم يختم مقطوعته بوصف صورة ملك الروم وعلى رأسه التاج • وقد اوردنا هذه الابيات لنتدلل بها على ان الحمدانيين اهتموا بالرسم لتأثرهم بالفن البيزنطي •

(٨٨) ديوان المتنبي ص ٢١٢

الفصل التاسع

نظم الحمدانيين في الشام

١ ـ الوزارة ٢ ـ القضاء ٣ ـ النظام المالي : (أ) السياسة المالية

(ب) نقود الحمدانيين في الشام

أ ـ الوزارة :

لقد قلد الامراء الحمدانيون اسوة بغيرهم من الحكام المتغلبين المستقلين الخلفاء العباسيين في نظم الادارة فاتخذوا لهم وزراء في الشام منهم :

١ ـ ابو اسحاق محمد بن ابراهيم الأسكافي القراريطي وهو اول وزراء سيف الدولة وقد وزر للخليفة المتقي مرتين فلم تطل ايامه وصودر بعد ان لبث في الوزارة اربعين يوما ، ويروي ابن الطقطقي (١) ، انه استوزر لأنه وعد توزون بان يضاعف له المبالغ المصادرة من الاغنياء . ولما صودرت اموال القراريطي رحل الى الشام وكتب لسيف الدولة ، وكان ظالما غشوشا عاش ستا وسبعين سنة وتوفي سنة ٣٥٧ (٢) .

٢ ـ ولما عزل سيف الدولة القراريطي ولى الوزارة ابا عبدالله محمد بن سليمان بن فهد الازدي (٣) ، الذي كان ابوه كما يبدو على درجة

(١) الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٨٦
(٢) ابن ظافر . الدول المنقطعة ورقة ١٢ أ
(٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج١ ص ٣٩٤

من العلم والمعرفة حتى اتيح لمولاه ابي الفتح بن جني أن يصبح من اكبر النحويين ، وكانت هذه الاسرة تقيم بالموصل (٤) .

٣ ـ تولت اسرة المغربي الوزارة للحمدانيين مدة طويلة ، وهي اسرة فارسية ينتهي نسبها الى بهرام جور ونسبوا الى المغرب لتوليهم ديوان المغرب وقيل لاقامتهم فيه (٥) . ويقول المقريزي (٦) ان اصل هذه الاسرة من البصرة ، ثم انتقلت الى بغداد حيث ولد الحسين بن علي بن محمد المغربي الذي تقلد كثيرا من المناصب ايام محمد بن رائق ، ثم انتقل الى الشام ولقي الاخشيد واقام عنده ، وغادر ابو الحسن علي بن الحسين الاخشيديين الى بغداد ، ثم اعاده الاخشيد الى مصر ، غير انه تركها ثانية والتحق ببلاط سيف الدولة ، ولحق به اهله فعاشت الاسرة في خدمة الحمدانيين . وتولى الوزارة للحمدانيين عدة افراد من هذه الاسرة ، فنجد الحسين بن علي وزيرا لسيف الدولة ويبدو انه كان حاذقا حتى مدحه ابن نباته السعدي (٧) . وكان الحسين هذا ـ على احدى الروايات ـ وزيرا لناصر الدولة بميافارقين ، وقد رهنه سيف الدولة لدى الروم حين اجرى الفداء معهم فظل في اسرهم حتى توفى سيف الدولة فاطلق سراحه بعد ان دفع فداؤه (٨) . واستوزر سعد الدولة ابنه ابا الحسن علي بن الحسين المغربي الذي توسط بين الامير الحمداني وبكجور سنة ٣٦٧هـ ، وكان سعد الدولة يصحبه عند مسيره لحرب الروم (٩) . ثم ساءت علاقة سعد الدولة بوزيره ابي الحسن فانضم الى بكجور بالرقة واغراه بمكاتبة العزيز بالله الفاطمي . تلك المكاتبة التي اسفرت عن تولية الفاطميين بكجور ولاية دمشق . وظل

---

(٤) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص٣٩٤.
(٥) نفس المصدر ج١ ص ١٩٥
(٦) الخطط ج٢ ص ١٥٧
(٧) المقريزي . الخطط ج٢ ص ١٥٧
(٨) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٤٦
(٩) نفس المصدر ج١ ص ١٧٧

ابن المغربي يحرض بكجور على سعد الدولة حتى جرت بينهما تلك الأحداث التي انتهت بقتل بكجور وفرار ابن المغربي الى الكوفة كما تقدم في فصل سابق ، ثم رحل الى مصر سنة ٣٨١ حيث خدم العزيز واغراه بالاستيلاء على حلب ، وظل ابن المغربي بمصر حتى توفي العزيز فاصبح هو وولده ابو القاسم الحسين من جلساء الحاكم وندمائه (١٠) ولما اضطهد الحاكم اسرة المغربي وقتل عليا هرب ابو القاسم الحسين الى الرملة ، وحاول اثارة الفتنة على الفاطميين ثم اخذ يتجول في العراق حتى تولى وزارة شرف الدولة البويهي سنة ٤١٥هـ (١١) • وكان ابو القاسم عالما بليغا ضليعا في العلوم الدينية والادبية والنحوية ، ذكيا حاضر البديهة يمتاز بالدهاء وسعة الحيلة والبراعة السياسية (١٢) •

٤ ـ واشتهر من كتاب الحمدانيين ووزرائهم ابو محمد عبدالله بن عمرو بن محمد الفياض كاتب سيف الدولة ونديمه ، وقد اشتهر بالبراعة في الادب والكتابة وكان يؤثره ويعتمد عليه في السفارات الى الخليفة ببغداد لقوة بيانه وبراعته السياسية في الوصول الى اغراضه(١٣) • وهو الذي توسط في الصلح بين ناصر الدولة ومعز الدولة البويهي سنة ٣٤٨هـ (١٤) • ومن وزراء سيف الدولة ابو الفرج محمد بن احمد بن علي السرمراي (١٥) وابو احمد بن نصر البازيار (١٦) •

٥ ـ ومن وزراء سعد الدولة ابو اسحاق محمدبن عبدالله بن

---

(١٠) المقريزي . الخطط ج٢ ص ١٥٧
(١١) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ١٩٦
(١٢) المقريزي . الخطط ج٢ ص ١٥٨
(١٣) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٨٣ـ٨٤
(١٤) مسكويه . تجارب الامم ج٢ ص ١٧٤
(١٥) ابن ظافر . الدول المنقطعة (مخطوط) ورقة ١٢١
(١٦) SADRUDDIN ' SAYFUDDAULAH , P. 121

شهرام الذي وزر لسيف الدولة ايضا (١٧) ، وشخص يدعى المصيصي . لم يمدنا ابن ظافر (١٨) ــ لسوء الحظ ــ باسمه كاملا ، وابو صالح بن نانا الملقب بالسديد ، وقد تولى وزارة سعد الدولة حتى سنة ٣٧١هـ ثم فارقه ومضى الى بغداد فولى مكانه ابا الحسن المغربي (١٩) . ومن وزراء سعد الدولة ايضاً ابو الهيثم بن ابي الحصين وكان في دست الوزارة سنة ٣٨٠ ، وهو الذي حرضه على مصادرة اموال بكجور واولاده بعد ان حلف سعد الدولة ، بأنه لن يمسها ، وبرر الوزير وجهة نظره بقوله : «انت حلفت لهم ــ اي لاولاد بكجور ــ على مال بكجور ومن اين لبكجور هذا المال ؟ بل هذه اموالك » .

ومما هو جدير بالملاحظة ان وزراء الحمدانيين كانوا يخضعون للامراء خضوعا تاما ، ويمكن اعتبارهم وزراء تنفيذ او مجرد كتاب يعاونونهم في المالية وتنظيم الدواوين والسفارة والمفاوضات . وكان الحمدانيون شديدي اليقظة والانتباه فلم يفسحوا لوزرائهم مجالا ، ولم يمنحونهم كثيرا من النفوذ . كما تميزت الدولة الحمدانية بكثرة الوزراء وقصر عهودهم كما يظهر مما تقدم ، غير ان بعض الوزراء استطاعوا ان يصلوا الى مكانة عالية حتى غلب ابو الحسين المغربي على امر سيف الدولة ،واشترك ابو الحسن المغربي في المؤامرات السياسية التي زعزعت سلطة سعد الدولة كما اسلفنا .

٢ ــ القضاء

لما كان اغلب السكان في دولة الحمدانيين من السنيين فانهم جعلوا اغلب القضاة من اهل السنة ، وبخاصة المذهب الحنفي الذي كون اتباعه

---

(١٧) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٥٥
(١٨) الدول المنقطعة (مخطوط) ورقة ٢١ ب
(١٩) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٧٣

الغالبية العظمى في سورية والجزيرة ويليهم الشافعيون فالحنابلة(٢٠)، بالرغم من ان الامراء الحمدانيين انفسهم كانوا من الشيعة • وان سيف الدولة قد شجع ابناء مذهبه على الاستيطان بحلب بعد سنة ٣٥١ (٢١)• ويؤثر عن الحمدانيين اهتمامهم بالقضاء لكي يضمنوا الاستقرار والهدوء في البلاد التي خضعت لنفوذهم حتى انهم اشتطوا في العقوبات التي فرضوها على الجناة • وقد ذكرنا من قبل ان ناصر الدولة بن حمدان اخذ ينظر بنفسه ـ بعد ان تقلد امرة الامراء ـ في قصص اصحاب الجنايات من العامة ويقيم الحدود من قطع اليد او الرجل (٢٢) •

وكان قاضي القضاة يقيم في حلب ويساعده قضاة اخرون في المدن والاقاليم فنجد في طرابلس عليا بن عبد الواحد بن حيدرة (٢٣) • كما نجد اشارات الى قضاة اخرين في غيرها من المدن • وبمجرد ان دخل سيف الدولة حلب سنة ٣٣٣ عزل قاضيها ابا طاهر بن محمد بن مائل لانه ـ كما قيل ـ لم يترجل له كما فعل سائر الناس (٢٤) • وكان هذا العمل اجراء ضروريا لحاكم يريد ان يبني دولة جديدة فلابد ان هذا القاضي كان من انصار الاخشيديين الذين ولوه القضاء • وكان على سيف الدولة ان يعين قاضيا جديدا يطمان اليه فولى القضاء ابا حصين علي بن عبدالملك بن بدر بن الهيثم الرقي ، الذي كان ظالما عسوفا واستولى على تركات الموتى لمصلحة سيف الدولة قائلا (٢٥) «كل من هلك فلسيف الدولة ما

(٢٠) SADRUDDIN, SAIFUD DAULAH, P. 125

(٢١) الطباخ . اعلام النبلاء ج١ ص ٢٧٩

(٢٢) مسكويه . تجارب الامم ج٢ ص ٣٨

(٢٣) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٩٨

(٢٤) نفس المصدر ج١ ص ١٣١

(٢٥) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١١٢

ترك وعلى ابي حصين الدرك • ويعتبر ابو حصين اسوأ مثل للقضاة الخربي الذمة لظلمه الناس واستيلائه على تركات الموتى • غير ان اللوم الاكبر يقع على سيف الدولة نفسه الذي دفعته حاجته للمال الى سلوك كل سبيل • ويقال ان سيف الدولة ندم على ما كان يفعله قاضيه ،حتى انه داس جثته بحصانه حين قتل في احدى الغزوات سنة ٣٤٩ هـ قائلا : «لارضى الله عنك ، فانك كنت تفتح لي ابواب الظلم» (٢٦) ويعلق الاستاذ فريتاخ على هذه الحادثة بقوله : (٢٧) اننا لا نعلم عدا هذه الحالة ان سيف الدولة ارتكب شططا شرعيا وحتى هذه ندم عليها ، ويبرر عمل سيف الدولة بحاجته للنقود في بداية دولته خاصة وان اخاه ناصر الدولة لم يكن يمده بالمساعدة انذاك •

وبعد مقتل ابى حصين اعاد سيف الدولة الى قضاء حلب ابا طاهر احمد بن محمد بن مائل الذي سبق ان عزله ، ويقول ابن العديم (٢٨) ان سيف الدولة رضى عنه حين عاد من احدى حروبه فترجل له ، ولما سأله : ما الذي منعك اولا وحملك ثانيا ؟ اجاب : «تلك المرة لقيتك والما قاضى المسلمين وهذه الدفعة لقيتك وانا احد رعاياك» وهذا في الواقع مثل طيب لقاض يحترم منصبه • ومن قضاة سيف الدولة ابو جعفر احمد بن اسحاق بن محمد بن بن يزيد الحلبي المعروف بالحرد وكان حنفي المذهب (٢٩) وظل على قضاء حلب حتى توفي سيف الدولة (٣٠) • كذلك تولى القضاء بحلب في عهد سيف الدولة ابو الفرج سلامة بن بحر احد

---

(٢٦) نفس المصدر ج١ ص ١٣١

(٢٧) ZDMG' VOL. X1, P. 180

(٢٨) زبدة الحلب ج١ ص ١٣١

(٢٩) ابن العديم • زبدة الحلب ج١ ص ١٣٢

(٣٠) نفس المصدر ج١ ص ١٥٢

الشعراء المبدعين الذي قال فيه الثعالبي (٣١) «انه كان يقول شعراً يكاد يمتزج باجزاء الهواء رقة وخفة ويجرى مع الماء لطافة وسلاسة» .
واشتهر ابو جعفر طلحة بن عبدالله بن فتاش بكتابه في «القضاة» ، ومن اخباره المنتشرة في الكتب نجد ان سيف الدولة كان لا يعفي من العقوبة حتى المقربين اليه فقد حبس شاعره ابا العباس الصفري اثر محاكمة بينه وبين رجل من اهل حلب (٣٢) .

واتخذ سعد الدولة عدة قضاة اشهرهم ابو جعفر احمد بن اسحاق وكان قاضي ابيه ، وابن الخشاب الهاشمي وقد ارسله سعد الدولة الى مصر سنة ٣٦٣ هـ يحمل جوابه على رسالة العزيز بالله الفاطمي (٣٣) .
وقد خلفه الشريف ابو علي الحسن بن محمد الحسيني والد الشريف ابي الغنائم النسابة ، وكان زاهدا عالما لذلك احله سعد الدولة محل ابن الخشاب وظل على القضاء حتى سنة ٣٧٩ هـ حيث تقلد بعده ابو محمد عبيدالله بن محمد (٣٤) .

وفي عهد سيطرة لؤلؤ اي في حكم سعيد الدولة نجد على القضاء في حلب ابا طاهر صالح بن جعفر بن عبد الوهاب بن احمد الصالحي الهاشمي الذي توفي سنة ٣٩٧ ، (٣٥) وهو من الهاشميين ويمتد نسبه الى عبدالله بن عباس الصحابي وقد سمع الحديث بدمشق وروى عنه ابن خالويه ، وكان اديبا فاضلا الف كتاب « الحنين الى الاوطان » (٣٦).
ثم ولى لؤلؤ قضاء حلب سنة ٣٩٧ ابا الفضل عبدالواحد بن احمد بن

---

(٣١) يتيمة الدهر ج١ ص ٨٢
(٣٢) الطباخ . اعلام النبلاء ج٤ ص ٣٩
(٣٣) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ١٧٠
(٣٤) نفس المصدر ج١ ص ١٨١
(٣٥) ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ٢٩٦
(٣٦) نفس المصدر ج١ ص ١٩٧

الفضل الهاشمي (٣٧) . ونستطيع من استعراض اسماء القضاة في عهدي سعد الدولة وسعيد الدولة انهم كانوا في الغالب من العلويين ، ومعنى ذلك ان هذين الاميرين كانا اكثر تشيعا من سيف الدولة .

عرف الحمدانيون الحسبة وهي وظيفة دينية يقوم صاحبها وهو المحتسب بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وله اعوان يساعدونه في البحث عن المنكرات وتعزير وتأديب المخالفين ومنع المضايقة في الطرقات والحمالين واصحاب السفن من الاكثار من الحمل ، وهدم الابنية المتداعية ومراقبة المعلمين ، والنظر في دعاوي الغش والتدليس في المقاييس والمكاييل والموازين ، اي ان المحتسب ينظر في الدعاوي العامة البسيطة ويساعد القاضي في مهامه (٣٨) . ولما كانت الحسبة منصبا خطيرا يتصل بالحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فقد عنى بها الحمدانيون فعينوا ولاة للحسبة واجبهم ابطال الحانات والمواخير والملاهي والخمور وسائر المنكرات . والنظر في الامور العامة في المتاجر والصناعات ومنعهم من الغش والتدليس وامتحان المكاييل والموازين (٣٩) .

ويبدو ان الامراء الحمدانيين جلسوا للمظالم ، وكان الخلفاء العباسيون ينصحونهم في عهود التولية بالعدل بين الرعية دون تمييز ، وفتح ابوابهم للمتظلمين ، ودفع ظلم العمال وشرهم عن الناس ، وبحث حالات المسجونين والمتهمين والجناة (٤٠)

---

(٣٧) نفس المصدر ص ١٢٨
(٣٨) ابن خلدون . المقدمة ص ١٩٦
(٣٩) الصابي . رسائل الصابي ج١ ص ١٤١–١٤٢
(٤٠) نفس المصدر ج١ ص ١٢٨

٢ ـ النظام المالي :

أ ـ السياسة المالية :

تشابه سياسة الحمدانيين المالية في الشام سياسة فرعهم في الجزيرة، فقد عمدوا الى توفير المال اللازم للانفاق على مشاريعهم العمرانية وحروبهم وبلاطهم بشتى السبل حتى اتهمهم ادم متز بنهب اموال الرعية (٤١) .

والحق ان الاقاليم التي دخلت في حوزة سيف الدولة وذريته في سورية الشمالية كانت غنية درت عليهم الاموال الجليلة والثراء العريض ، فقد قيل ان ما جاد به سيف الدولة وحده بلغ سبعمائة الف دينار (٤٢) ويقول ابن حوقل (٤٣) في وصف سياسة سيف الدولة في الرقة والرافقة «... كان لهما عمارة واعمال ورساتيق وكور فقل خلوهما من كل خال وضعفت بما حملها سيف الدولة تجاوز الله عنه من التكلف والنوائب والمغارم ومصادرة اهلها مرة بعد اخرى» ويهاجم ابن حوقل سياسة سيف الدولة في موضع اخر (٤٤) فيصف ما لاقاه بنو عمومة الحمدانيين وهم بنو حبيب الذين كانوا في نصيبين فاشتط الحمدانيون في جباية الخراج منهم ، حتى ارغموهم على هجر ديارهم سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م ولجأوا في اثني عشر الف فارس الى بلاد الروم حيث احسن اليهم الامبراطور ومنحهم لجود الضياع ، وعادوا يشنون الغارات على بلاد الاسلام .

---

(٤١) الحضارة الاسلامية ٤٧/١ (بيروت ١٩٦٧)

(٤٢) ابن ظافر ورقة ١٠ أ اعلام النبلاء ٢٩٠/١ـ٩١

(٤٣) صورة الارض ص ٢٠٣.

(٤٤) نفس المصدر ص ٢٢٠.

يقول الاستاذ كرد علي (٤٥) «كان سيف الدولة جائرا على رعيته بخرب قرية ليجيز شاعرا مدحه بقصيدة ، ولما تربع في دست الملك بحلب استكثر من القصور له ولاله وقواده وجعلها كحاضرة بني العباس كعبة العلم والادب ، فوافاه الشعراء والعلماء .. وكان كريما .. ينفق نفقات طائلة على علماء بغداد ومهاداة وزرائها وارباب النفوذ بها ، فكان حماته في دار الخلافة كثارا واستمال بهم الرأي العام البغدادي بل العربي فرضي الخلفاء ولم يخالفوه لانه ابقى لهم الخطبة وان ضرب السكة باسمه»

وقد مر بنا ان ابا الحصين قاضي سيف الدولة المشهور كان يزين له الاستيلاء على اموال الناس . وقد وصف ابن العديم (٤٦) ابا حصين علي بن عبدالملك الرقي القاضي بانه كان ظالما فكان اذا مات انسان اخذ تركته لسيف الدولة وقال : «كل من هلك فلسيف الدولة ماترك وعلى ابي حصين الدرك» . كذلك يورد ابو شجاع (٤٧) قصة اخرى عن هذا القاضي الذي زين لمولاه سعد الدولة ان يستولي على اموال بكجور بعد ان اعطى الامان لاولاده سنة ٣٨١/٩٩١ م في ارواحهم واموالهم . فقد قال ابو الحصين لسعد الدولة : «ان بكجور واولاده مماليك ملكك وما ملكوه هو لك ولا حرج عليك فيما تأخذه منهم ولا حنث في الايمان التي حلفت بها ومهما كان فيها وزر واثم فعلي دونك» ، ثم يصف ابو شجاع ابا حصين بهذه الكلمات «فما كان اسوأ محضر هذا القاضي الذي حسن لسعد الدولة تسويل الشيطان وافتاه بنقض الايمان ، ثم لم يقنع بما زين له من عذر وليس عليه من امره حتى تكفل له تحمل وزره» .

---

(٤٥) خطط الشام ٢٢٢/١
(٤٦) زبدة الحلب ١١٢/١
(٤٧) ذيل تجارب الامم (القاهرة ١٣٣٤) ص ٢١٥ ، كذلك اورد هذا الخبر ابن القلانسي ص ٣٨ .

ويروي المؤرخون (٤٨) قصة عن سيف الدولة تلقي الضوء على رغبته انجامحة في الاستئثار بالاراضي والاموال : فقد كان في بعض الايام يساير الشريف العقيقي بدمشق في الغوطة بظاهر البلد ــ اي دمشق ــ فقال سيف الدولة للعقيقي «ماتصلح هذه الغوطة تكون الا لرجل واحد» فقال له الشريف العقيقي «هي لاقوام كثيرة» فقال سيف الدولة : لئن اخذتها القوانين ليتبرؤون منها •

وقد ذكر ابن حوقل (٤٩) كذلك ما اصاب تجار مدينة بالس من عسف على يد سيف الدولة اذ انفذ اليهم قاضيه ابا الحصين فصادرهم على الف الف درهم • يقول ابن حوقل (٥٠) «ومن مشهور اخبارها ان المعروف بسيف الدولة علي بن حمدان بعد انصرافه عن لقاء صاحب مصر وقد حل جميع جنده ، انفذ المعروف بابي حصين القاضي فقبض على تجار كانوا بها مختفين عن السعر ولم يطلق لهم النفوذ مع خوف نالهم فاخرجهم عن احمال بزر واطواف زيت الى ماعدا ذلك من متاجر الشام فى دفعتين بينهما شهور قلائل وايام يسيرة الف الف درهم» ، ويروي مسكويه (٥١) ان نجا غلام سيف الدولة فرض على مدينة حران سنة ٣٥٢/٩٦٣م ثلثمائة وعشرين الف درهم «وقسط المال على اهل البلد وفيهم الملي والذمي والسوقة والنساء والارامل ، ووضع عليهم العصي والضرب في دورهم بحضرة حرمهم وعيالاتهم وباع اهل المدينة امتعتهم وحليهم باسعار بخسة» •

غير ان المؤرخ صدر الدين (٥٢) يبرر سياسة الحمدانيين المتشددة

---

(٤٨) ابن الاثير ١٦٤/٨ ، ابن العديم ١١٦/١ ــ ١١٧ ، ابو الفدا ١٠١/١ ابن الوردى ٢٧٩/١

(٤٩) ١١٩ــ٢١٠.

(٥٠) نفس المكان

(٥١) تجارب الامم ٢٠٠/٢

P. 123

(٥٢)

هذه بحاجتهم الاموال من اجل الجهاد ضد الروم وارضاء جنودهم من القبائل الطامعين في الارزاق والغنائم ، والذين اذا لم تدر عليهم الأموال انسحبوا من المعركة وفتر حماسهم .

قلنا ان موارد الشام المالية كانت بالغة الضخامة ، حتى ان ابن حوقل قدر صافي ارتفاعها في القرن الرابع الهجري بنحو تسعة وثلاثين مليون درهم (٥٣) .

وبين ايدينا قائمتان للخراج اوردهما ابن خرداذبة وقدامة ، فقد بلغ خراج قنسرين والعواصم في قائمة ابن خرداذبة اربعمائة الف دينار (٥٤) او ثلاثمائة وستين الفا بحسب رواية قدامة (٥٥) ، وكان خراج حمص واعمالها حسب رواية ابن خرداذبة (٥٦) ثلثمائة واربعين الف دينار وحسب رواية قدامة (٥٧) مائتي الف وثمانية عشر الف دينار ، فاذا اضفنا ارتفاع الاقاليم الحمدانية الاخرى في سورية الشمالية الى هذه المبالغ استطعنا ان نتصور ما بلغه الامراء الحمدانيون من الغنى والثراء الفاحشين . يقول ابن ظافر (٥٨) انه حين دخل الروم حلب في سنة ٣٥١/٩٦٢م وجدوا في دار سيف الدولة ثلثمائة بدرة من الدراهم اي اكثر من مليوني دينار .

---

(٥٣) ص ١٧٢ — ١٧٣

(٥٤) المسالك والممالك ص ٧٥

(٥٥) الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤٦

(٥٦) ص ٧٥

(٥٧) ص ٢٤٧

(٥٨) ورقة ١١ أ

ب ـ نقود الحمدانيين في الشام

اشرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب (٥٩) الى ان الحمدانيين بدأوا بضرب النقود باسمهم منذ سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م . وتعتبر اقدم النقود الحمدانية الدراهم التي ضربت في نصيبين في هذه السنة (٦٠) . وقلنا ايضا انه حين تولى ناصر الدولة امرة الامراء في سنة ٣٣١ ضرب كثيرا من الدراهم في «مدينة السلام» تحمل اسمه واسم اخيه سيف الدولة (٦١) .

والذي يهمنا هنا ان الحمدانيين في الشام ضربوا نقودا باسمائهم تحمل تارة دلالة الاعتراف بالخلافة العباسية ، وتارة اخرى الاعتراف

---

(٥٩) ص ٣٤٤ وما بعدها .

(٦٠) LANE-POOLE , CATALOGUE P. 336

(٦١) توجد في المتحف العراقي ثلاثة دراهم ضربت في نصيبين في سنة ٣٣٠ هـ ورد فيها :

الوجـه	الظهـر
لا اله الا	الله
الله وحده	محمد
لاشريك لـه	رسول الله
ابو منصور بن	المتقي لله
امير المؤمنين	ناصر الدولة
سيف الدولة	ابو محمد
ابو الحسن	

انظر : مهاب درويش البكري : الدرهم الحمداني المحفوظ في المتحف العراقي (مجلة المورد ، المجلد الاول العدد ٢،١ سنة ١٩٧١ بغداد) .

وقد قامت الباحثة في هذا المقال بوصف الدراهم الحمدانية في المتحف العراقي التي ضربت في : نصيبين والموصل وواسط وحران ومدينة السلام وحماة والرحبة والرافقة والكوفة وميافارقين وحلب (انظر المرجع السابق ص ٢٧ـ٤٦) .

بالخلافة الفاطمية ، وقد ضربت هذه النقـود في حلب او في غيـرها من المدن (٦٢) .

وقد نشر الاستاذ سوفير (٦٣) قطعتين نادرتين من نقود الحمدانيـين تحويهما مجموعته ولهما درهم ضربه سيف الدولة سنة ٣٥٤ بطرسـوس لاباس من وصفه هنا :

الظهـر	الوجـه
الله	لا اله الا
محمـد	لله وحـده
رسول الله	لا شـريك له
صلى الله عليه	سيف الدولة
المطيع لله	ابو الحسن

(بسم الله ضرب) هذا الدرهم بطرسوس
سـنة اربع وخمسين (وثلثماية)
(لله الامر) من قبل ومن (بعد ويومئذ
يفرح المو) منون بنصر (الله)

والدرهم الثاني ضربه سعيد الدولة بحلب سـنة ٣٨٩ هـ وهو كما يلـي :

---

(٦٢) : CODRINGTON . A MANUAL OF MUSULMAN NUMISMATICS, P| 62-191

يوجد في المتحف العراقي درهم من ضرب حماة (رقم ١٠٢٨) يحمل سنة ٣٣٤ هـ وزنه ٣٫٠٤ غم وقطره ٢٧٫٥ ملم ، واخر ضـرب بحلب في السـنة نفسها وزنه ٢٫٨٥٢ غم وقطره ٢٧ ملم .

(٦٣) SAUVAIRE , DEUX DERHAMS , P. 164

الوجـه	الظهـر
لااله الا الله	اللـه
وحده لاشريك له	محمد رسول الله
سعيد الدولة	صلى الله عليه وعلى
ابو الفضـائل	آله الامام (ا بــ) وعلى
بسم الله ضرب هذا الرهم بحلب	الملك (المنصور)
سنة تسع وثمنين وثلثماية	الحاكم بامر الله
لله الامر من قبل ومن بعد .. الخ	امير المؤمنين

وهكذا يظهر لنا الدرهم الاول اعتراف سيف الدولة بانخليفه المطيع على حين يظهـر الثانى خضوع الحمدانيين للفاطميين .

ويذكر الاستاذ كودرنجتون (٦٤) ان الحمدانيين ضربوا كثيرا مـن النقود فى الجزيرة وحلب والرحبة والموصل جاء فيها اسـم سعيد الدولة بعنوان الامير المؤيد . كما ان هناك درهمـا آخـر نشـره الاسـتاذ ليـن بول (٦٥) وقرأه كما يلي :

الوجـه	الظهـر
لااله الا اللـه	محمـد رسـول
وحده لاشريك له	الله صلى الله عليه
ابو المعـالي و	وعلى اله الامام
ابو الحسن ابنـا	المنصور ابو علي
(سيف) الدولة	الحاكم بامـ (ـر الله)
... هذا الدرهم بعد ...	امير المؤمنين

(٦٤) A MANUAL; P. 62-191

(٦٥) CATALOGUE , P. 236

والخطأ الذي وقع فيه الأستاذ لين بول واضح وهو انه أضاف كلمة (سيف) في الوجه في حين انه كان يجب ان يضع كلمة (سعيد) ، وذلك لهذين السببين :

١ ـ ان ابا المعالي شريف وابا الحسن علي هما ابنا ابي الفضائل سعيد الدولة اي انهما حفيدا سيف الدولة وليسا ابنيه كما تصور لين بول .

٢ ـ ان هذا الدرهم ضرب في ايام تبعية الحمدانيين للفاطميين كما يتضح من الاعتراف بخلافة الحاكم الفاطمي على ظهر هذا الدرهم ، وبتعبير آخر بعد دخول هذين الاميرين الحمدانيين في طاعة الفاطميين اي بعد سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠٢ م (٦٦) .

---

(٦٦) انظر الفصل الرابع

الفصل العاشر
الحياة الاقتصادية

١ ـ الزراعة ٢ ـ التجارة : (أ) مراكز التجارة
(ب) طرق المواصلات ٣ ـ الصناعة

١ ـ الزراعـــة

على الرغم من وقوع الفرات شرقي الشام فانها لم تفد منه في الـري لانخفاض مستوى مياهه ، غير انها افادت من نهر العاصي الـــذي يمـــر بحمص وحماة وانطاكية ، ومن انهار بردى والاعوج والازرق وغيرها . على ان هذه البلاد امتازت بكثرة العيون والغيـران والجداول . وكانت الشام مضـرب المثل بخصب تربتها وجودة مناخها وكثرة مياهها . وقد عني المسلمون فيها ـ ومنهم الحمدانيون ـ بالزراعة على عادتهم واشادوا النواعير وطواحين الهواء وجلبوا النباتات الجديدة مثل النخيل والبرتقال والتوت والقطن وقصب السكر والذرة والارز والقمح والخضـروات المختلفة والازهار . وقد اكثر الولاة والحكام المسلمون من الغروس والفاكهة واجروا الماء الى الضياع حتى غدت غوطة دمشق جنة وارفة الظـلال (٦٧) .

اشتهرت حلب بانتاج الغلال من القمح والشـعير والذرة والقطـن والسمسم والبقول والفواكه وبخاصة الكروم والبطيخ والتين والتفـاح

---

(٦٧) خطط الشام ١٤٩/٤

فضلا عن غابات السرو والغار والصفاف (٦٨) • واشتهرت معرة مصرين وجبل السماق من نور حلب بالتين والزيتون والزبيب والفستق والسماق والحبة الخضراء ، وتل اعزن في حلب بالعنب الاحمر ، وكانت بلاد المعرة ذات اشجار يانعة تنتج الزيتون والتين وغيرها من انواع الفواكه • كما انتجت قنسرين ونواحيها الفستق والكروم • وكانت بالس الواقعة على غربي الفرات تنتج كميات كبيرة من القمح والشعير • واشتهرت منبج بكرومها وفاكهتها المجففة كالزبيب والجوز والفستق (٦٩)

ولم تكن العواصم والثغور اقل انتاجا ، فقد اشتهرت انطاكية بمزارعها ومراعيها ، واشتهرت الحدث ومرعش بوفرة فاكهتهما ، والاسكندرونة على البحر الابيض بالنخيل والغلات ، والتينات بخشب الصنوبر ، اما عين زربة فاشتهرت بالنخيل والثمار والمراعي ، كذلك كانت طرسوس التي استحدثها المأمون غنية بزراعة الحبوب (٧٠) واشاد القدماء بفواكه دمشق التي كانت تحمل الى جميع البلدان المجاورة من مصر الى حران واشتهرت انطاكية كذلك بالقمح والشعير وضرب المثل بزيت الشام في جودته ونظافته وكان يحمل الى مصر والحجاز ، ويصنع منه الصابون • كذلك نالت هذه البلاد شهرة ذائعة في اعنابها الكثيرة التي عصر منها الخمر ، وانتشرت مزارع الزعفران لاستخدامه في الاطعمة والاشربة (٧١) • وامتدح المقدسي (٧٢) التفاح الشامي

---

(٦٨) الغزي • نهر الذهب ج١ ص ١١٤ • يقول المقدسي (ص ١٨١ ان القطن كان يجلب من حلب •

(٦٩) انظر ابن حوقل صورة الارض ص ١٧٢ وما بعدها •

(٧٠) ابن حوقل ص ١١٤ ، خطط الشام ١٦٦/٤

(٧١) خطط الشام ١٦٦/٤

(٧٢) احسن التقاسيم ص ١٨٠

«وتين السباعي والدمشقي والعناب والزيتون والاترج والنارنج والجـوز»

ان الاقتصاد الزراعي في بلاد الحمدانيين كان متعدد المصادر ، وقد انتجت لهم البلاد التي دخلت في حوزتهم شتى الحاصلات مثل الحبوب والبقول والاشجار المثمرة وغير المثمرة المختلفة والنخيل والموز والبرتقال في السواحل . والسرو والارز في الوسط والقطن والعنب والكتان والنيلة وقصب السكر والسماق . هذا فضلا عن المراعي التي ربيت فيها الماشية (٧٣) .

---

(٧٣) خطط الشام ١/٥٤

٢ • التجـــارة

ا • مراكز التجارة (ب) طرق المواصلات

(أ) مراكــز التجــارة

كانت حلب اهم مركز لتجارة سورية الشمالية وقد امتازت باسواقها وفنادقها العامرة وتصدير ما تصنعه من الخل والصابـون (٧٤) والقطـــن والثياب التي ذكر المقدسي (٧٥) انها كانت من التجـارات التـي ترتفـــع من هذه المدينة • ولكي نعرف مدى نشاط التجارة بين حلب وانطاكيــــة نرى ان اهتمام الاغريق بهاتين المدينتين لجلب البضائع كان كبيرا جـدا بدليل مانراه من اسماء المواد المستوردة منهما كالذهب والفضه والحرير والجواهر والديباج المزركش والاقمشة المحلية لصناعة الملابس ونسيـــج الكتان والماشية • ولما كانت متاجر حلب تصل الى انطاكية عـن طريـــق الفرات لتصدرها بدورها عن طريق البحر ، غدت هذه المدينة ميناء هاما بل لقد اصبحت من اكبر الموانىء لتصدير بضائع الشرق (٧٦) • ويوجـــه الجغرافيون القدماء نظرنا الى مدينتين تجاريتين مهمتين اولهما اطرابزنده TRIBZONDA وهي طرابزون الحالية الواقعة على البحر الاسود وكانت مثابة لكثير من التجار المسلمين والروم والارمن ، ولما كانت تقع على الحدود الاسلامية البيزنطية اصبحت واسطة عقد السلع المستوردة الى البلاد الاسلامية وفي اسواقها الواسعة المشهورة باع التجـار مختلـف البضائع • وقد قال عنها المسعودي (٧٧) : «ان لها اسواقـا فـي السنـــه

---

(٧٤) ابن حوقل • صورة الارض ص ١٧٧

(٧٥) المقدسي • احسن التقاسيم ص ١٨٠

(٧٦) HAYD, HISTOIRE DU COMMERCE, VOL. 1, P. 43-44

(٧٧) مروج الذهب ٢/٣ (باريس)

يأتي اليها كثير من الامم للتجارة من المسلمين والروم والارمن وغيرهم» • وكانت الثانية ارزن (الروم) وهي مدينة تجارية عظيمة اشتغل اهلها بالتجارة ، فربحوا من السوريين وغيرهم من الاموال من بيع وشراء المتاجر الفارسية والهندية (٧٨ • ومن المدن التجارية بالس التي كانت تنتج القمح والشعير وتصنع الصابون وتمتاز باسواقها التي يقصدها التجار من كل ناحية ، ويروي ابن حوقل (٧٩) ان سيف الدولة كان يعامل التجار بهذه المدينة معاملة قاسية بمعاونة قاضيه ابي حصين الذي نهب من تجارها احمال الرز والزيت وغيرها من متاجر الشام حتى بلغ ماصادره منهم من البضائع ما بلغ ثمنه مليون دينار • ولما كانت منبج وملطية على مقربة من بلاد الروم قامت بهما حركة تجارية نشيطة واشتهرت الاولى بكثرة اسواقها (٨٠) • وكان حصن التينات على البحر الابيض ميناء لتصدير ما انتجه من خشب الصنوبر الذي كان ينقل الى الشام والثغور ومصر (٨١)، وكانت شمشاط ثغر الجزيرة لانها تقع غربي دجلة وشرقي الفرات (٨٢) ، وقد افادت من هذا الموقع في نقل المتاجر ، وقد امدنا الاصطخري بحقيقة طريفة عن تجارة الرقة فقال (٨٣) انها اشتهرت بدهن الخطارة وفيه اعجوبة «انه لايتخذ الا في حانوت بها معروف وان اتخذ في غيره فسد» وهو على حد قوله نافع طيبا •

---

(٧٨) HAYD, HISTOIRE DU COMMERCE, VOL. I, P 44-54

(٧٩) صورة الارض ج١ ص ١٨٠

(٨٠) المصدر السابق ج١ ص ١٨١

(٨١) ابن حوقل . صورة الارض ج١ ص ١٨٠

(٨٢) الاصطخري . مسالك الممالك ص ٧٥

(٨٣) مسالك الممالك ص ١٣٤

ب ، طرق المواصلات

كان للتجارة الاسلامية في العصور الوسطى طرق بحرية واخرى برية ، فقد كانت السفن التي تقصد الشرق للحصول على منتجاته في البحر الابيض ترسو في الموانيء الكبرى كالاسكندرية وبيروت وانطاكية ، كما كانت المتاجرة المجلوبة من وسط اسيا تصل الى موانيء البحر الابيض عن طريق البحر الاحمر والخليج العربي • واهتم البيزنطيون بمدن سورية والعواصم حين كانت من ممتلكاتهم حتى جعلوا من انطاكية اغنى مدة هذا الاقليم واكثرها سكانا وعمرانا ، ولما كان البيزنطيون بحاجة دائمة الى الحرير الذي امتازت سورية بصناعته (٨٤) فانهم فقدوا هذا المصدر حين اصبحت سورية ولاية اسلامية • وكان من اهم الطرق البحرية طريقا البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر فعبرهما كانت تحمل متاجر الشرق وسورية ، كما كان ساحل البحر الاسود الشمالي الطريق الذي يلي في الاهمية (٨٥) ، غير ان البيزنطيين خسروا سيادة هذه البحار في صراعهم مع المسلمين ، واثرت العلاقات العدائية بين الدولتين على التجارة فتوقفت ، غير ان موجة الكراهة اخذت تخف على مر الايام فعاد التجار يقومون برحلاتهم المعتادة بين البلدان الاسلامية والبيزنطية في فترات السلم والهدنة على وجه الخصوص ، ولما كان البيزنطيون بحاجة الى منتجات الشرق كالعقاقير الطبية التي لاغنى عنها ، فانهم اضطروا الى ان يقللوا من كراهيتهم للمسلمين (٨٦) • وكانت هنالك طرق بحرية توصل الى البحر الابيض عن

---

(٨٤) HAYD, HISTOIRE, VOL. 1.P. 19

(٨٥) المصدر السابق ج١ ص ٢٤

(٨٦) المصدر نفسه ج١ ص ٥٢

طريق الفرات ، كذلك وصل التجار اليهود الى حلب وانطاكيه منذ القرن التاسع للميلاد وهم الذين عرفوا الطريق المباشر الى الهند الذى يمر بالاسكندرية والفرما والبحر الاحمر . ومما هو جدير بالذكر ان تجار اليهود الراذانية كانوا يجيدون عدة لغات ، العربية والبيزنطيه والافرنجية والاندلسية والصقلية ويسافرون برا وبحرا من المشرق الى المغرب ، فيجلبون المتاجر كالرقيق والديباج والجلود والفراء والسيوف وكانوا يركبون الى مصر فجدة فى طريقهم الى الشرق الاقصى حيث يحملون منه المسك والكافور والدارصين ، ويعودون الى البحر الاحمر ثم يذهبون الى القسطنطينية فيبيعون سلعهم او يذهبون الى انطاكية ثم ينحدرون الى بغداد فالبصرة (٨٧) .

(٨٧) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ١٥٣-١٥٤

٣ ـ الصناعة

نشطت الصناعة فى العالم الاسلامى منذ القرن الثانى (الثامن الميلادى) فأخذ الصناع المسلمون ينشرون في انحاء العالم مصنوعاتهم الفاخرة • وقد ظلت اوربا فترة طويلة من العصور الوسطى تعتمد فى استهلاكها المحلى على منتجات الشرق من الاقمشة المزركشة والروائح العطرية والحرير الذي تركزت صناعته في سورية (٨٨) •

ومما ساعد على ارتقاء الصناعة وازدهارها في العصر الحمداني تشجيع الامراء والاغنياء واهتمامهم بكل ماله علاقة بالترف كالثياب والسجاد والعطور والزجاج والصياغات •

اختصت كل مدينة بصناعة محلية برع فيها اهلها ، وطارت شهرتها فيها فدمشق اشتهرت بالدمقس وهو النسيج الموشى المنسوب اليها عند الافرنج • وقد نقل الشاميون الى الاندلس صنعة الاقمشة الحريرية والكتانية المزخرفة بالرسوم فنسبت اليهم فسموها Damasser وقد برعت دمشق بقماشها المتعدد الالوان والرسوم ومنه الاطلس والسابوري الملون اللماع والهرمزي • ومن انواع الثياب التي اشتهرت بها دمشق المنير والمعين والمسير والمسهم والمهلهل ، وقد سميت جميع هذه الصناعات الداماسكو الذى يعنى فى الواقع القماش الحريرى الغليظ المنقوش برسوم الازهار والحيوانات • هذا فضلا عما اشتهرت به هذه المدينة من الصناعات القطنية كالشال والقماش الابيض (٨٩) • كذلك برع اهل دمشق في صناعة الشفار والنصال ، والدهان والنسج والدباغة والتنزيل او الترصيع بالصدف

---

(٨٨) ديموبين . النظم الاسلامية ص ٢٥٣

(٨٩) HAYD, HISTOIRE DU COMMERCE, VOL. I, P. 19

فضلا عن الصنائع المعروفة كالصباغة والحدادة والنجارة والخياطة والصياغة والصابون والسروج واللحيم (٩٠) وقد اشتهرت الشفار والنصال الدمشقية التي صنعت منذ عهد بعيد • وكان يؤتى بالفولاذ الهندي الى الشام لتصنع منه النصال للسهام والرماح والسيوف والسكاكين (٩١) • ومما ادى الى انتشار هذه الصناعات كثرة الحديد في جبال الشام • وظلت سيوف دمشق وخناجرها ورماحها مشهورة طوال العصور الوسطى وكانت تكتب عليها آيات واشعار بماء الذهب • وانتقلت صناعة صقل السيوف من دمشق الى الاندلس فسماها الافرنج DOMASQUINAGE (٩٢) اي صناعة التطعيم او التنزيل وهي نقش الحديد بالذهب او الفضة (٩٣) •

وكانت حلب مركز صناعة رائجة فقد ذكر القزويني (٩٤) ان عجائبها سوق الزجاج الذي لا يستطيع الانسان مفارقته لكثرة ما يشاهد فيه من الطرائف والالات اللطيفة التي تحمل الى سائر البلاد والتحف والهدايا وكذلك سوق المزوقين ففيها الات عجيبة مزوقة • واشتهرت منسوجاتها منذ القدم كالثياب البيض والثياب الحقية نسبة الى الحقة لحدى كورها • كما برع اهل حلب بصناعة الشقق الحريرية والقطنية وهي قماش طوله تسعة اذرع وعرضه ذراع ، وقد تفنن صناعه في صبغه وزخرفته • وكانت هذه الثياب «الحلبية» لباسا عاما ، فضلا عن صناعة الشال القطني والحريري والزنانير والكوفيات والشملات • واشتهرت كذلك بالمناديل الحريرية والمقصبة وزركشة القصب والنسيج والتطريز (٩٥) • وقد اشاد المقدسي ببراعة اهل حلب في صنع الانسجة القطنية والثياب

---

(٩٠) محمد كرد علي ، خطط الشام ٤/٢٢١-٢٣
(٩١) البستاني . دائرة المعارف ج١ ص ١٤
(٩٢) محمد كرد علي . خطط الشام ج٤ ص ٢٣٤
(٩٣) نفس المصدر ج٨ ص ١٥
(٩٤) القزويني . اثار البلاد ص ١٢٣
(٩٥) محمد كرد علي . خطط الشام ج٤ ص ٢٣٣

المختلفة (٩٦) • ومما هو جدير بالذكر ان الفضل في ادخال زراعة القطن ـ وبخاصة في الجزيرة ـ يعود الى الحمدانيين مما شجع صناعة الاقمشة القطنية (٩٧) •

راجت صناعة الزجاج والورق في بلاد الحمدانيين فكانت الزجاجة من اقدم الصناعات في الشام ، وبخاصة في حلب التي كانت تصدر زجاجها الى العراق • وكذلك برع اهل دمشق في هذه الصناعة حتى اتخذ الزجاج للزخرفة والزينة وصنع الانية والكؤوس (٩٨) • وقد برعت مدن الشام بصناعة الورق وبخاصة دمشق (٩٩) ، ولا بد ان مدن الشام شهدت اوج هذه الصناعة في القرن الرابع بدليل كثرة التأليف ورواج مهنة الوراقة ، والشعر الحمداني يزخر بذكر الدفاتر والقراطيس والوراقين ، من ذلك قول كشاجم (١٠٠) :

مايكسر الدفتر الا الذي   يرغب في قيمة اوراقه
او عاجز لم يستطع نسخه   فضاق عن اجرة وراقة

وكان الورق يصنع في القرن الرابع في دمشق وطبرية وطرابلس الشام (١٠١) • ورافق هذه الصناعة صناعة الاقلام والمحابر والات الهندسة وآلرسم (١٠٢) •

تمدنا المعاهدة التي عقدت بين قرغويه والروم سنة ٣٥٩

(٩٦) احسن التقاسيم ص ١٨٠
(٩٧) ادم متز . الحضارة الاسلامية ج١ ص ٢٦٢
(٩٨) محمد كرد علي . خطط الشام ج٤ ص ٢٣٨
(٩٩) المدسي . احسن التقاسيم ص ١٤٥ـ١٤٦
(١٠٠) ديوان كشاجم ص ١٣١
(١٠١) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج٢ ص ٢٦٩
(١٠٢) انظر ديوان كشاجم ص ١١ـ١٢

(٩٦٩ـ٩٧٠) بقائمة للبضائع المصنوعة في الشرق والتي كان الروم يقبلون عليها اقبالا كبيرا وهي الذهب والفضة والديباج والسندس والانسجة الكتانية . ذلك ان سورية اشتهرت منذ القدم بصناعة الحرير الرائجة التي ورثها العرب عن البيزنطيين (١٠٣) . ومن هنا غدت صناعة الملابس في البلاد الاسلامية ارقى الصناعات . وكانت البيوت تزين بستور ملونة تعلق على الجدران ، على حين تزين الارض بسجاجيد وبسط دقيقة الصنع . ويقول متز (١٠٤) ان جميع البيوت المترفة امتازت بثلاثة انواع من السجاجيد ، اولها الستور وثانيها البسط وثالثها الانماط تفرش على الارض لتطأها الاقدام .

(١٠٣) HAYD, HISTOIRE DU COMMERCE VOL. I, P. 39
(١٠٤) الحضارة الاسلامية ج٢ ص ٢٥٧

الفصل الحادي عشر

الحياة الثقافية

١ ـ اهتمام الحمدانيين بالثقافة ٢ ـ الشعر ٣ ـ النثر
٤ ـ اللغة والنحو ٥ ـ العلوم العقلية

١ ـ اهتمام الحمدانيين بالثقافة

تميز القرن الرابع الهجري بنمو الحركة الثقافية وانتشارها ، فان ضعف الدولة العباسية وتجزأها الى دويلات صغيرة مستقلة او شبه مستقلة اديا الى قيام عدة بيئات فكرية بفضل تنافس الامراء في جذب رجال الفكر اليهم كوسيلة من وسائل الدعاية والمباهاة . وفي هذا القرن نضج الفكر الاسلامي بسبب ماجد فيه من الثقافات الاجنبية التى نقلت الى العربية فغذت عقول المفكرين . وقد تعددت مراكز الثقافة في العالم الاسلامي ،ففي اصبهان غدا الصاحب بن عباد وزير بني بويه راعيا للادب ورجاله ، واصبحت بخارى حيث اقام السامانيون بلاطهم كعبة الادباء والعلماء ، ولم يكن بلاط خوارزم في خيوة وبلاط الغزنويين في غزنة اقل فضلا على الثقافة ورعايتها ، اما في الغرب فكان الحمدانيون في الموصل وحلب والاخشيديون ثم الفاطميون في مصر والامويون في قرطبة خير رعاة للعلم ورجاله .

كان الأمراء الحمدانيون في مقدمة المهتمين بالثقافة في هذا العصر ، ولا غرابة في ذلك فقد كان بينهم هم انفسهم شعراء وادباء يتذوقون الشعر وينظمونه • واذا كان سيف الدولة معروفا لدى المغربيين بغزواته الرومية الجريئة فان شهرته في الشرق ترجع كذلك الى بلاطه الذي حوى جمهرة من اعظم اهل الفكر يندر ان يجتمعوا في عصر واحد او في صعيد واحد • ويرتبط مجد هذا الامير اشد الارتباط بالمتنبي حتى انه يصعب على الباحث ان يفصل بينهما ، وان رعاية سيف الدولة للمتنبي وابي فراس وغيرهما تفوق في نظر التاريخ جميع حروبه وغزواته مع البريديين والاخشيديين والبيزنطيين •

انجذب الادباء والعلماء الى بلاط سيف الدولة لما تميز به من كرم منقطع النظير وتذوق اصيل لفنون المعرفة • وقد يكون مبعث هذه الرغبة في الكرم حبه للظهور اكثر مما هي رغبة في الكرم لذاته ، وقد يكون حبه لرجال الادب والعلم بسبب ولعه هو في تغذية عقله وتثقيف نفسه• ذلك ان سيف الدولة لم يكن يكتفي بالاستماع الى ما كان ينشد في حضرته ، بل كان مغرما في المشاركة بكل مايقال ، وكان هو الذي يدير دفة الحديث في المجالس الادبية الليلية التي كان يعقدها في قصره • واذا انشد شاعر قصيدة دارت حول موضوعها مناقشة ادبية ولغوية فيأخذ كل من الحاضرين فيها بطرف • وكان سيف الدولة يوجه النقد حتى للمتنبي نفسه وهو ابرع شعراء عصره ، فيدافع هذا عن شعره ويبرر وجهة نظره فاذا اقتنع سيف الدولة اجازه واكرمه (١) • وكثيرا ما يبدأ شاعر نظم صدر لبيت من الشعر فيتبارى الاخرون في اتمامه بما يناسب المعنى •

لانعدو الحق اذا قلنا ان الشام شهدت انشط حركة فكرية في هذا

---

(١) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ١٢–١٣

لعصر فاقت مثيلاتها في امصار العالم الأسلامي الاخرى ، فقد فاقت حركة الشعر واللغة والنحو نظريتها في مصر وربما في العراق ايضا (٢) بسبب ما اثر عن سيف الدولة من كرم مفرط وحب للادب لا يقف عند حده لذلك ذاع صيته وقصده الشعراء والعلماء وكتب اليه المحتاجون منهم في حوائجهم فاحسن اليهم ورفع من قدرهم • ومن امثلة ذلك ان علويا كان يأتيه من جبال خراسان في كل سنة ليتسلم هبة معينة منه ، وفي احدى زياراته كان سيف الدولة على الحدود ، فأمر خازنه ان يعطيه كل ما في خزانته وكان فيها اربعون الف دينار • لكن الخازن اعطى العلوي نصف المبلغ خوف الحاجة الى النقود وهم في ميدان الحرب (٣) • ولم يكن سيف الدولة في جوده وسخائه ينتظر جزاء غير المديح ومطرب الشعر ، فاذا اجاد شاعر في حضرته جاد عليه باكثر مما يتوقع بل باكثر من طاقته احيانا • ومن هنا يمكن القول ان سيف الدولة اشتط في الانفاق كي يرضي رغبته الجامحة في اكرام اهل العلم والادب ، وهي صفة يمكن ان تلصق بجميع حكام ذلك العصر •

ومما يميز الامراء الحمدانيين انهم كانوا مثقفين متعلمين درسوا على اشهر علماء العصر وتخرجوا على اعظم المؤدبين كالزجاج الذي كان معلما لاولاد ناصر الدولة (٤) وابن خالويه معلم آل حمدان عموما (٥) • وكان سيف الدولة اكثرهم ثقافة واشدهم ولعا بفنونها لذلك فتح ابوابه لكل عالم حتى انه «لم يجتمع قط بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر وانما السلطان سوق يجلب اليها ما ينفق

---

(٢) احمد امين . ظهر الاسلام ج١ ص ١٧٧

(٣) SADRUDDIN, SAIFUDDAULAH, P. 147

(٤) ابن النديم . الفهرست ص ٨٦

(٥) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٨٨

لذيها ، وكان أديبا شاعراً محبا لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به وكان كل من ابي محمد عبدالله بن محمد القاضي الكاتب وابي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة الاف بيت» (٦) . وذكر الغزولي حاشية سيف الدولة الادبية فقال (٧) «كان خطيبه ابن نباته الفارقي ومعلمه ابن خالويه ومطربه الفارابي وطباخه كشاجم وخزان كتبه الخالديان والصنوبري ومداحه المتنبي والسلامي والواواء الدمشقي والرفاء والنامي وابن نباته السعدي والصنوبري وغير ذلك» .

ان الذي يقرأ حياة سيف الدولة يعجب كيف استطاع ان يهتم بالثقافة كل هذا الاهتمام برغم حروبه ومشاغله الكثيرة ، لكن الدهشة تزول حين يعلم ان الحروب كانت عاده في الصيف او الربيع ، ويبدو ان سيف الدولة خصص ليالي الشتاء للمجامع الادبية التي كان يعقدها في قصره . كما ان غالب ماانتج من الادب في هذا العصر كان مكملا لحروب سيف الدولة ، وهو ــ ان صح التعبير ــ وسيلة الدعاية له يتغنى بانتصاراته ويبرر هزائمه ويحث الناس على نصرته . ومن هنا يمكن القول ان البلاط الحمداني انتج ادبا ارستقراطيا يعبر عن حياة الامراء واعمالهم ويندر ان يجد ادبا شعبيا يترجم حياة العامة ونوازعهم ، وهذا بالطبع ما تتوقعه من ادباء طامحين كان همهم الحصول على الهبات والعطايا حتى ولو كان ذلك على حساب فنهم وقيمهم .

يصف لنا ابن خلكان (٨) مجلسا لسيف الدولة فتجد انه : كان مجمع الفضلاء في جميع المعارف وان الامير يجلس على مسند في صدر

(٦) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ١١
(٧) مطالع البدور ج٢ ص ١٧٦
(٨) وفيات الاعيان ج٢ ص ١٠١–١٠٢

القاعة وعلى رأسه مماليك يخاطبهم بلغة خاصة لايفهمها احد ، ويجلس دونه الحاضرون من العلماء والادباء حسب مقامهم . وكانت الاحاديث التي تدور في هذا المجلس الليلي متنوعة مختلفة لان سيف الدولة يستطرف كل جديد لذلك كان من حوله يفتنون في الابتكار . واذا اتى احد العلماء بشيء جديد هرع الاخرون الى قراطيسهم واقلامهم ليدونوه. وكان يقدم للحاضرين الطعام والشراب . وحين يتقدم الليل تحضر القيان وكل ماهر في صناعة الغناء . وكان سيف الدولة يغدق على من حوله من اهل الادب الهبات والعطايا ، كل بحسب فضله ونبوغه ، فمنهم الخواص كأبن خالويه والمتنبي وابي فراس والنامي ، ومنهم من يأتي في المكان الثاني وهكذا . ولا عجب اذا زخر بلاط الحمدانيين بالعشرات من البارزين والمغمورين فقد كانوا «ملوكا وامراء اوجههم للصباحة والسنتهم للفصاحة وايديهم للسماحة وعقولهم للرجاجة وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم . وحضرته مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الامال ومحط الرحال وموسم الادباء وحلبة الشعراء» (٩) .

ومما هو جدير بالملاحظة ان سيف الدولة وان كان رجل كر وفر وجد وعمل ، فانه كان مرحا ظريفا يحب اللهو احيانا وخاصة حين يتفرغ من حروب الروم . ومن امثلة ذلك انه اجتاز مرة بشارع دار الرقيق ببغداد ايام توزون ودخل الى دار فيها قيان فسمع وشرب وهم لا يعرفونه وحين خرج كتب رقعة فيها الف دينار على بعض الصيارف (١٠) . ويروي التنوخي (١١) ، انه حين كان يمنح شاعرا هبة يعزل شيئا وراء ظهره

---

(٩) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ١١
(١٠) مسكويه : تجارب الامم ج١ ص ٢٣٩
(١١) نشوار المحاضرة ج١ ص ٢٥٩

فيقول له الرجل : أيش وراء مسورة (١٢) مولانا ؟ فيقول وأيش فضولك ؟ ويأخذ في مداعبة الرجل ومجاذبته حتى يعطيه مابيده وربما زاده عليه • وقداحاط سيف الدولة نفسه بكثير من الندمان واصحاب الدعابة والمجون يستانس بحديثهم في ساعات فراغه نابي نصر ابنصر وابن فاش والبازيار (١٣) • وانه وان كان قلما ينشط للانس فقد افنى شهيرات المغنيات من بغداد وغيرها (١٤) •

ذاع صيت الحمدانيين وانتشر ذكرهم في الآفاق ، فقصدهم كل فذ في الادب والعلم مما جعل بلاطهم يزخر بنخبة من كل بلد وجنس في كل علم وفن حتى قال الخوارزمي (١٥) في رسالته الى ابي محمد العلوي باصبهان «وقد رأيت في هذه الحضرة (يعني باصبهان) اقواما كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصفا عذب وعود الشباب رطب وذكرت بهم مآرب هنالك واياما سلبتها سلبا ونزعت من يدي غصبا ودهرا كأنني كنت اقطعه وثبا فاما رأيتهم قد هاجروا الى هذه الحضرة وجعلوها من بين الدنيا هجرة علمت ان الكرم يتوارث بين الكرام وانه انحدر الى اصفهان من الشام •• وان المغرب لسيف الدولة رحمه اللم والمشرق لحضرة الوزير ايده الله» • وليس هذا عجيبا فقد كان كرم سيف الدولة يضرب به المثل حتى بلد ما جاد به سبعمائة الف دينار (١٦) •

لم تكن حاشية سيف الدولة الادبية منسجمة فقد كان يسودها التحاسد والتباغض، فكثيرا مايثور نقاش علمي في الظاهر وشخصي في الجوهر

---

(١٢) المسورة . هي الكف

(١٣) الطباخ . اعلام النبلاء ج٤ ص ٣٨-٣٩

(١٤) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٢٨

(١٥) رسائل الخوارزمي ص ١٧٤-١٧٩

(١٦) ابن ظافر . الدول المنقطعة (مخطوط) ١٠ أ

ينتهي بخصومات سافرة • وخير مثل لذلك ماوقع بين المتنبي وابن خالويه النحوي حيث وثب هذا على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه، وخرج الشاعر ودمه يسيل على ثيابه (١٧) • وسوف نعرض فيما بعد لهذا العداء الذي قسم حاشية الامير الحمداني الى حزبين قاد اولهما ابو فراس وابن خالويه وقاد الاخر المتنبي والببغاء وغيرهما ، وانتهى بخروج المتنبي من حلب نهائيا •

وكان يلم بمجالس سيف الدولة العامرة هذه شعراء مغمورون طلب للرزق والعطاء فينشدون بين يديه ما تجود به قرائحهم فيمنحهم حسب ما يستحقون • فقد ذكر المؤرخون (١٨) ان الشعراء دخلوا على سيف الدولة فانشدوه على اثر عودته من احد حروبه ، «فدخل معهم رجل شامي فانشده :

وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط

وكنت كسنور عليهم تسقفا

فامر باخراجه لرداءة شعره فقام على الباب يبكي • غير ان سيف الدولة رق له وامر برده وقال له : مالك تبكي ؟ قال : قصدت مولانا بكل ما اقدر عليه اطلب منه بعض ما يقدر عليه فلما خاب املي بكيت • فقال له سيف الدولة : ويلك فمن يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم • وكم كنت املت ؟ قال : خمسمائة درهم فامر له بالف درهم فاخذ وانصرف » •

لانريد ان نسهب القول في ذكر كرم سيف الدولة فكتب الادب حافلة بامثلة جوده ، فقد ذكر انه ضرب دنانير للصلات في كل دينار

---

(١٧) ابن خلكان . وفيات الاعيا ح٢ ص ٤٥

(١٨) الطباخ . اعلام النبلاء ج١ ص ٢٨٥

عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته (١٩) • وانشده الناشيء الاحصى مرة فاعتذر بضيق اليد ولما عاد الشاعر الى منزله وجد على باب داره بغلا عليه عشرة الاف دينار من اموال سيف الدولة منحه اياها وجعلها جائزته (٢٠) • ومنح ابا فراس ضيعة بمنبج تغل الفي دينار لانه وفق في اجازة ابيات له (٢١) • ووصل المتنبي مرة بخمسمائة دينار حين أنشده قصيدته :

على قدر اهل العزم تأتى العزائم
وتاتى على قدر الكرام المكارم (٢٢)

أهدى مرة الى الخالدين وصيفة ووصيفا مع كل منهما بدرة وتخت من ثياب مصر •

كان اكثر بني حمدان شعراء وادباء وقد حفظت كتب الادب كثيرا من شعر سيف الدولة ، وبخاصة الثعالبي الذي اورد له جملة مقطوعات رقيقة منها وصفه لقوس قزح :

وساق صبيح للصبوح دعوته
فقام وفي اجفانه سنة الغمض
وقد نشرت ايدي الجنوب مطارفا
على الجود دكنا والحواشي على الارض
يطوف بكاسات العقار كأنجم
فمن بين منقض علينا منفض

---

(١٩) الثعالبي • يتيمة الدهر ج١ ص ١٥
(٢٠) الطباخ • اعلام النبلاء ج٤ ص ٥٢-٥٣
(٢١) الثعالبي • يتيمة الدهر ج١ ص ١٥
(٢٢) نفس المصدر ج١ ص ١٦

يطرزها قوس الغمام باصفر

على احمر في اخضر تحت مبيض

كاذيال خود اقبلت في غلائل

مصبغة والبعض اقصر من بعض (٢٣)

وله ابيات في ذكر جارية رومية كان يهيم بها (٢٤) :

راقبتني العيون فيك فاشـ

فقت ولم اخل قط من اشفاق

ورأيت العذول يحسدني فيـ

ك مجدا يا أنفس الاعلاق

فتمنيت ان تكوني بعيدا

والذي بيننا من الود باقي

رب هجر يكون من خوف هجر

وفراق يكون خوف فراق (٢٥)

وله في الغزل :

قد جرى في دمعه دمه

فالى كم انت تظلمه

رد عنه الطرف منك فقد

جرحته منك اسهمه

---

(٢٣) نفس المصدر السابق ج١ ص ٢٤

(٢٤) يقول شلمبرجر

UN EMPEREUR BYZANTIN, P. 124

ان هذه الجارية البيزنطية الجميلة كانت بنت احد حكام الروم وقد وقعت اسيرة بيد سيف الدولة فتزوجها وهام بها حبا .

(٢٥) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٢٥

كيف يستطيع التجلد من
خطرات الوهم تؤلمه (٢٦)

غير ان فريتاخ انكر هذه الشاعرية المنسوبة لسيف الدوله حين قال (٢٧) «ان البعض يعد سيف الدولة شاعرا لكن كثيرا من الابيات المنسوبة اليه تنسب في الوقت ذاته الى شعراء اخرين • وربما كانت هذه المقطوعات التي انشدت في مجلسه قد نسبها لنفسه عامدا او غير عامد • وقد اعتبره ابو منصور الثعالبي شاعرا لكننا لا نعده كذلك • وحتى لو كان قد نظم قصائد كثيرة جيدة لحفظها المؤرخون بسبب شهرته وسمعته » • لكن ماذكره فريتاخ وان كان ينطوى على كثير من الحق غير انه قد فاته ان الثعالبى ـ وهو النقادة المجيد ـ كان صغيرا حين توفى سيف الدولة ولم يكن هناك سبب يجعله يتملقه على حين احصى هذا الكاتب زلات المتنبي وهو اكبر شعراء عصره ، كما فات فريتاخ ان الامير الحمداني لم يكن شاعرا محترفا عاكفا على قرض الشعر وانما كان يقول بعض الخطرات في ساعات لهوه وصفوه حين يتفرغ من حروبه ومهام دولته • ومهما يكن من امر فقد كان سيفالدولة ذكيا حلو الحديث ذواقا لجيد الشعر ذا اهتمام كبير بكل ما له علاقة بالثقافة ، وقد اقتنى الكتب النادرة حتى انه اوقف على جامع حلب خزانة للكتب فيها عشرة الاف مجلد ، وكان بالمكتبة السلطانية بالقاهرة نسخة من هيئة اشكال الارض فى طولها وعرضها بالمصورات الفت لسيف الدولة وهي منقولة من خزانة طوب قبو بالاستانة (٢٨) • ومما اثر عنه

(٢٦) نفس المصدر ج١ ص ٢٦

(٢٧)

(٢٨) الطباخ اعلام النبلاء ج١ ص ٢٨٠

في هذا الصدد انه اقتنى كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني بالف دينار واعتذر عن قلة المبلغ (٢٩) •

وكان سيف الدولة يعرض العلماء بحضرته الى امتحانات عسيرة في الادب والنحو • ومن امثلة ذلك انه سألهم يوما عن اسم ممدود رجعه مقصور وحين اتى ابن خالويه باسمين نال الف درهم (٣٠) • وذكر ابو علي الصقلي انه كان في مجلس ابن خالويه اذ وردت عليه من سيف الدولة مسائل تتعلق باللغة فاضطرب ودخل خزانته واخرج لها الكتب • وحين قصد ابا الطيب اللغوي وجده يجيب على نفس المسائل (٣١) • ويروي ابن خالويه (٣٢) انه دخل على سيف الدولة يوما فقال له : اقعد ولم يقل اجلس « فتبينت اعتلاقه باهداب الادب واطلاعه على اسرار كلام العرب ، لان اهل الادب يقولون للقائم اقعد وللنائم والساجد اجلس » •

كذلك اثر عن امراء الحمدانيين الاخرين اهتمام بالثقافة وان كان لا يعد شيئا مذكورا بجانب اهتمام سيف الدولة • فالى جانب ابي فراس الحمداني الشاعر المشهور ــ الذي سيرد ذكره ــ نجد ان ابا تغلب بن ناصر الدولة كان اديبا شاعرا ، فقد ذكر انه وجدت له ابيات شعر منقوشة على حائط قصر العباس بن عمرو بين سنجار ونصيبين بخطه (٣٣) وذكر له الثعالبي مقطوعة (٣٤) منها قوله :

---

(٢٩) ياقوت . معجم الادباء ج١٣ ص ٩٧ــ٩٨
(٣٠) السيوطي . بغية الوعاة ص ٢٣٢
(٣١) الطباخ . اعلام النبلاء ج٤ ص ٣٥ــ٣٦
(٣٢) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ج١ ص ١٩٧
(٣٣) ابن شاكر . فوات الوفيات ج٢ ص ١٣٥
(٣٤) يتيمة الدهر ج١ ص ٦٣

لا والذي جعل الهـوا — لي في الهوى خدم العبيـد
واصار في ايـدي الظبا — ء قياد اعنـاق الاسـود
واقام الويـه المنيـة — بيـن امينـة الصـدود
مالورد احسن منظـرا — من حسن توريد الخدود

وكان ابو المطاع ذو القرنين بن ناصر الدولة شـاعرا ظريفا حسـن السبك جميل المقاصد وهو الذى عاش في مصر وتوفى بهـا فى سـنة ٤٢٨ هـ (٣٥) .

واذا كان جل حديثنا عن سيف الدولة دون غيره من امراء الحمدانييـن فلأن عهده كان يمثل في الواقع عهد ازدهار الثقافة حتى ضاهـى بلاطـه بلاط بغداد ونافسه ، وغدت حلـب بفضلـه عاصمـة للعلـم والفـن فـي القرن الرابع . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى شغل ناصر الدولة واولاده انفسهم فى الحرب والمنازعات فلم يتح لهم ذلك وقتا للاهتمـام بالثقافة . كما ان الحمدانيين فى الموصل مثلوا روح البداوة العـربية فلم يقيـموا بلاطا فخما ولم يحيطوا انفسهم بحاشية ادبية كبيرة . ومع ذلـك نجـد بينهم شعراء كأبي زهير مهلهل بن نصر بن حمدان وابي العشائر الذي قصده المتنبي قبل ان يتصل بسيف الدولة ، وابي وائل تغلـب بـن داود بـن حمدان وحمدان الموصـلى وابى المطـاع .

لقد طار صيت سيف الدولة فى عالم الادب حتى افرد له بديـع الزمان الهمداني مقامة سماهـا «الحمدانيـة» (٣٦) وهـي وان كانـت

(٣٥) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٢٢٧
(٣٦) مقامات الهمداني ص ٥١ـ٥٣

ضربا من الخيال الا انها تدل على مكانة هذا الامير وشهرته لدى اهل الادب • فقد تخيل الهمذاني انه حضر مجلس سيف الدولة يوما وعرض عليه فرس اصيل فقال لمن حوله «ايكم احسن صفته جعلته صلته • فكل جهد جهده • وبذل ماعنده • فقال احد خدمه اصلح الله الامير رأيت رجلا يطأ الفصاحة بنعليه وتقف الابصار عليه يسأل الناس ويسقي اليأس • ولو امر الامير باحضاره لفضلهم بحضاره • فقال سيف الدولة علي به في هيئته • فصار الخدم في نلبه ثم جاؤا للوقت به فقال له سيف الدولة بلغتنا عنك عارضة فاعرضها في هذا الفرس ووصفه ••» (٣٧) ولما جاد الرجل في وصف الفرس قال له سيف الدولة «لك الفرس مباركا فيه (٣٨) •

٢ ـ الشعر

نهض الشعر نهضة قوية في العصر الحمداني فقد امتلأ بلاط سيف الدولة بكثير من الشعراء الذين قصدوه من كل حدب وصوب حين ذاعت شهرته وعرف سخاؤه • واجتمع فى هذا البلاط من الشعراء البارزين المتنبي وابو فراس والصنوبري والنامي والسري الرفاء وكشاجم والوأواء والببغاء والخالديان ومنصور واحمد ابنا كيغلغ وابو محمد جعفر وابو احمد عبدالله ابنا ورقاء والشيظمي وابو ذر وابو الفرج المجلسي والخليع والشامي وابو طالب الرقي والناشيء الاصغر والزاهي وابو الرقعمق والواساني والبكتمري وغيرهم كثيرون •

---

(٣٧) مقامات الهمذاني ص ٥٢ـ٥٣
(٣٨) نفس المصدر ص ٥٢ـ٥٣

وهؤلاء في مجموعتهم يمثلون كل لون من الوان الشعر التي تميز بها القرن الرابع فبينما كان المتنبي وابو فراس يمثلان شعر الحرب والملاحم ، مثل الصنوبري وكشاجم شعر الطبيعة وتغنيا بجمال الازهار والانهار والسماء والماء ، على حين برع الوأواء الدمشقي في نظم المقطوعات الصغيرة في الاغراض العامة ، وكان السري الرفاء شاعرا شعبيا وصف الحمامات والحانات والصيادين والاطباء والحلاقين .

ولانعدم بين هذه المجموعة الضخمة شعراء المديح والرثاء والهجاء والمجون والغزل . وبينما يصل المتنبى الى ارفع درجات التجويد فى اسلوبه جزالة وفخامة ، يرق اسلوب الصنوبري حتى لكأنه انغام موسيقية ، على حين يسف الواساني ويبتذل ويكاد ينهم بلغة السوقة . فشعراء البلاط الحمداني درجات في الاغراض والاسلوب وسنحاول في انصفحات القادمة ان نقدم دراسات موجزة لاشهرهم لانهم كانوا جزء لايتجزأ من تاريخ الدولة الحمدانية وهى بحق «دولة الحرب والشعر» .

كان ابو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان من المع شعراء البلاط الحمدانى واقربهم الى قلب سيف الدولة ابن عمه . وهو من ام رومية ولد سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢م) وقيل ٣٢١ هـ (٣٩) وقد مر بنا ان اباه سعيد قتله غدرا ابن اخيه ناصر الدولة سنة ٣٢٣ ، فحضنت ابا فراس امه وتنقلت به في مواطن الحمدانيين : امد وميافارقين وماردين والرقة ولعلها اقامت بالموصل والرقة (٤٠) . وتربى ابو فراس في ظل عطف سيف الدولة الذي اعجب به وقربه اليه وحمله مع اسرته الى حلب سنة ٣٣٣ وهو فى الثالثة عشرة ، فسلمه الى الفرسان يعلمونه صناعة

---

(٣٩) ابن خلكان . وفيات الاعيان ح١ ص ١٥٩
(٤٠) ديوان ابي فراس (مقدمة) ص ١٠

السيف والى المؤدبين يعلمونه صناعة القلم كابي ذر الشاعر وابن خالويه . كما اصطحبه في غزواته واستخلفه على اعماله فجمع الشاعر بين ادبي السيف والقلم (٤٩) وتأدب بادب سيف الدولة واخذ باخلاقه «مع ملاحظة خط وترسل وشعر في غاية الجودة» (٥٠) .

تصدى ابو فراس لرد غارات الروم فاسروه بوقعه مغارة الكحل سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩م) وهو جريح قد اصابه سهم فنقلوه الى خرشنة . وهي قلعة ببلاد الروم على الفرات قرب ملطية . وقد اورد ابن خلكان روايتين عن خلاصة من الاسر اولاهما ان سيف الدولة فداه والثانية انه ركب فرسه فاهوى به من اعلى الحصن الى الفرات (٥١) ، وهي رواية اسطورية كما يبدو . وحين خلاصه من الاسر قلده سيف الدولة منبج وحران واعمالهما فخرج ابن اعور (٥٢) في جيش بيزنطي الى منبج حيث لاقاه ابو فراس فى عدد يسير فاسر ثانية فى شوال سنة ٣٥١ (٥٣) وحمل الى القسطنطينية فاقام في الاسر اربع سنين حتى فداه سيف الدولة (٥٤) .

قاسى الشاعر في الاسر اشد الالام النفسية فاخذ يكاتب سيف

---

(٤٩) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٢٧

(٥٠) التنوخي . نشوار المحاضرة ج١ ص ١١٠

(٥١) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ١٥٨

(٥٢) ابن اعور يسميه ابن خالويه بودرس بن مرديس . ويسمى ابوه مرديس كذلك قودس الاعور او تودس او اعمور جرم او اعوج ومرديس هذا هو قريب برداس فوقاس ونقفور ولديه ثلاثة اولاد اسر احدهم سنة ٣٤٣ وقتل الثاني عند فتح الروم حلب سنة ٣٥١ ويبدو ان الثالث هو الذي اسر ابا فراس .

(٥٣) ابن ظافر . الدول المنقطعة (مخطوط ورقة ٩ ب)

(٥٤) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ١٥٨

الدولة يتوسل اليه ان يفديه فيأبى هذا مع شدة حبه له لانه كـان يريـد ان يجعل الفداء لعامة المسلمين وليس لابن عمه وحده (٤١) . حتى اذا ما يئس الاسير كتب الى ابن عمه : ان ثقل هذا المال على الامير سيف الدولة كاتبنا فيه صاحب خرسان فقال سيف الدولة : ومن اين يعرفه اهل خرسـان ؟ (٤٢) فكتب اليه قصيدته :

اسيف الهدى وقريع العـرب ... الام الجفـاء وفيـم الغضـب
وما بال كتبك قـد اصبحـت ... تنكبني مع هـذى النكـب
وان خراسـان ان انكـرت ... عـلاي فقد عرفتهـا حلـب
فلا تعدلن فداك ابن عمك لا بـل ... غلامـك عمـا يجـب (٤٣) .

كان ابو فراس شاعرا حساسا وشابا عزيز النفس لذلك فاضت همومه واحزانه وانتابته العلل في الاسر فنظم قصائده الحزينة المتألمة «الروميات» التي تزخر بالوجد والحنين الى امه واهله واحبابه وهي غرر شعر ابـي فراس . منها قوله يخاطب سيف الدولة :

---

(٤١) التنوخي . نشوار المحاضرة ح١ ص ١١١-٢

(٤٢) كانت خراسان في هذا الوقت تحت حكم السامانيين وكـان اميرهـا ابو صالح منصور بن نوح والذي يتتبع اخبار هذه الدولة سـنة ٣٥١ يجدها في حالة تفكك وصراع داخلي لذلك لاعتقد ان ابا فراس كان جادا في عزمه على الكتابة الى «صاحب خراسان» . ومع ذلـك يجب ان نعلم ان الخراسانيين كانوا من احرص المسلمين على الجهـاد وقد اشرنا في الباب الثاني الى انهم خرجوا مـرة للهجـاد ضـد الروم في عشرين الفا كما خرجـوا سـنة ٣٥٢ فـي ثمانيـة الاف مجهزين باحسن العدد مما دعا ابن نباتة الخطيب الـى ان يؤلف خطبة في وصفهم والثناء عليهم (خطب ابن نباته ص ٢٠٢-٢٠٧)

(٤٣) ديوان ابي فراس ح٢ ص ٣٦-٣٧

هل تعطفـــان على العليل

لا بالاسير ولا القتيل (٤٤)

والى امه :

لولا العجـــوز بمنبـــج

ما خفت اسباب المنية (٤٥) .

وقال وقد حضر العيد :

ياعيد ماعــدت بمحبوب

على معنى القلب مكروب (٤٦)

وقال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة :

اقول وقد ناحت بقربي حمامة

ايا جارتا هل بات حالك حالــي (٤٧)

وبلغ ابا فراس ان امه الحزينة الوالهة التى امضها انتظاره قصـــدت سيف الدولة من منبج تسأله مفاداة ابنها متضرعة بدموعها اليه فلم يجبها الى رجائها ، وصادف ذلك ان لقي الشاعر الاسير معاملة سيئة من الدمستـــق هو ومن معه من الاسرى (٤٨) ، فكتب الى سيف الدولة قصيدة متألمـــة اولهـــا :

---

(٤٤) ديوان ابي فراس ج٢ ص ٣٢٩-٣٢٣

(٤٥) نفس المصدر ج٢ ص ٤٣٣

(٤٦) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٥٣

(٤٧) ديوان ابي فراس ج٢ ص ٣٢٥

(٤٨) احفظ ابو فراس الدمستق في مناظرة جرت بينهمـــا فقـــال لـــه الدمستق (وهو نقفور فوكاس) انما انتم كتاب اصحاب اقلام واستم باصحاب سيوف ومن اين تعرفون الحروب فقـــال له ابـو فراســـ : نحن نطأ ارضك منذ ستين سنة بالسيوف ام بالاقلام ؟ ثم قال في ذلك =

يا حسرة ما أكاد احملها آخرها مزعج واولها
حزينة بالشام مفردة بات بايدي العدا معللها (٥٥)

ولعل القاريء يتساءل لم امتنع سيف الدولة عن فداء ابن عمه الاسير . والجواب ان هنالك ثلاثة اسباب اولها ان الامير الحمداني كان يقاسي صعوبات جمة في مملكته ، فقد ظهر تفوق الروم عليه سنة ٣٥١ واحتلوا حلب ونهبوا امواله . وثانيها انه كان يريد ان يفتدي جميع الاسرى ، وثالثها هو غضبه على ابي فراس لتهوره واندفاعه ، لذلك اجاب امه حين طلبت مفاداته «ولدك ابن عمي وخال اولادي ولكن انا عجزت . وانا انصحه انه لا ينزل الى الميدان عند وقوع الحرب لانه امير سردار وليس للسردار شجاعة

اتزعم يا ضخم اللغاديد اننا ونحن اسود الحرب لانعرف الحربا
وويلك من اردى اخاك بمرعش وجلل ضربا وجه والدك العضبا
فسل بردسا عنا اباك وصهره وسل آل برد اليس اعلمكم خطبا
وسل قرقوسا والشمشق صهره وسل صهره البطريق اثبتكم قلبا
وسل صيدكم ال الملايين اننا نهبنا بيض اللهند عزهم نهبا
وسل ال بهرام وال بلنطس وسل ال منوال الجماجمة الغلبا
وسل بالبرطسيس العساكر وسل بالمنظر باطس الروم والعربا

وفيما يلي ثبت باسماء القواد الروم التي وردت في هذه القصيدة كما يسمون في المراجع الافرنجية .

١ ـ بردس	BARDAS	٦ ـ بهرام	BAHRAM
٢ ـ برداليس	PASTILAS	٧ ـ بلنطس	BALENTES
٣ ـ قرقواس	CARCUAS	٨ ـ منوال	MANUEL
٤ ـ الشمشيق	TZIMESCES	٩ ـ البرطيس	BURTZES
٥ ـ الملاين	MALLEINES	١٠ ـ المنسطر باطس	MONASTERIOTES

ديوان ابى فراس ح٢ ص ٣٦ ـ ٣٧
(٥٥) نفس المصدر ح٢ ص٣٣٠ ـ ٣٣٤

الا بثيابه تحت علمه ، وقد فديته قبل هذه مرتين (٥٧) » ، وهكذا ظل ابو فراس في الاسر حتى اجرى سيف الدولة فداء عاما سنة ٣٥٥ هـ .

توفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ فتفرقت جيوشه وضعفت مملكته واستبد غلامه قرغويه بابنه سعد الدولة الى حد انه افسد مابينه وبين ابي فراس فاصطدم معه في ضيعة صدد قرب حمص حيث قتل ابو فراس في ٢ جمادي الاول سنة ٣٥٧ (٥٨) ، وهناك قصيدة لابي اسحق الصابي في رثائه تدل على صحة رواية قتله (٥٩) ، وذكر ابن خالويه (٦٠) ان اخر ما قاله ابو فراس هذان البيتان في مخاطبة ابنته :

أبنيتي لا تجزعي ... كل الانام الى ذهاب
زين الشباب ابو فراس ... لم يمتع بالشباب

لم يترك ابو فراس شعره مجموعا فجمعه ابن خالويه وشرحه فاصبح ديوانا متوسط الحجم (٦١) ، واذا تصفحنا هذا الديوان وجدنا شخصية ابي فراس تترك اثرا قويا واضحا في جميع شعره الذي هو اقرب مايكون الى اليوميات التي ارخ بها احداث حياته ، وهو شعر عربي خالص يتغنى بمفاخر الحمدانيين وامجادهم وحروبهم مع الخوارج والقرامطة والقبائل العربية ، لكنه للاسف لم يوفق في تصويره حروب سيف الدولة مع الروم مع انه شهدها واشترك فيها ، فكانت اشعاره في هذا الصدد باهتة لاتستطيع ان تقف بجانب ملاحم المتنبي ، لذلك يعد هذا الديوان جريدة

---

(٥٧) القرماني . اخبار الدول ص ٢٦٥
(٥٨) ابن ظافر . اخبار الدول المنقطعة ورقة ١٦ ب
(٥٩) الثعالبي . اليتيمة ج١ ص ٧٠
(٦٠) ديوان ابي فراس ج٢ ص ٤٧
(٦١) نشره الدكتور سامي الدهان وقدم له بمقدمة طويلة وزوده بهوامش وشروح قيمة وهو من منشورات المعهد الفرنسي بدمشق (بيروت ١٩٤٤)

يومية لحياة ابي فراس وقومه (٦٢) • ولما كان ابو فراس أميرا فانه ترفع عن الاستجداء ومدح الملوك والامراء ، فاوقف شعره على التغني باسرته ، وعلى تصوير عواطفه ووصف مجالس الانس والسرور والصيد والاخوانيات • وكانت «الروميات» احسن شعره وتليها قصائده في افاخر اما ما عدا ذلك فسمر اعتيادي (٦٣) • وثمة ناحية بارزة في شعر ابي فراس هي تشيعه الظاهر الذي ضمنه كثيرا من قصائده في مدح ال البيت والمطالبة بحقوقهم والانتقاص من قدر الامويين والعباسيين (٦٤) •

---

(٦٢) ديوان ابي فراس (المقدمة ص ١٦

(٦٣) البستاني . ابو فراس ص ٣٢٥-٣٢٩

(٦٤) له قصيدة طويلة في التشيع منها قوله :

الدين مخترم والحق مهتضم   وفيء ال رسول الله مقتسم

بنو علي رعايا في ديارهم   والامر يملكه النسوان والخدم

قام النبي بها يوم الغدير له   والله يشهد والافلاك والامم

حتى اذا اصبحت في غير صاحبها   باتت تنازعها الذؤبان والرخم

ثم ادعاها بنو العباس ارثهم   وما لهم قدم فيها ولا قدم

• الديوان ح٢ ص ٣٤٨-٣٥٦

كان المتنبي اشهر شاعر ضمه بلاط الحمدانيين ، بل هو من اعظم شعراء العربية قاطبة ، وهناك من يضعه في المقدمة على الاطلاق . وكان يمثل طريقة العرب القدماء في النظم ويعتبر مثالا للفيلسوف الذي يبحث عن الحقائق الكلية ، غير انه على اعراضه عن شعر المحدثين تأثر بابن المعتز واخذ عنه (٦٥) . ويمكن القول انه ليس هناك من الشعراء من اثار الضجة التي اثارها ابو الطيب المتنبي في مختلف العصور لقوة شخصيته وعمق شعره وبعد اغراضه ، لذلك يستحق منا هذا الشاعر الفحل شيئا من الاهتمام لقيمته التاريخية في تصوير عصر الحمدانيين .

المتنبي هو ابو الطيب احمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي (٦٦) . الكندي الكوفي (٦٧) وقيل احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار (٦٨) . ولد في محلة كندة بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥م) من اب سقاء يدعى عبدان السقا وام همدانية يمانية ، وان كان المتنبي يكتم نسبه ولا يشير في شعره الى ابيه مما دعا الناس الى اتهامه في نسبه (٦٩) .وامتاز ابو الطيب في صباه بالذكاء وقوة الحافظة وحب العلم وصحب الاعراب وعاد الى الكوفة فتعلم القراءة والكتابة ولزم اهل العلم والادب (٧٠) . ثم لازم الوراقين يقرأ كتبهم ويستوعب ما فيها حتى روي عنه قصص كثير يدل على قوة حافظته (٧١) . ويقول المؤرخون

---

(٦٥) ادم متز . تاريخ الحضارة الاسلامية ج١ ص ٤٤٨

(٦٦) بطن من سعد العشيرة من القحطانية

(٦٧) البديعي . الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ص ٢٠

(٦٨) ابن خلكان . وفيات الاعيان ٢/٤٤

(٦٩) البديعي . الصبح المنبي ص ٢٠

(٧٠) طه حسين . مع المتنبي ج١ ص ١٧ــ١٨

(٧١) نفس المصدر ص ٢٠ــ٢١ . وقد قال احد الوراقين ــ (ما رايت احفظ من ابن عبدان قط) .

انه تعاطى قول الشعر صبياً حتى بلغ فيه الغاية وفاق اهل زمانه (٧٢) ، ثم سار به الى الشام فتنقل في بدوها وحضرها وتردد على مكاتبها (٧٣) .

وقع ابو الطيب تحت تأثير الشيعة وربما الزيدية منهم . ولعله كان بينه وبين العلويين نوع من العلاقة الروحية المعروفة في بعض الفرق الشيعية وما تفرع منها كالاسماعيلية والقرامطة . (٧٤) بل يقال انه درس في مدرسة من مدارس العلويين ولعله تلقى اصول الدين على المذهب الشيعي (٧٥) . ومما اثر في شعر ابي الطيب وفلسفته اتصاله في البادية بأحد من دعاة القرامطة ، ويبدو انه حين عاد الى الكوفة اخذ ينشر مبادىء القرامطة ، ثم سافر الى بغداد لامر يتصل بهذه الدعوة (٧٦) . وقد اثر كل ذلك في تفكيره وعقيدته الدينية فانعكست القرمطية في شعره .

كان المتنبي محبا للرياسة والولاية والرفعة ، وهو يظهر ويعلن ما يضمر من الامال الكبار ويصارح في الخروج على السلطان والاستيلاء على بعض الاطراف (٧٧) . وقد دفعته هذه الرغبة القوية الى ان يسلك سبلا غريبة ، فادعى النبوة في صباه في بادية السماوة . واخذ يوهم اهلها من الاعراب بانه اوتي من المعجزات ما اوتى الانبياء ، منها

---

(٧٢) البستاني . ابو الطيب المتنبي ـ المدائح والاهاجي ص ٤
(٧٣) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٣ ص ٣٤٠ ، الواحدي شرح ديوان المتنبي ج١ ص ٥ ، يتيمة الدهر ١/١٢٨
(٧٤) دائرة المعارف الاسلامية ج١ ص ٣٦٤
(٧٥) البستاني . ابو الطيب المتنبي ـ المدائح والاهاجي ص ٤
(٧٦) طه حسين . مع المتنبي ج١ ص ٥١
(٧٧) الثعالبي يتيمة الدهر ١/١٢٩ـ١٣٠

أن الارض تطوى له بحيث يقف على أخبار هذه الملة او تلك ، وانه يحبس المطر اذا شاء (٧٨) • بل قيل ان ابا الطيب ادعى بانه يوحي اليه وانه انتحل كلاما جعله قرآنا له (٧٩) • وقد تبع المتنبي كثير من بني كلب فخرج اليه لؤلؤ امير حمص ونائب الاخشيد وحبسه ثم استتابه واطلقه• (٨٠) غير ان المتنبي نفسه كان ينكر ما نسب اليه من ادعاء النبوة يجحده في مجلس سيف الدولة (٨١) • ويشك بعض الباحثين في دعوى النبوة وانها قصة رواها عن ابي الطيب جماعة من اهل عصره اكثرهم من خصومه وحساده (٨٢) • ومهما يكن من امر فان الذي يستخلص من الاقوال المتباينة ان منهم من قال ان المتنبي ادعى النبوة ، ومنهم من قال انه ادعى انه علوي • ويستطرد الاستاذ جبري قائلا : «والذي يقع في خلدي ان الرجل شغله حب الملك قبل اعتقاله اي قبل ان تشيع دعوى من الدعاوى

---

(٧٨) البديعي . الصبح المبني ص ٥٣

(٧٩) يقول البديعي ص ٥٣ عن رواية لابي عبدالله معاذ بن اسماعيل اللاذقي : ان هذا خلا بالمتنبي فقال له : والله انك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير . فقال : ويحك اتدري ماتقول ؟ انا نبي مرسل . . فقلت له : مرسل الى من ؟ فقال : الى هذه الامة الضالة المضلة . قلت تفعل ماذا ؟ قال املأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا .. ويروي البديعي ان المتنبي ادعى بانه يوحى اليه وانه قرا على اللاذقي هذا كلاما ما مر بسمعه احسن منه — على حد قوله — يقول اللاذقي — فقلت وكم اوحي اليك من هذا ؟ فقال مئة عبرة واربع عشر عبرة .. قلت: في كم مدة اوحي اليك : فقال جملة واحدة .

(٨٠) ابن خلكان . وفيات الاعيان ٤٥/١ ويروى البديعي (ص ٥٩) ان الذي قبض عليه ابو علي الهاشمي في قرية كوتكين من اعمال حمص ، وقد وضع في رجليه وعنقه قطعا من حشب الصفصاف واعتقله في الحبس

(٨١) التنوخي . نشوار المحاضرة ج١ ص ١١٤

(٨٢) شفيق جبري نبوة المتنبي . مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) م١٠ ج٧/ص ٣٨٧ — ٨٩

المذكورة ... وقد شغلته هذه الاماني كل عمره فلا يبالي بالطرق التي من نحوها يأتيه هذا الملك طريق النبوة ام العلوية» (٨٣) .

كان شعر المتنبي في المرحلة الاولى من حياته يهدف الى الحصول على المال ، فقد كال المدح والثناء لكل من نفحه الثمن حتى انه نال دينارا واحدا عن قصيدته «الدينارية» في مدح علي بن منصور الحاجب (٨٤) . لكن مجده بدأ في البزوغ منذ رحل الى انطاكية بعد خروجه من الحبس ، واتصل باميرها ابي العشائر الحمداني فقربه واكرمه ، ثم قدمه الى سيف الدولة فضمه في سنه ٣٣٧/٩٤٨م الى حاشيته الادبية (٨٥) . ويقال ان المتنبي اشترط على سيف الدولة منذ البداية انه ينشد مديحه وهو قاعد ولا يقبل الارض بين يديه (٨٦) .

ومنذ ذلك الحين انقطع ابو الطيب الى سيف الدولة ووجد عنده ما يلائمه من جو عربي بطولي هو الذي اوحى اليه بملاحمه العظيمة ؛

(٨٣) يقول الاستاذ شفيق جبرى في بحثه المشار اليه الى مقال نشره الاستاذ عباس محمود العقاد في البلاغ بعنوان هل تنبأ المتنبي ؟ نسب فيه الى ابي العلاء المعرى الشك فى دعوى نبوة المتنبى ويستطرد انه رجع الى ابى العلاء فلم يجد انه شك فى هذه الدعوى .

(٨٤) يتيمة الدهر ١٣٢/١ .

(٨٥) الصبح المبني ص ٧١ كذلك انظر محمد كمال حلمي – ابو الطيب ص ٤٥

(٨٦) كان اول ما انشده المتنبي في مدح سيف الدولة (من قصائده المسماة السيفيات) القصيدة التى اولها :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه | بان تسعدا والدمع اشفاه ساجمه
بليت بلى الاطلال ان لم اقف بها | وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

وقد اثار هذا البيت الاخير اعجاب ابى العلاء المعرى فوضع المتنبى فوق ابي نواس والبحتري وابي تمام واخذ ينعته «الشاعر» (البديعى ص ٧٢)

فضلا عن النعم والهبات التي اغدقها عليه .

رافق المتنبي سيف الدولة في غزواته وارخها في شعره ، وقد اصبح شعر الحرب في مقدمة شعر هذا الشاعر حتى اصبح يستحق النعت الذي اطلقه عليه المعاصرون بانه «قائد عسكر» (٨٧) وبانه اختص بالابداع في مواضع القتال (٨٨) . ان ابا الطيب ــ في ملاحمه ــ ينقل القاريء حقا الى ميدان المعركة ليستمع الى صليل السيوف وقراع القنا وصهيل الخيل ويشهد الجرحى والقتلى المضرجين بالدماء (٨٩) . وقد صحب ابو الطيب الامير الحمداني حتى في احرج غزواته واكثرها خطورة ، ويروي انه صحبه في غزوة «القنا» التي لم ينج منها الا سيف الدولة وستة انفار احدهم المتنبي واخذت الطرق عليهم الروم فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وخرق الصفوف وبدد الالوف (٩٠) . وقد حكى الرقي ــ قاضي سيف الدولة ــ فقال : (٩١) كان المتنبي يسوق فرسه فاعتلقت بعمامته طاقة من الشجر المعروف بام غيلان ، فكان كلما جرى الفرس انتشرت العمامة . وتخيل المتنبي ان الروم قد ظفرت به فكان يصيح : «الامان يا علج» قال سيف الدولة : فهتفت به وقلت : «ايما علج»؟ هذه شجرة علقت بعمامتك فود ان الارض غيبته فقال له ابن خالويه :

---

(٨٧) قال الشريف الرضي (توفى ٤٠٦هـ) . «اما ابو تمام فخطيب منبر واما البحتري فواصف جوذر ، واما ابو الطيب المتنبي فقائد عسكر » . (الصبح المبني ١٧٩) .

(٨٨) ابن الاثير . المثل السائر ٣٦٨/٢ (طبعة الحلبي سنة ١٩٣٩)

(٨٩) مصطفى الشكعة . سيف الدولة الحمداني ص ٢٠٢

(٩٠) الصبح المنبي ص ٧٨

(٩١) نفس المصدر ص ٧٨-٧٩

«ايها الامير : اليس ان ثبت معك حتى بقيت في ستة انفار تكفيه هذه الفضيلة (٩٢) .

وفي ايام السلم نعم المتنبي بحياة رغيدة في ظل الامير الحمداني وشارك في لهو البلاط ، ونظم المدائح والمراثي في اقرباء سيف الدولة ، الذي اغدق على شاعره الاثير ايما اغداق وملأ جيوبه بالعطايا والهبات . وقد روى الثعالبي (٩٣) ان المتنبي حين انشد سيف الدولة قوله :

اقل انل اقطع احمل عل سل اعد
زد هش بش تفضل ادن سر صل

« وقع تحت اقل قد اقلناك وتحت انل يحمل اليه من الدراهم كذا وتحت اقطع قد آقطعناك الضيعة الفلانية ضيعة ببلاد حلب وتحت احمل يقاد اليه الفرس الفلاني وتحت عل قد فعلنا وتحت سل قد فعلنا فاسل ، وتحت اعد اعدناك الى حالنا من حسن راينا وتحت زد يزاد كذا وتحت تفضل قد فعلنا وتحت ادن قد ادنيناك وتحت سر قد سررناك ..» . وهذه القصة ان صحت فانما تدل على جشع ابى الطيب من ناحية ، واسراف سيف الدولة وسخائه من ناحية اخرى . ومما يدل على تقدير سيف الدولة لابي الطيب انه اذن له ان ينشده وهو قاعد والا يقبل الارض بين يديه وهو امتياز لم ينله غيره (٩٤) .

لقد حسن موقع المتنبى عند سيف الدولة فقربه واجازه الجوائز

---

(٩٢) يقول البديعي (الصبح المبني ص ٨٣) : ان قصيدة المتنبى فى سيف الدولة حين سار لبناء الحدث سنة ٣٤٣ هـ وهى التي مطلعها «على قدر اهل العزم تاتي العزائم ..» الخ من احسن ما قيل فى الجيوش الكثيرة » .
(٩٣) يتيمة الدهر ١٣٣/١
(٩٤) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٤٦

السنية . ومالت نفسه اليه فاسلمه الى الرواض فعلموه الفروسيـة (٩٥) . واثار هذا المجد الذى احرزه المتنبى حسد الحاسدين فقام ضده حزب قوي عاداه اشد العداء تزعمه ابو فراس وابن خالويه ، فاوغـروا عليـه صدر الامير الحمدانى فكان ماكان من الصدام الصريح فى حضرةسيف الدولة . ففي نقاش لغوي جرى في حضرة الامير ايد فيه المتنبي حجـة ابي الطيب اللغوي على حجة ابن خالويه ، وحين اشتد الجدل قال المتنبـي لابن خالويه : اسكت ويحك فانك اعجمي واصلك خـوزي فمالـك وللعربية ؟ فاخرج ابن خالويه مفتاحا حديديا من كمه فضرب وجـه المتنبي فسال دمه على وجهه وثيابه . (٩٦) ولـم يـوقف سـيف الدولـة هذه الحملة الشديدة على شاعره رغم ايثاره له ، مما يدل علـى ان هـذا الحزب وفق فى ايغار صدره على ابى الطيب مدعين انه يعطيه « كـل سنة ثلاثة الاف دينار على ثلاث قصائد ويمكن ان تفرق مائتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره » (٩٧) ، كما اتهموه بالسرقـة

---

(٩٥) البديعى . الصبح المنبي ج١ ص ٤٦-٤٧-٥١-٥٥

(٩٦) البديعى . الصبح المنبي ص ٨٦ . خـوزي مـن اهـل خوزسـتـان نواحي الاهواز وهو نعت للذم يومـذاك . ابـن خلكـان . وفيـات الاعيان ج١ ص ٤٥ .

(٩٧) البديعى . الصبح المنبي ج١ ص ٦٥ ــ روى البديعى ص ٨٥ قصـة ذات مغزى تدل على حدة التوتر التي طبعت علاقات ابى الطيب بمنافسيه [illegible] حدثنى ابو على الحسين بن احمد الصنوبرى قال : خرجت بحلب اريد دار سيف الدولة فلما برزت من السور اذا انا بفارس متلثم قد اهوى نحوى برمح طويل وسدده الى صدرى فكدت اطرح نفسى عن الدابـة فحسر لثامه فاذا المتنبى .. وكان قد انتقده على بيت ــ فقلت ويحك قد قتلتني يا رجل . قال ابن جني فحكيت هذه الحكاية لابي الطيـب بمدينة السلام فعرفها وضحك منها (كذلك اورد الثعالبى هذه القصة فى اليتيمة ١٣٤/١) .

في شعره ، فلما اخفقت كل هذه الاساليب لجأوا الى محاولة اغتياله (٩٨) • كل ذلك ادى الى غضب ابي الطيب وهجره بلاط سيف الدولة • في سنة ٩٥٧/٣٤٦م • وقد سئل فيما بعد عن سبب مفارقته الامير الحمداني فاجاب «قد تجوزت في قولي واعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان •» وبعد تجوال بين دمشق والرملة استدعاه كافور الاخشيدي الى مصر فسار اليها في السنة نفسها • ومدح ابو الطيب كافورا ، «وكان يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفاف وفي وسطه سيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق ، وكان لا يجلس في مجلس كافور في حين كان لا يرضى ان ينشد قائما عند سيف الدولة » • وسأل ابو الطيب كافورا ان يوليه صيدا او غيرها فقال له كافور : « انت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك الى النبوة ، فان أصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك ؟» (٩٩)

ولم تلبث الوحشة ان وقعت بين ابي الطيب وكافور فهجر مصر (١٠٠) سرا وعاد الى الكوفة في ربيع الاخر سنة ٩٦٢/٣٥١ م • والحق ان ابا الطيب كان متالما من هجره لسيف الدولة ومدحه كافورا ،وحين عوتب على مدح هذا قال «حذرناه ـ اي سيف الدولة ـ وانذرناه فما نفع فيه الحذر •• فهو الذى اعطانى لكافور بسوء تدبيره وقلة تميزه • (١٠١) ومع ذلك فانه ظل يلمح بمدح سيف الدولة تارة ويصرح تارة اخرى • ويقول مؤرخو سيرته انه حين قتل وجدت في رحله

---

(٩٨) محمد كمال حلمي . ابو الطيب ص ٥٥٣

(٩٩) الصبح المنبي ص ١١٢

(١٠٠) يقول البديعي (الصبح المنبي ص ١١٣) ان من اسبابهذه الوحشة ان المتنبي ذكر سواد كافور في عدة مواضع ، وانه رفض مدح الوزير ابن حنزابة وزير كافور والمقرب منه .

(١٠١) نفس المصدر ص ٩٨.

قصيدتان الاولى في هجاء كافور والثانية في مدح سيف الدولة • ويبـــــدو ان سيف الدولة ظل يعمل على استعادة ابى الطيب الى حاشـــيته ، فكاتبه وهاداه فارسل اليه أبو الطيب قصائد مديح جديدة يبـدو ان اخرهــا كانت في سنة ٣٥٣/٩٦٤ م تظهر ندمه على فــراق الاميـر الحمداني (١٠٢) •

كانت اقامة المتنبي في بغداد منذ شعبان ٣٥٢/٩٦٣ م غير ســــــارة بل ومليئة بالمتاعب والمزعجات التي سببها له مبغضوه وحاسدوه • ذلــــــك ان معز الدولة البويهي ووزيره ابا محمد المهلبي اخــذا عليــه امتناعــــــه عن مدحهما ، فاغريا به الشعراء والأدباء حتى نالوا من عرضه وجرحــــــوا شعره وتباروا في هجائه وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة والحاتمــي (١٠٣) ، الذي كان قد قصد بلاط سيف الدولة في صباه وعرف ابا الطيــــب هناك (١٠٤) • وقد التقى الحاتمي بالمتنبي وناظره فــي شعــره وكــــرس لسرقاته رسالة شديدة القســـوة هـــي «الحاتميـــة» او «الرســـالة الموضحة» (١٠٥) •

لقد اساءت هذه الخصومة الى المتنبي واججت غضبه ، فما كـــــان منه الا ان رحل عن بغداد بعد ان « تألب عليه احداث المتأدبين طمعـا

---

(١٠٢) نفس المصدر ص ١٠٨–١٠٩

(١٠٣) يتيمة الدهر ١٣٦/١

(١٠٤) الحاتمي . الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي وساقط شعره (تحقيق د. محمد يوسف) ؟

(١٠٥) يقول ابو علي محمد بن الحسن الحاتمي (توفى ٣٨٨) : ان الكبر اصاب المتنبي فصعر خده للمراقبين متصورا ان الادب مقصور عليه . « انـه رب الكلام» وساء معز الدولة ان يرد حضرته وهي دار الخلافة رجـل صدر عن حضرة سيف الدولة وكان عدوا مباينا فلا يلقى احدا بمملكته يساويه في صناعته .. ثم يقول «فنهدت اليه متتبعا عـــواره ومقلمـــا اظفاره ومذيعا اسراره وناشرا مطاويه ومنتقدا من نظمه ما تسمح به ..» (ص٦) ثم يروي الحاتمي انه قصد المتنبي في ابهة فاعرض عنه ابو الطيـــب =

فيه وتناولته الشعراء بهجائها ، واولـع بهجائـه سفيـه مـن سـفهاء البغداديين وصغير من اصاغر علمائهـم يعـرف بابن الحجـاج ..» (١٠٦) واختار ابو الطيب هذه المرة فارس مقاما له فالتحق ببلاط عضد الدولـة البويهي ومدحه فنال من عطاياه اكثر من مائتـي الف درهـم (١٠٧) .

انتهت حياة ابي الطيب المتنبي نهاية اليمة ، فقد حقد عليـه عضـد الدولة لانه حين سئل عن عطاء الامير البويهي واين يكـون مـن عطـاء سيف الدولة اجاب : «ان سيف الدولة كان يعطي طبعا وعضد الدولـة تطبعا » . ويقال ان هذا الجواب اوصـل الى مسامع عضد الدولـة فدس للمتنبي رجلا من بني اسد يقال له فاتك بن ابى جهل قتلـه وهـو في طريق عودته الى الكوفة في ضيعة قرب دير العاقـول فـي يـوم الاربعاء لليلتين بقيتا من رمضان سـنة ٣٥٤/٩٦٥ م (١٠٨) .

وقيمة المتنبي في الادب كبيرة جدا ، فمنذ حياته تكونـت اوسـاط معجبة بشعره في حلب والفسطاط وبغداد وشيراز وانقسـم الناس الـى حزبين احدهما معاد له تزعمه ابن عباد والعسكري والحاتمي ، وثانيهمـا

= مما الار ة لله وقتنا يعرض بسوء ادب المتنبي لم ينقد مظهره وكيـف انه كان يلبس سبعة اقبية كل قباء منها لون في وغرة القيظ (ص ٨-٩) ويروي (صفحات ١١ ، ١٢ ، ١٣-٩٥) محاورة شعرية مع ابـى الطيـب يحرجه فيها ويكشف عن عيوبه وسرقاته وقد استغرقت هذه المحاورة نهارا كاملا حتى الغروب ، وخلال ثلاث ليالى دون الحاتمى ماجرى ورفعه الى معز الدولة فسره ذلك . أما الوزير المهلبي فقد دعى اعـلام اهـل العلـم والادب لمناظرة المتنبي وكشف شعره وسرقاته (ص١٤٣) .

(١٠٦) الرسالة الموضحة ص ١٩٥

(١٠٧) الصبح المنبي ص ١٦٧ . اليتيمة ٢٣٨/١

(١٠٨) الصبح المنبي ص ١٧٠-١٧٥ اي ان المتنبي قتل بالقرب من النعمانيـة (ابن خلكان وفيات الاعيان ٤٥/١)

معجب به تزعمه الصابي والضبي وابن جني (١٠٩) . وقامت له مدرسة ادبية خاصة وتحمس له كثيرون من اشهرهم ابو الحسن المغربي والثعالبي وابن جني والمعري ووصل صيته الى القيروان قورطبة (١١٠) . ويقول الواحدي عن شعر ابي الطيب (١١١) ان معانيه خفيت على اكثر من روى شعره حتى الفحول كالقاضي ابى الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني وابي الفتح عثمان بن جني والمعري . اما القاضي ابو الحسن فادعى التوسط بين مبغضي المتنبي ومحبيه . اما ابن جني فبرغم انه وفق في الاعراب والتصريف غير انه اخفق في المعاني التي ارادها المتنبي .

قسم انيس المقدسي (١١٢) شعر المتنبي الى اربعة اطوار :
الطور الاول : يمثل عواطف الشباب ونقمة الالم ويمتد حتى الرابعة والثلاثين من عمره .

الطور الثاني : شعره في حلب بين الرابعة والثلاثين والثالثة والاربعين من عمره وهو يمثل عواطف العظمة والجهاد القومي كما يظهر في سيف الدولة وعواطف الفوز بالدنيا والقلق من الحساد .

الطور الثالث : شعره في مصر بين الثالثة والاربعين والسابعة والاربعين من عمره ويمثل غيظه من الماضي آماله بالمستقبل .

الطور الرابع : شعره في العراق وفارس بين السابعة والاربعين والحادية والخمسين من عمره . اما في العراق فيتغنى بذكريات سيف الدولة ، واما في فارس فيمثل انتعاش الامل .

---

(١٠٩) بلاشير . ديوان المتنبي في العالم العربي ص ١٤-١٥
(١١٠) نفس المصدر والمكان
(١١١) شرح ديوان المتنبي ج١ ص ٣-٤
(١١٢) امراء الشعر العربي ص ٢٩١

وتكمن اهمية المتنبي في انه ارخ احداث الحروب التي قامت بين الحمدانيين والروم ، ومما يزيد من قيمة شعره في هذا الصدد انه كان شاهد عيان لهذه الحرب وفي كثير من الاحيان (١١٣) ، كما انه صور الاحوال الداخلية كحروب سيف الدولة مع القبائل والثورات التي كان يقمعها هنا وهناك في انحاء امارته (١١٤) • غير ان شعر المتنبي في جملته كان ارستقراطيا ، فلم يمدح الا ملكا او اميرا ، كما صور حياة القصور والطبقة المترفة فلم يترجم مشاعر العامة • ومن ناحية اخرى خصص المتنبي جزءا كبيرا من شعره للتعبير عن اماله والامه التي تتلخص في طموحه الى الولاية والرياسة • وهو عربي صرف تغنى بالفروسية والحرب والمروءة والشهامة وان كان في تغنيه يسبغ على نفسه من الصفات اكثر مما يستحق• ومع اهمية شعر المتنبي فانه لم يكن سجلا واقعيا للحياة الاجتماعية لانه كان بعيدا عنها •ومن هنا كان السري الرفاء وكشاجم والصنوبري وهم من شعراء الطبقة الثانية اكثر منه صدقا لانهم عاشوا في صميم الحياة العامة (١١٥) •

وقد عكف كثير من الباحثين على دراسة شعر المتنبي ومن مجموع هذه الدراسات نخرج بالنتائج التالية :

١ ــ احسن المتنبي تصوير الحرب والفروسية والهزيمة والاسرى المصفدين بالاغلال والمزارع المخربة وصليل السيوف وصهيل الخيل وانين الجرحى وما يصحب الحرب عادة من نهب وسبي واسترقاق • ولما كان ابو الطيب مرافقا لسيف الدولة في بعض حروبه فقد وفق في

---

(١١٣) ديوان المتنبي ص ٢١٣ ــ ص ٢٢٩ و ص ٣١٩ و ص ٣٤٣
(١١٤) نفس المصدر ص ٣١٥ و ص ٢٢٤
(١١٥) انظر الفصل الثاني عشر «الحياة الاجتماعية» •

نظم ملاحم حربية لتلهب حماس المسلمين المؤمنين (١١٦) .

٢ ـ برع المتنبي في حكمه التي ضمنها شعره وهي عبارة عن محاولة لفهم النفس البشرية كما يراها هو من خلال نفسه الطموحة الى المجد العزوفة عن اللهو . ويقول نيكلسون (١١٧) في هذا الصدد ان المتنبي اولع بتحليل اخلاق الناس ونفوسهم فهو بذلك يشبه يوربيديس .وهو بحق استاذ النزعة الحكمية التي بدأها ابو العتاهية ، وقد لقبه هذا الكاتب بفكتور هوجو الشرق لاسلوبه الفخم .

كان ابو العباس النامي احمد بن محمد الدرامي (١١٨ المصيصي (١١٩) من فحولة شعراء العصر ومن خواص شعراء سيف الدولة ، بل يأتي عنده بعد المتنبي في المنزلة (١٢٠) . ويبدو ان النامي كان شاعر سيف الدولة الاثير حتى قدم المتنبي فنحاه الى المرتبة الثانية . ويبدو ان هذا الامير اغلظ ابا العباس النامي حتى انه انتهز فرصة خلوه بالأمير الحمداني

---

(١١٦) SCHLUMBERGER, UN EMPEREUR BYZANTIN, P. 128

(١١٧) A LITERARY HISTORY OF THE ARABS, P. 308-312

(١١٨) نسبة الى بني دارم من ولد مالك بن حنظلة بن زيد بن مناة بن تميم وهم من بطون تميم الكبيرة (ابن دريد ، ابو بكر . الاشتقاق ص ٢٣٣ ٢٣٤ (القاهرة ١٢٨٨ هـ) .

(١١٩) نسبة الى المصيصة . انظر القسم الجغرافي الخاص بالعواصم والثغور

(١٢٠) يتيمة الدهر ٢٤١/١ .

فعاتبه بقوله : «ايها الأمير لم تفضل علي ابن عبدان السقا ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه فلج والح وطالبه بالجواب فقال لانك لاتحسن ان تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر   وقد اغذ اليه غير محتفل •

فنهض ابو العباس مغضبا وفى نيته الا يعود الى مدح سيف الدولة (١٢١) •

كان ابو العباس النامي اديبا عارفا باللغة ، وقد اشتهر بأماليه التي املاها بحلب وروى فيها عن شيوخه • (١٢٢) وكذلك روى عنه طائفة من علماء العصر وادبائه مثل ابى الفرج الببغاء وابى بكر الخالدى وغيرهما (١٢٣) • ومع كل ذلك فان ابا العباس النامي كان يغبط المتنبي حتى قال (١٢٤) : كان قد بقى في الشعر زاوية دخلها المتنبي وقد كنت اشتهي ان اكون سبقته الى معنيين قالهما ماسبق اليهما هما قوله :

رماني الدهر بالارزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال

---

(١٢١) الصبح المنبي ص ٥٣
(١٢٢) وفيات الاعيان ١/٤٦-٤٧
(١٢٣) نفس المصدر والمكان
(١٢٤) الصبح المنبي ص ٥٣

والآخر قوله :

في جحفل ستر العيون غباره
فكأنما يبصرن بالاذان

ويروي المؤرخون ايضا ان النامي كانت له مساجلات ومعارضات شعرية مع المتنبي (١٢٥) . وقد ابدى صاحب اليتيمة اعجابه به واورد له — على حد قوله — عقائل شعره وفوائد عقده» (١٢٦) . منها قوله في مدح سيف الدولة :

لكم يا بني العباس سيف على العدا
حسام متى يعرض له الداء يحسم

اخف الى يوم الوغى من حمامة
واثبت من شوق بقلب متيم

وقوله في مدح سيف الدولة ايضا :

عيد وفتح وملك والامير له
دامت سلامته ما اورق السلم

الله اعطاك اقسام الفخار ، فما
خلق يساميك مذ حيزت لك القسم

---

(١٢٥) وفيات الاعيان ٢/٤٦

(١٢٦) يتيمة الدهر ١/٢٤٠

. غير أن المختلوات التي أوردها الثعالبي (١٢٧) لا تقتصر على شعـــر المديح بل انه اورد لابي العباس النامي قصائــد اخـرى فـي اغراضـــ ومقاصــد متنوعة منها الغزل والوصــف •

كان ابو العباس النامى رجلا فقيرا من غمار العـامة قيل انه كان جزارا بالشام • وقد وردت هذه الحقيقة فى قصيدتين للســرى الرفاء الدي هجاه بقوله (١٢٨) :

أجزار باب الشـام كيف وجدتنـي
وأنت جزور بين نابـي ومخلبـي

وفي قولــه : (١٢٩)

ارى الجـزار هيجنـى وولـى
وكاشـفني واسرع فى انكشافي
لقد شقيت بمديتك الاضــــاحي
كما شقيت بغارتك القوافي (١٣٠)

عاش النامي حياة طويلة حافلة وتوفي بحلب في ســـنة ١٠٠٨/٣٩٩م نيل في سـنة ٩٨٠/٣٧٠م او في ســـنة ٩٨١/٣٧١ (١٣١) •

ومن الشعراء المجيدين ابو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي الملقب بالببغاء وكان من اهل نصيبين اتصل بسيف الدولة وانقطع اليه وهو شــاب فلما توفي راعيه تنقل في الموصل وبغداد ونادم بهما الامراء (١٣٢) • وهــو

---

(١٢٧) يتيمة الدهر ١/ ٢٤٠–٢٤٨

(١٢٨) ديوان السري الرفاء ص ٤٥ .

(١٢٩) نفس المصدر ص ١٧٧–١٧٨

(١٣٠) وهو هذا يتهمــه بسرقة الشــعر .

(١٣١) وفيات الاعيان ٢/ ٤٧ ، الكامل في التاريخ ٩/ ٨٢

(١٣٢) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٢٠١

مطبوع على الشعر وله رسائل وبلغ شعره ثلثمائة ورقـة ، وذكر لـه التنوخي عدة قصائد (١٣٣) في مدح سيف الدولة كما نقـل جملـة مـن اخباره فى البلاط الحمدانى تدل على مكانته لدى سيف الدولة . ولـه قصيدة فى ذكر وقعة سيف الدولة ببنى كلاب منها قوله :

اذا استلك الجانون اغمدك الحلم

وان كفك الابقاء انهضك العزم (١٣٤)

وكان الببغاء من انصار المتنبي وقد احول الدفاع عنه غير انه اخفق امام قوه فراس وحزبه . وتوفى هذا الشاعر يوم السبت ٢٧ شعبان سنة ٣٩٨هـ (١٣٥).

وفي النصف الاول من القرن الرابع نبغ شاعران شاميان فى بلاط سيف الدولة وتتركز اهمية شعرهما فى وصف البساتين والازهار وجمال الطبيعة في حلب وغيرها من مدن الشام ،.واولهما ابو بكـر احمـد بـن محمد الصلبي الحلبي الانطاكي (١٣٦) الصنوبري وثانيهما ابو الحسـن محمد الشعباني بن السندي بن شاهك المعروف بكشاجم (١٣٧) . وكـان الحسن بن راد الصنوبري صاحب بيت حكمة من حكـم المأمـون (١٣٨) . وقدر للصنوبري الحفيد ان يكون خازنـا لكتب سـيف الدولـة (١٣٩) . وقد ترك لنا الصنوبري شعرا في مائتي ورقـة رتبهـا الصولـي علـى

---

(١٣٣) نشوار المحاضرة ج١ ص ٥٦ ــ ٥٩

(١٣٤) التنوخى . نشوار المحاضرة ج١ ص ٥٦ ــ ٥٩

(١٣٥) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٣٧٥

(١٣٦) اختلف المؤرخون في اسمه فقال ابن شاكر (فوات الوفيات ج١ ص ٧٧ ابن النديم (الفهرست ص ١٦٨) انه محمد بن احمد .. الخ انه احمد بن محمد الحسن بن مراد ابو بكر الصنوبرى فى حين قال

(١٣٧) ابن النديم . الفهرست ص ١٦٩

(١٣٨) الطباخ . اعلام النبلاء ج٤ ص ٢٤

(١٣٩) الفزالى . مطالع البدور ج٢ ص ١٦٧

الحروف (١٤٠) . وهو في مجموعه يعد شعراً رقيقاً عذباً يصف حلب والرقة ، وكان لا يجاري في وصف الاماكن والانهار والرياض والازهار . وقد اورد له ياقوت (١٤١) قصيدة طويلة في وصف حلب وقراها وحدائقها ، وكانت له في هذه المدينة حديقة ذات غروس ورياحين ونارنج (١٤٢) ، ومن شعره في وصف فصول السنة :

ان كان في الصيف ريحان وفاكهة
فالارض مستوقد والجو تنور
وان يكن في الشتاء الغيث متصلا
فالارض محصورة والجو مأسور
ما الدهر الا الربيع المستنير اذا
اتى الربيع اتاك النور والنور
فالارض ياقوتة والجو لوءلوءة
والنبت فيروزج والماء بلور (١٤٣)

وله في وصف الازهار :

خجل الورد حين لاحظه النرجس من حسنه وغار البهار
فعلت ذاك حمرة وعلت ذا صفرة واعتلى البهار اصفرار
وغدا الاقحوان يضحك عجبا عن ثنايا لثامهن خضار
ثم نم النمام واستمع السوسن لما اذيعت الاسرار
عندها ابرز الشقيق خدودا صار فيها من لطمه اثار (١٤٤)

(١٤٠) ابن شاكر . فوات الوفيات ج١ ص ٧٧
(١٤١) معجم البلدان ج٣ ص ٣٠٧ — ٣٢١
(١٤٢) آدم متز . تاريخ الحضارة الاسلامية ج١ ص ٤٣١
(١٤٣) الروضيات ص ١٨—١٩
(١٤٤) الروضيات ص ٢١

وهكذا يمكن القول ان الصنوبري كان اول شاعر للطبيعة في الادب العربي وكان اول من تغنى بالثلج واحب السماء والنور والهواء والريح (١٤٥) .

ويتجلى من شعره انه كان كثير التجوال في البلاد فهو يوما في الشام ويوما في العراق ، يألف الرياض والحدائق ويميل الى الغناء والمداعبة ومعاشرة الادباء فاكتسب ظرفا وخفة وصفاء ذهن ودقة خيال . وقد اتانا بالسهل الممتنع في وصفه للرياض والحياض والانهار .

اثر الصنوبري في صديقه ومواطنه وتلميذه كشاجم وقد عبر هذا عن تأثره باستاذه في شعره (١٤٦) ، ولكشاجم ديوان مطبوع متداول (١٤٧) ، يدل على براعته وعلو كعبه . وهو من اهل الرملة بفلسطين ولم يكن شاعرا مجيدا فحسب بل كاتبا وخطيبا ومنجما (١٤٨) . ويقول المؤرخون (١٤٩) انه كان طباخا لسيف الدولة ، والذي يتصفح ديوان كشاجم يجد له شعرا في وصف الاعياد والفاكهة وموائد الطعام والغزل ومدح ال الرسول ومن قوله في وصف حلب :

هي الخلد تجمع ما تشتهي
فزرها فطوبى لمن زارها
وللهو فيها شهور الربيع
حين تفطر اشجارها (١٥٠)

---

(١٤٥) المصدر السابق ص ١٠ – ١١
(١٤٦) ديوان كشاجم ص ٧١ و ٧٤ و ١١٥
(١٤٧) المطبعة الانسية ببيروت سنة ١٣١٣
(١٤٨) ديوان كشاجم «المقدمة» ص ٣
(١٤٩) الغزولي . مطالع البدور ج٢ ص ١٧٦
(١٥٠) ديوان كشاجم ص ٦٥

وله شعر في الخمر ووصف الات الطـرب كالنطنبـور والعـود (١٥١) • ومن كتبه النثرية ذكرها ابن النديـم «ادب الندمـاء» و «والمصايـــد والمطـارد» (١٥٢) •

وتتركز قيمة كشاجم في انه خلف لنا صورا جميلة عن الحياة اليومية . فديوانه حافل بوصف الات الطرب والقيان والـوان الطعـام والشـراب والاديرة والجواري والغلمان والات الكتابة كالاقلام والسكاكين والمقلمة والبركار والدفاتر ، لذلك كان شعره مصدرا مهمـا لدراسـة الحيـــاة الاجتماعية في ذلك العصر واخص بالذكر قصيدته التي اتى فيها علـى وصف الوان الطعام فى القرن الرابع •

اما السري بن احمد بن السري الرفاء الموصلي (١٥٣) فكان رفـــاء بالموصل في صباه يرفو ويطرز وينظم الشعر • فلما برع وادركته حرفـــة الادب اشتغل بالوراقة ونسخ ديوان كشاجم نسخا غير امين فدس فيه شعر الخالدين وادعى عليهما سرقة شعر كشاجم (١٥٤) • وظل السري في ضنـك من العيش حتى اتصل بسيف الدولة بحلب ومدحه واقام عنده وبذلك نفـق شعره عند بني حمدان في العراق والشام (١٥٥)• وقد قلد السرى كشاجـم وذهب مذهبه في الشعر (١٥٦) وخلف لنا ديوانا وتصانيف منها كتــاب «الديرة» و«المحب والمحبوب» و«والمشموم والمشروب» (١٥٧)•ومن شعره

---

(١٥١) انظر ديوان كشاجم ص ٩٠ ، ٩٩ ، ١٦٩
(١٥٢) الفهرست ص ١٦٩
(١٥٣) ياقوت . معجم الادباء ح١ ص ١٨٢
(١٥٤) نفس المصدر ح١١ ص ١٨٣–١٨٤ . ابن خلكان . وفيات الاعيـان ح١ ص ٢٥٢
(١٥٥) نفس المصـدر ح١١ ص ١٨٤
(١٥٦) ابن خلكان . وفيات الاعيان ح١ ص ٢٥٢
(١٥٧) ياقوت . معجم الادباء ح١١ ص ١٨٥

قوله في وصف مهنته الأولى :

وكانت الابرة فيما مضى
صائنة وجهي واشعاري
واصبح الرزق بها ضيقا
كانه من ثقبها جاري (١٥٨)

وله قصيدة في بناء الحدث ، (١٥٩) وقصائد كثيرة في مدح سيف الدولة ووصف حروبه وغزواته منها قوله :

تركتهم بين مصبوغ ترائبه
من الدماء ومخضوب ذوائبه
فحائد وشهاب الرمح لاحقه
وهارب وذباب السيف طالبه (١٦٠)

وحكي أن السري الرفاء حين قصد سيف الدولة انشده :

اني رايتك جالسا في مجلس
قعد الملوك به لديك وقاموا
فكأنك الدهر المحيط عليهم
وكأنهم من حولك الايام

ثم انشده بعد ذلك ما كان قال فيه من الشعر ، وبعد ثلاثة ايام انشده المتنبي قصيدة ثانية فأمر له بفرس وجارية فلما قال .

وحصر تثبت الابصار فيه
كأن عليه من حدق نطاقا

---

(١٥٨) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٢٥٢
(١٥٩) الثعالبي يتيمة الدهر ج١ ص ٢٣
(١٦٠) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج٢ ص ٢٥٢

قال لسري : هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون ، وما يقــال مـــن انه حم في المال حداً ، وتحامل الى منزله ومات بعد ثلاثة ايام فلا صحـــة لهلا لان السرى مات بعد المتنبي وسيف الدولة (١٦١) .

ومجمل القول ان السري الرفاء كان شاعرا مطبوعا رقيقـا عـــذب الالفاظ مولعا بالتشبيهات والاوصاف (١٦٢) . وله ديــوان مطبــوع يـدل على انه كان شاعرا شعبيا يعيش بين مواطنيه من الافراد العاديين ومتوسطي الحال . وقد خلف لنا صورا اجتماعية رائعة وصف فيها الحلاقين والاطباء والسفن وصيادي السمك والحمامات فضلا عن وصف مشاهد الطبيعـــة وازهارها واشجارها وغدرانها والسحب والثلج والمطر . كما افتن في وصف مجالس الشرب واللهو والخمر هذا فضلا عن شعره في المديــح والتهنئة والهجاء والغزل والاخوانيات والرثاء . ويبدو انه كان متأثـرا بالصنوبـري على حين كان يضيق ذرعا بالخالديين حتى هجاهما (١٦٣) .

كذلك تأثر الخالديان الاخوان الموصليان بشعر كشاجم ، وهما ابـــو بكر وابو عثمان محمد وسعيد ابنا هاشم من قرية الخالدية بالموصل (١٦٤) . وكانا شاعرين اديبين حافظين غير انهما اتهما بالسرقة (١٦٥) . وقد جمـــع ابو عثمان شعره وشعر اخيه كما تركا تصانيف كثيرة منها «كتاب حماســـة شعر المحدثين» و «اخبار ابى تمام ومحاسن شعره» و «اخبار الموصـل» وغيرها (١٦٦) وكان هذا الاخوان خازنين لكتب سيف الدولة وصفهمـــا الثعالبي بقوله (١٦٧) «ان هذين لساحران يغربان بما يجليان ويبدعـــان فيما يصنعان ..» .

---

(١٦١) الصبح المنبى ٧٩ـ٨٠ .
(١٦٢) ابن النديم . الفهرست ص ١٦٩
(١٦٣) ابن خلكان . وفيات الاعيان ١٠٤/٢ (طبعة النهضة المصرية) .
(١٦٤) ابن النديم . الفهرست ص ١٦٩
(١٦٥) نفس المصدر والمكان .
(١٦٦) نفس المصدر والمكان .
(١٦٧) يتيمة الدهر ١٨٣/٢ (القاهرة ١٩٥٦) .

وترك ابو الحسن (١٦٨) علي بن محمد الشمشاطي بضع مقطوعات عذبة في وصف البنفسج والجلنار والتغني بالطبيعة (١٦٩) . وكان الشمشاطي ارميني الاصل علم ابا تغلب بن ناصر الدولة واخاه ثم نادمهما . وهو شاعر مجيد واسع الرواية يغلب عليه التشيع وله جملة مصنفات منها «النزه والابتهاج» و «الديارات» و «اخبار ابي تمام» (١٧٠) .

ابدع الوءواء الدمشقي ابو الفرج محمد ابن محمد الغساني في الغزل والوصف وشعر الخمر ، فارتفع من مناد في دار البطيخ الى شاعر مقرب في بلاط سيف الدولة (١٧١) . وامتاز بانسجام الالفاظ وعذوبة العبارة وتوفي في اواخر القرن الرابع (١٧٢) . وله ديوان مطبوع متداول (١٧٣) . ونجد فيه عدة قصائد في مدح سيف الدولة والكثير من مقطوعات الغزل والخمرة والازهار (١٧٤) غير ان شعره من الدرجة الثانية ، وهو يخلو من الطرافة التاريخية ، ومن تجويد وحرارة شعر المتنبي . واكثر شعره مقطوعات صغيرة تطرق المواضيع اليومية العامة .

وهناك الى جانب من تقدم ذكرهم الخليع الشامي ابو عبدالله الذي ادرك البحتري واصبح من شعراء سيف الدولة (١٧٥) ، وابو محمد الموصلي الذي ابدع في رثاء آل حمدان (١٧٦) وابن نباته السعدي ابو نصر

---

(١٦٨) يسميه الثعالبي (يتيمة الدهر ج١ ص ٨٩)ابا الفتح الحسن علي بن محمد
(١٦٩) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٨٩
(١٧٠) ياقوت . معجم الادباء ج١٤ ص ٢٤٠ — ٢٤٢
(١٧١) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٢٣٥
(١٧٢) ابن شاكر . فوات الوفيات ج٢ ص ١٨٥
(١٧٣) جمعة وترجمة الى الروسية المستشرق كراتشكوفسكي (بريل ١٩١٣م)
(١٧٤) ديوان الوأواء ص ٦٦ و ٩٨
(١٧٥) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٢٢٥
(١٧٦) نفس المصدر ج١ ص ٣١٧

عبد العزيز بن عمر ، وقد ولد في سنة ٣٢٧ وهو شاعر مجيد كثير الاسفار ترك كثيرا من المدايح في سيف الدولة وتوفي ببغداد سنة ٤٠٥ (١٧٧) ، وهو ابو طالب الرقي وكان «احد المقلين المحسنين» (١٧٨) ، وابو القاسم الشيظمي الذي خلف ديوانا في خمسمائة ورقة (١٧٩) • على حين اشتهر ابوذر سهل بن محمد استاذ سيف الدولة بالغزل وابو الفرج سلامة بن بحر بالشعر الرقيق السلس (١٨٠) • ونجد شعراء اخرين في حاشية سيف الدولة لم تقدر لهم الشهرة لكنهم حظوا بمكان في اليتيمة منهم منصور واحمد ابنا كيغلغ الشاعران الشاميان اللذان كانت لهما مراسلات مع أبي فراس (١٨١) • ممن اشتهر باللطافة والسلاسة ابو الفتح البكتري وابو الفرج العجلي (١٨٢) ، على حين كان ابو بكر بن احمد بن حمدان الخباز البلدي من الشعراء الظرفاء ، وقد حفظ القرآن وضمن أشعاره كثيرا من الآيات ويدل شعره على التشيع وكان ملازما للاديرة وبخاصة دير الشياطين ببلد غربي دجلة (١٨٣) • واخيرا نجد شاعرين عصاميين اولهما الناشيء الاصغر ابو الحسن علي بن عبدالله وقد ترك كثيرا من الشعر في اهل البيت وهو من الطبقة العامة ، فقد كان جده عبدا وابوه عطارا واشتغل هو بصناعة لصفر وتوفي سنة ٣٦٦ (١٨٤) • وثانيهما الزاهي الذي كان بائعا للقطن ويدل شعره على رقة الالفاظ وجمال المعاني (١٨٥) •

---

(١٧٧) ابن خلكان . وفيات الاعيان . ج١ ص ٣٧٠ — ٣٧٢
(١٧٨) يتيمة الدهر ج١ ص ٢٤٤
(١٧٩) ابن النديم . الفهرست ص ١٦٩
(١٨٠) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٨٢ و ٨٥
(١٨١) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٧٥
(١٨٢) نفس المصدر ج١ ص ٨٥ و ٨٧
(١٨٣) الشابشتي . الديارات ص ١١٧
(١٨٤) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٤٤٧
(١٨٥) هو ابو القاسم علي بن اسحاق بن خلف الزاهي (انظر ترجمته في وفيات الاعيان ٣/٥٥ (تحقيق محمد محي الدين . عبد الحميد) . وفي يتيمة الدهر ٢٤٩/١ .

وهكذا ضم بلاط الحمدانيين عشرات الشعراء الذين تغنوا بامجاد هـــذه الاسرة وخلفوا لناثروة غزيرةمن الشعر ، وهو وانكان في الغالب مدحا مفرطا لا قيمة تاريخية له ، فقد حوى صورا صادقة للحياة الاجتماعية في ذلـــك العصر ، وبخاصة حياة الامراء في لهوهم وجدهم ، ومجالس الانس وحفـلات الطعام والصيد والشرب التي كان يعقدها اهل الترف واليســار • غيـر ان ما يقلل من قيمة هذا الشعر ــ كما اسلفنا ــ انه اقتصر على وصف الجانـب الضاحك من المجتمع دون ان يعير مشاعر العامة كبير اهتمام •

واذا حاولنا ان نجمل الخصائص العامة للشعر في العصر الحمدانـي ، وجدنا ما يلي :

١ ــ كان هذا الشعر وسيلة من وسائل الدعاية للحمدانيين والتغني بامجادهم ومن هنا كان اغلبه شعر مديح •

٢ ــ يمدنا هذا الشعر بحقائق تاريخية عن حروب سيف الدولة مع الروم والقبائل العربية ووصف جيوش الفريقين •

٣ ــ اهتم شعراء المرتبة الثانية بوصف الحياة اليومية من لهو وصيـد وطعام وشراب فامدنا بصور اجتماعية جميلة وصادقة •

٤ ــ نضج شعر الطبيعة في هذا العصر بفضل الصنوبري وكشاجـــم اللذين ابدعا في وصف الازهار والبساتين والانهار •

٥ ــ كان كثير من شعراء هذا العصر من ابناء الطبقة العامة فالسري كان رفاء والنامي جزارا وكشاجم طباخا والناشىء جلاء لاوانـي الصفـــر والزاهي بائعا للقطن ، مما يدل على ان المجتمع فسح صدره لذوي المواهب واتاح لهم فرص التقدم •

٢ ـ النثر :

كما اثر اختلاط العرب بالاعاجم في هذا العصر في الشعر ، كذلك اثر في النثر بصورة تتضح في الاساليب الجديدة التي احتذاها كتاب القرن الرابع في كل فن من فنون الكتابة • ونجد هذه الخصائص التي ظهرت في النثر موجودة بشكل بدائي منذ القرون الاولى للهجرة لكنها قويت واتضحت في القرن الرابع لدى الفحول كابن العميد والخوارزمي وبديع الزمان الهمداني (١٨٦) • ففي العصر العباسي امتزجت الحضارتان السامية والارية ، ودونت العلوم الشرعية واللسانية والعقلية وازدهرت الترجمة ووضعت اصطلاحات الصناعات المختلفة والدواوين والرسائل والمعاهدات (١٨٧) • كما ان الترف الذي اصاب المجتمع والتمدن الذي ابعد مابين الناس وبين البداوة كل ذلك قد ادى الى ولوع الكتاب بوصف القصور والرياحين ومجالس الشرب ومصائد الوحوش والتغني بالخلاعة والمجون ، وبذلك اخذ النثر اغراض الشعر ،بل انه زاحم الشعر في مجاله الخاص من غزل ومديح وهجاء ووصف ، واستعار منه اطايب ابياته ومحاسن خياله ، وبذلك اصبح النثر اداة لتسجيل الخواطر النفسية فضلا عن الافكار والحقائق العلمية (١٨٨) •

اصبح النثر ميدانا فسيحا ولم يعد مقصورا على الدواوين والرسائل بل اخذ يدخل في مجال اختصاصه التصنيف، والترجمة وتاليف الكتب والاستهداء • وتنوع الكتاب بتنوع الدواوين فنجد كتاب الخراج والنفقات

---

(١٨٦) زكي مبارك • النثر الفني في القرن الرابع ج١ ص ١٠٦
(١٨٧) احمد الاسكندري • تاريخ اداب اللغة العربية ص ٦
(١٨٨) زكي مبارك •النثر الفني ج١ ص ١٠٧

والمظالم والقضاء والجيش والشرطة والرسائل (١٨٩) .

واهم مايلاحظ على النثر في القرن الرابع استنباط المعاني وانتقاء الكلمات ، والتزام السجع في الرسائل كثيرا او قليلا وايثار البديع وتضمين الرسائل ابيات الشعر ومأثور الامثال (١٩٠) . وكلما انغمس العرب في الترف تأنقوا في الكتابة واطالوا حتى خرج الكتاب على الاساليب القديمة وجاءوا بعدة جمل مسجوعة متعاقبة في معنى واحد (١٩١) . واخذت الكتابة تميل الى الزخرف اللفظي والبهرجة الكلامية كلما تقدم الزمن حتى اصبح هم الكتاب في العصور المتأخرة الاسلوب دون الافكار فضلا عن ازدياد الالفاظ الاعجمية في اللغة العربية ، ومن هنا اصبحت الاناقة البديعية المقياس الاعلى في الاوساط الادبية ، بل تعدت ذلك الى التاريخ والعلم (١٩٢) .

امتازت الحياة العقلية في القرن الرابع بعدة خصائص احسن تلخيصها الدكتور زكي مبارك (١٩٣) وهي :

١ ــ اثر قوة الحزب الشيعي كما في رسائل الهمداني والخوارزمي التي تعبر عن الخصومة بين العباسيين والعلويين .

٢ ــ الصراع بين العرب والاعاجم وانقسام الادباء الى معسكرين يفضل احدهما العرب ، ويفضل الاخر الاعاجم .

٣ ــ الصراحة المطلقة في التعبير عن الرغبات الحسية فاكثر الكتاب من الرسائل في الخمرة واللهو والغزل بالغلمان .

---

(١٨٩) احمد حسن الزيات . تاريخ الادب العربي ص ١٢٤
(١٩٠) زكي مبارك . النثر الفني ج١ ص ١٠٦
(١٩١) الزيات . تاريخ الادب العربي ص ١٢٤
(١٩٢) انيس المقدسي . تطور الاساليب النثرية ج١ ص ٢٢٥
(١٩٣) النثر الفني ج١ ص ١٢٦ــ١٣٠

٤ ـ الخصومات بين الكتاب بسبب اطماعهم وتنافسهم كالخصومة العنيفة بين الخوارزمي والهمداني •

واهم الوان النثر في العصر الحمداني ـ وفي القرن الرابع عامة ـ الرسائل والمقامات والتاريخ والادب والقصص والخطابة • وسنحاول هنا ان نتحدث عن النثر بصورة عامة مستعرضين اهم الاثار التي جادت بها قرائح الكتاب في الدولة الحمدانية •

اما الخطابة فكانت في صدر الاسلام اهم وسيلة لنشر الافكار والدعوة الى الدين والحرب وتوطيد نفوذ الدولة • وظل الخلفاء من امويين وعباسيين يعنون بخطبهم اشد العناية ، حتى دخل الموالي في المجتمع العربي وانتشر اللحن فانحطت الخطابة وحلت محلها الكتابة بالتدريج ، غير اننا مع ذلك نجد في بلاط سيف الدولة عناية كبيرة بالخطب كوسيلة لحث الناس على نصرته في حرب الروم • وكان ابرز خطباء هذا العصر ابن نباته الفارقي ابو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل (ولد سنة ٣٣٥ وتوفي سنة ٣٧٤هـ) (١٩٤) وخطبه مطبوعة متداولة تدل على طول باعه في هذا المضمار ، كما تدل على غزارة علمه وجودة قريحته• وكان ابن نباته خطيب سيف الدولة بحلب ، وقد اكثر من خطب الجهاد لحث الناس على نصرته ، وذلك ان المسلمين ظلوا ينظرون الى حرب الروم على انها ، فرض مقدس يدخل في باب الجهاد ، ومن هنا استغل ابن نباته هذه العقيدة وعمل على احيائها في نفوس المسلمين بخطبه البليغة

تمتاز خطب ابن نباته بالطابع الديني ، فهي اشبه بالمواعظ التي تلقى على المنابر في ايام الجمع ، ويلاحظ الباحث انها تضرب على وتر

---

(١٩٤) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٣٥٦

سياسي واحد هو حث الناس على طاعة السلطان وهو سيف الدولـــة ، اي ان ابن نباته استخدم الدين للاغراض السياسية . اما من ناحية الاسلــوب فتتميز خطبه بالسجع المتعمد وتضمين الايـات القرآنيـة ، كمـا تمتلـىء بحشد من الالفاظ الضخمة الجزلة المتكلفة كقوله من خطبة له « عبـاد الله الثبات في مختلف الارواح ومختلف الرماح عند هيعقـة الصـوارم وشفشفة اللهاذم وهيمنة الغماغم وزمزمة الهماهم وانفضاض الغلاصم عند ارفضاض الجماجم » . (١٩٥) واستمع الى قوله (١٩٦) كدليل على هدفـه السياسي «او ما ترون نتائج التضافر على الطاعة وترك سلوك سبل الاضاعة كيف ادت بكم الى اصلاح شأنكم وتحصين معاقلكم واوطانكم ...» (١٩٧).

وازدهرت في هذا العصر كتابة الرسائل الديوانيـة والادبيـة . امـا الاولى فتتناول التهنئة بالنصـر وتقليـد الوظائف ومكاتبـات الامـراء والعمال (١٩٨) واما الثانية فتتناول الاخوانيات ــ اي المكاتبات بين الادباء ــ والمفاكهات والمناظرات والاوصاف والحكايات (١٩٩) . ويمثل كتابة الرسائل خير تمثيل ابو بكر الخوارزمي محمد بن العباس واهله من طبرستان في الاصل ، وقد ولد في خوارزم سنة ٣٢٣ وغادرها شـابا يطلب العلـم ويسعى وراء الرزق ، ويبدو ان شهرة سيف الدولة بلغت مسامعه فقصده وانضم الى حاشيته الادبية بحلب واتصـل بابـن خالويـه والشمشاطـي

---

(١٩٥) خطب ابن نباته ص ١٩١ــ١٩٥

(١٩٦) نفس المصدر ص ١٩٩ــ٢٠٠

(١٩٧) قـــام MAC GDCKIN SLANE بترجمة احدى خطب ابن نباته وهي التي يصف فيها زيارة الرسول له في المنام الى اللغة الفرنسـية في JOURNAL ASIATIQUE لسـنة ١٨٤٠ .

(١٩٨) انيس المقدسي . تطور الاساليب النثرية ج١ ص ٢٣٠

(١٩٩) المصدر السابق . ج١ ص ٢٣٦

والمتنبي والنامي وغيرهم (٢٠٠) . وافاد الخوارزمي من هذه الأجتماعات الادبية علما وادبا حتى اذا مافارق حلب كان احد اساطين عصره في النثر والنظم واخذ يتجول ما بين بخارى ونيسابور واصبهان حتى تعرف على عضد الدولة فاشتهر واثرى . وظل الخوارزمي امام الكتاب حتى ظهر بديع الزمان الهمذاني فساجله مساجلات حادة مما ادى الى انخذاله واعتلال صحته وخمود شهرته حتى توفي في سنة ٣٨٣ وقيل ٣٩٣ (٢٠١) ولعل من عوامل العداء بينهما ان الخوارزمي كان شيعيا وبديع الزمان سنيا ، وبينما الخوارزمي يوجه حملاته العنيفة ضد اعمال العنف التي حلت بالشيعة نرى الهمذاني يتلمس المعاذير لما اتاه العمال السنيون .

كان الخوارزمي فذا في الشعر والكتابة عالما باللغة والانساب ، اما اسلوبه فيظهر عليه التكلف والسجع والبديع ، كما يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته (٢٠٢) . وقد خلف لنا رسائل ادبية جليلة يظهر فيها تشيعه بشكل واضح . ففي رسالته لابي محمد العلوي باصفهان نجده يقول «علمت ان الكرم يتوارث بين الكرام وانه انحدر الى اصفهان من الشام . وان العلم والادب يتيمان ليس عليهما غيره وصي . وان المروءة والسيادة ايمان ما لهما سواه ولي . وان المغرب لسيف الدولة رحمه الله والمشرق لحضرة الوزير ايده الله .. فاما آل ابي طالب فانهم ينزلون منه على سيف التشيع وسنانه وعلى يد الحق ولسانه» . (٢٠٣) ويقول في رسالته «الى جماعة الشيعة بنيسابور» (٢٠٤) «فاذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائض والسنن ومتبعي

---

(٢٠٠) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ١٠
(٢٠١) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٦٦٢
(٢٠٢) زكي مبارك . النثر الفني ج١ ص ١٢١
(٢٠٣) رسائل ابي بكر الخوارزمي ص ١٧٤-١٧٩
(٢٠٤) المصدر السابق ص ١٣٠ - ١٣٩

أثارهم في كل قبيح وحسن ، فينبغي ان تتبع اثارهم في المحن »• ثم يعدد النكبات التى حلت بالعلويين منذ صدر الاسلام حتى عصر العباسيين كما يغلب على رسائله التعصب للبويهيين والتغني بفضلهم ، ولا عجب في ذلك فقد كان هؤلاء قد اغدقوا عليه الهبات والعطايا وكانوا سبب شهرته وغناه فضلا عن تشيعهم •

وفي عصر سيف الدولة ظهر كاتب العربية الكبير ابو الفرج الاصفهاني علي بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان الاموي «٢٨٤هـ - ٣٥٦هـ» (٢٠٥) وبرغم نسبه الاموي كان ابو الفرج ظاهر التشيع ، كما كان عربي النسب برغم انه ولد باصبهان (٢٠٦) • وكان شاعرا اديبا خلف موءلفات كثيرة ، غير انه اشتهر بكتاب «الاغاني» الذي يعتبر درة لامعة في الادب العربي • وهو مرجع ادبي غني يقع في واحد وعشرين جزء ؛ بناه على مائة صوت من اصوات الغناء الفت للرشيد ، غير انه اضاف اليها اصواتا جديدة من عنده ، وهو بعد ان يعدد الاشعار والانغام المتعلقة بها ، يروي حياة الشعراء والموسيقيين والمغنين ويأتي خلال ذلك باخبار تاريخية كثيرة واشعار قديمة وحديثة (٢٠٧) • وقد الف ابو الفرح كتاب الاغاني لتغذية الاندية ومجالس السمر ، بالطرائف والاخبار والسير والاشعار وايام العرب وقصص الملوك والمغنين دون تحرز حتى حفل كتابه بالطرائف (٢٠٨) •

انقطع ابو الفرج الى المهلبي وزير معز الدولة البويهي واصبح من ندمائه وانكب على تأليف «الاغاني» فانجزه في خمسين سنة . واهدى النسخة الوحيدة التي كتبها الى سيف الدولة ، فمنحه الف دينار واعتذر عن قلة

---

(٢٠٥) ياقوت معجم الادباء ج١٣ ص ٩٤

(٢٠٦) Nicholson, A literary History Of The Arabs. P. 347

(٢٠٧) نفس المصدر السابق والمكان

(٢٠٨) زكي مبارك . النثر الفني ج١ ص ٢٣٤

المبلغ ، فلما بلغ ذلك الصاحب بن عباد قال « لقد قصر سيف الدولة ، وانه ليستحق اضعافها ، اذ كان مشحونا بالمحاسن المنتخبة والفقر العربية» (٢٠٩) ومنذ ذلك الوقت نال هذا الكتاب شهرته الذائعة حتى ان ابا تغلب بن ناصر الدولة امر احد اتباعه وهو ابن عرس الموصلي بابتياع نسخه منه ، فابتاعها بعشرة آلاف درهم . فلما اطلع عليها ابا تغلب قال « لقد ظلم وراقه المسكين وانه ليساوي عندي عشرة آلاف دينار ، ولو فقد لما قدرت عليه الملوك الا بالرغائب وامر ان تكتب له نسخة اخرى وتجلد ..» (٢١٠) .

ونستطيع ان نعتبر عبد الواحد الببغاء الشاعر قصاصا ممتازا ، فقد اورد له الثعالبي (٢١١) قطعة نثرية طويلة يصف فيها باسلوب قصصي بسيط واضح ما حدث له في اديرة دمشق . وهذه القصة انموذج جميل لوصف مجالس الانس والشراب والرهبان في القرن الرابع ، ومثل بارز للمجون الذي انغرق فيه الادباء انفسهم ، ومدى الانحلال الخلقي الذي لازم هذه الطبقة ممن عاشوا على موائد الملوك والامراء . واسلوب الببغاء صالح للقصة في بساطته واشراقه وهو مع ذلك حذا حذو كتاب عصره فاورد جملا مسجوعة ابياتا من الشعر نثرها هنا وهنالك . وقد بدأها بقوله « تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرها ، وقد سار عنها في بعض وقائعه ، وكان الخطر شديدا على من ارادالحاق به من اصحابه حتى ان ذلك كان مؤديا الى النهب وطول الاعتقال . واضطررت الى اعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الاخشيدية وكان سني في ذلك الوقت عشرين سنة .. فلما كان في بعض الاحيان عملت على قصد دير مران ، وهذا الدير مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر .. ولم تزل الاقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة الى ان

---

(٢٠٩) ياقوت معجم الادباء ١٣/٩٧–٩٨

(٢١٠) نفس المصدر ج١٣ ص ١٢٥–١٢٦

(٢١١) يتيمة الدهر ج١ ص ٢٠١–٢٠٨

تفض اللهو ختامه ولوح السكر لصحبي اعلامه ..» . وبهذا الأسلوب القصصي الجميل يمضي الببغاء يصف لنا الدير والغلمان ومجالس اللهو وقصة فتى فار من سلطان مصر مختبىء بهذا الدير القاسي حب غلمانه ديونة ثميلة تكبله ، وبعدا عن اهله ودياره يقض مضجعه . ولا نريد هنا ان نورد هذه القصة الطويلة كلها ، لكننا نوءكد انها تمثل فن القصص في هذا العصر الذي لم يعره الكتاب كبير اهتمام . وكان للببغاء رسائل اخرى كتب احداها في وصف وقائع سيف الدولة ، واخرى الى عدة الدولة ابي تغلب يذكر رغبته في قصده والانقطاع اليه بعد وفاة سيف الدولة (٢١٢) .

ومن كتاب هذا العصر كشاجم الشاعر الذي الف عدة كتب منها «للصائد والمطارد» عن الصيد وحفلاته وآلاته ، وقد اورد فيه اخبارا ولطائف عن صيد الملوك (٢١٣) ، وكتاب «ادب الندماء» الذي ضمنه صفات النديم وشمائله ووصف مجالس الطعام والشراب (٢١٤) . وخلف لنا ابو القاسم علي بن الحسين المغربي جملة قطع من الانشاء الجيد تدل على جمال اسلوبه (٢١٥). كما تخرج من مدرسة الحمدانيين القاضي ابو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني موءلف كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » وابو اسحق الصابي صاحب ديوان الرسائل في عهد المطيع ، وقد زار سيف الدولة وقال فيه عند رحيله ثلاثة ابيات نال عليها ثلثمائة دينار (٢١٦) ، كما عرف ابو محمد عبدالله بن عمرو بن محمد الفياض بجودة الاسلوب والبراعة في الكتابة حتى ان سيف الدولة كان يوءثره في السفارة الى الحضرة ، وكان

---

(٢١٢) الثعالبي . يتيمة الدهر ح١ ص ٢٠٩ — ٢١٣

(٢١٣) الغزولي . مطالع البدور ح١ ص ٢١٧ — ٢١٨

(٢١٤) طبع هذا الكتاب في مصر طبعتين الاولى في بولاق تحت اسم «ادب الندماء واخبار الظرفاء» والاخرى في الاسكندرية تحت اسم «ادب الندماء واخبار الظرفاء» .

(٢١٥) نفس المصدر السابق — الغزولي . مطالع البدور ح٢ ص ١٢٧

(٢١٦) احمد امين . ظهر الاسلام ح١ ص ١٧٩

متأنقا في الكتابة يعجن مداده بالمسك وماء الورد تفاديا لرائحة الكريهة (٢١٧) •

٤ ـ اللغة والنحو :

تطور علم اللغة في العصر العباسي الثاني تطورا كبيرا نتيجة لاتصال العرب بالاعاجم ونشوء اللحن، والحاجة الى تأليف المعاجم وكتب النحو للاستعانة بها في الكلام والكتابة • واذا عدنا الى نشأة هذا العلم وجدناه يرجع الى القرن الاول الهجري حين ظهر ابو الاسود الدؤلي في البصرة (توفي ٦٩ هـ) الذي يعتبر شيخ مدرستها النحوية الشهيرة واول من اسس العربية حين اضطرب كلام العرب وفشي اللحن (٢١٨) • ثم ظهر الخليل بن احمد الفراهيدي الذي استنبط العروض (توفي ١٧٠هـ) (٢١٩) وسيبويه عمرو بن عثمان البصري (توفي ١٨٠هـ) وكان اعلم الناس بالنحو واللغة (٢٢٠) • اما مدرسة الكوفة فكان شيخها الرواسي ابو جعفر ، والكسائي ابو الحسن علي بن حمزة الذي ادب ولد الرشيد (٢٢١) • ولما توفي سنة ١٨٩ هـ مع محمد بن الحسن الفقيه قال الرشيد «دفنا الفقه واللغة في الري في يوم واحد » (٢٢٢) •

وعلى اساس هاتين المدرستين ــ مدرستي البصرة والكوفة ــ نسج النحاة في العصور التالية ومنهم من وفق بين المذهبين • وقد حفل العصر

---

(٢١٧) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٨٤
(٢١٨) الزبيدي . تاريخ النحاة «مخطوط» ص ٩
(٢١٩) نفس المصدر ص ٣٨
(٢٢٠) نفس المصدر ص ٧٣
(٢٢١) نفس المصدر ص ١٤٣
(٢٢٢) الزبيدي . تاريخ النحاة ص ١٤٨

الحمداني بنخبة طيبة من اللغويين وعلماء النحو ابرزهم أبو علي الفارسي وابن خالويه وابن جنى وابو الطيب •

كان ابو علي الحسن بن احمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان ابن ابان الفارسي من اكبر علماء العربية ، ولد بمدينة فسا من اعمال فارس سنة ٣٨٨هـ واشتغل ببغداد منذ سنة ٣٠٧ • ثم اخذ يتجول في البلدان حتى اتصل بسيف الدولة فاقام في رعايته منذ سنة ٣٤١ حيث جرت بينه وبين ابي الطيب مناقشات (٢٢٣) حتى استجلبه عضد الدولة فرحل الى شيراز لتاديب اولاد اخيه (٢٢٤) ، وصنف للامير البويهي «كتاب الايضاح والتكلمة في النحو» كما صنف كتبا اخرى كالتذكرة والمقصود والممدود والحجة في القراءات والمسائل الحلبيات ، واتهم في اخر حياته بالاعتزال وتوفي سنة ٣٧٧هـ ببغداد (٢٢٥) • وابو علي الفارسي أكبر عالم بالعربية في عصره ويعد هو وتلميذه ابن جنى موءسسي مدرسة النحو والصرف التي تستخدم القياس وتلميذه ابن جني موءسسي مدرسة النحو والصرف التي تستخدم القياس الى اقصى حد ولا تقف عند النص (٢٢٦) •

اما ابن خالويه فهو ابو عبدالله الحسين بن احمد خالويه بن حمدان الحمداني امام اللغة العربية والنحو والادب • دخل بغداد طالبا للعلم سنة ٣١٤ هـ وقرأ القرآن على ابن مجاهد والنحو والادب على ابن دريد ونفطويه وابي بكر بن الانباري وابي عمر الزاهد وسمع الحديث من محمد ابن مخلد العطار واملى الحديث بجامع المدينة وروى عنه كثيرون (٢٢٧) • وقد استقر بحلب وخدم سيف الدولة فصار «احد افراد الدهر في كل قسم من اقسام الادب والعلم ، وكانت اليه الرحلة من الافاق وآل حمدان يكرمونه

---

(٢٢٣) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ١٦٣
(٢٢٤) الزبيدي . تاريخ النحاة ص ١٤٠
(٢٢٥) [illegible]يات الاعيان ج١ ص ١٦٤
(٢٢٦) احمد امين . ظهر الاسلام ج١ ص ١٨٥
(٢٢٧) السيوطي . بغية الوعاة ص ٢٣١ ، ياقوت معجم الادباء ج٩ ص ٢٠١

ويدرسون عليه ويقتبسون منه» (٢٢٨) ، وقد مر بنا ذكر العداء السافر بينه وبين المتنبي حتى ضربه بمفتاح حديدي فشج راسه (٢٢٩) • ويروي المؤرخون قصصا تدل على علو كعبه في اللغة والنحو منها « سأل سيف الدولة جماعة من العلماء بحضرته ذات ليلة هل تعرفون اسما ممدودا وجمعه مقصور • فقالوا لا ، فقال لابن خالويه : ما تقول انت قال : انا اعرف اسمين • قال ما هما • قلت لا اقول لك الا بالف درهم لئلا تؤخذ بلا شكر وهما صحراء وصحارى وعذراء وعذارى • فلما كان بعد شهر اصبت حرفين اخرين ذكرهما الجرمي في كتابه التنبيه وهما صلفاء وصلافى وهي الارض الغليظة وخبراء وخبارى وهي ارض فيها ندوة • ثم بعد عشرين سنة وجدت حرفا خامسا ذكره ابن دريد في الجمهرة وهي سبتاء وسباتى وهي الارض الخشنة (٢٣٠) •

اتخذ ابن خالويه لنفسه مذهبا وسطا بين مدرستي الكوفة والبصرة (٢٣١) • والف مصنفات كثيرة منها «الاشتقاق» و «الجمل في النحو» و «القراءآت» و «اعراب ثلثين سورة من القرآن» (٢٣٢) و «المقصور والممدود» و «المذكر والمؤنث» و «ليس» (٢٣٣) و «شرح مقصورة ابن دريد» (٢٣٤) وكتاب

---

(٢٢٨) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٨٨
(٢٢٩) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٤٥
(٢٣٠) السيوطي : بغية الوعاة ص ٢٣٢ . ياقوت . معجم الادباء ج٩ ص ٢٠٣.
(٢٣١) ابن النديم . الفهرست ص ٨٤
(٢٣٢) اعراب ثلثين سورة توجد منه نسخة خطية في المتحف البريطاني واخرى في ايا صوفيا (زيدان . تاريخ اداب اللغة العربية ج٢ ص ٤٠١)
(٢٣٣) طبع هذا الكتاب في القاهرة .
(٢٣٤) وهو مخطوط بباريس (دائرة المعارف الاسلامية ج١ ص ١٤٨)

«المبتدىء و «اطرغش اللغة» وغيرها (٢٣٥) .

ويعتبر ابن جنى تلميذ ابي علي الفارسي الذي نشر اصوله النحوية . وهو ابو الفتح عثمان ، وكان مملوكا روميا لسليمان بن فهد الازدي ، تتلمذ علي الفارسي ثم انقطع للاقراء بالموصل (٢٣٦) . وعاش في بلاط سيف الدولة وصادق المتنبي وشرح ديوانه في كتاب سماه «الصبر» (٢٣٧) . وقد ولد ابن جني بالموصل قبل سنة ٣٠٠ هـ وخلف عدة مصنفات في النحو منها كتاب الخصائص وسر الصناعة والمصنف في شرح تصريف ابي عثمان المازني والتلقين في النحو والتعاقب والكافي في شرح القوافي للاخفش والمذكر والموءنث والمقصور والممدود والتمام في شرح الهذليين ومختصر في العروض ومختصر في القوافي والتذكرة الاصبهانية ومختار تذكرة ابي علي الفارسي وتهذيبها وغير ذلك (٢٣٨) . وظل ابن جنى في بلاط سيف الدولة حتى توفي هذا فرحل الى فارس وعاش في رعاية عضد الدولة ثم قصد بغداد وتوفي بها سنة ٣٩٢ هـ (٢٣٩) .

ومن اشهر علماء اللغة والنحو في بلاط الحمدانيين ابو الطيب عبد الواحد بن علي الحلبي الذي اقام في بلاط سيف الدولة حتى قتل سنة ٣٥١ هجرية حين احتل البيزنطيون حلب . وكان من العلماء المبرزين فقد روى ابو علي الصقلي قال (٢٤٠) «كنت في مجلس ابن خالويه اذ وردت عليه من سيف الدولة مسائل تتعلق باللغة فاضطرب لها ودخل خزانته واخرج لها كتب اللغة وفرقها على من كان عنده من اصحابه ليبحثوا فتركته وذهبت

---

(٢٣٥) ابن النديم . الفهرست ص ٨٤

(٢٣٦) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٣٩٤

(٢٣٧) نفس المصدر ج١ ص ٣٩٥

(٢٣٨) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٢٩٥

(٢٣٩) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩٥

(٢٤٠) الطباخ . اعلام النبلاء ج٤ ص ٣٥–٣٦

الى ابى الطيب وقد وردت عليه نفس المسائل وبيده قلم الحمرة فاجاب به ولم يغيره قدرة على الجواب . ويقول السيوطي (٢٤١) انه كانت بينه وبين ابن خالويه منافسة مما يدل على خطره فى اللغه والنحو ، ومن تصانيفه مراتب النحويين (٢٤٢) ولطيف الاتباع والابدال وشجرة الدر غير ان اكثرها قد ضاع (٢٤٣) .

ومن نحاة هذا العصر احمد ابن الحسين بن حمدان ابو العباس النميمي وكان اديبا شاعرا ذا معرفة بالنحو واللغة قدم حلب ايام سيف الدولة واملى بها فوائد نحوية وروى فيها عن ابى بكر بن الانبارى وابن دريد ونفطويه وروى عنه ابو بكر البقال ، وكان ابو العباس شيخا ثقة حدث ببغداد ودخل الموصل سنة ٤٧١ هـ (٢٥٤) . ومن تلاميذ ابن خالويه لغوي اخر هو احمد بن عبد الرحمن ابو النمر الاطرابلسي ، الذي قرأ عليه بحلب الجمهرة ودرس العربية والنحو وتوفى بعد سنة ٤١٣ هـ (٢٤٥) . كما برز لغويان آخران اولهما عبدالقاهر بن عبدالله بن الحسين الحلبي الذي درس النحو بحلب وشرح ديوان المتنبي وتوفى سنة ٥٥١ هـ (٢٤٦) الذى درس النحو بحلب وشرح ديوان المتنبى وتوفى سنة ٥٥١ هـ(٦١) اي انه ادرك اواخر ايام الحمدانيين ، وثانيهما علي بن محمد ابو الحسن الوزان الحلبي الذي الف كتابا في العروض وادرك عصر سيف الدولة (٢٤٧).

٥ ـ العلوم العقلية :

وجه الحمدانيون جل اهتمامهم الى الادب واللغة شأنهم شأن معاصريهم

(٢٤١) بغية الوعاة ص ٣١٧
(٢٤٢) موجود فى مكاتب الاستانة هو وكتابه فى الفرق
(٢٤٣) السيوطي . بغية الوعاة ص ٣١٧
(٢٤٤) السيوطى . بغية الوعاة ص ١٣١
(٢٤٥) نفس المصدر ص ١٣٩
(٢٤٦) نفس المصدر ص ٣١٠
(٢٤٧) الطباخ . اعلام النبلاء ج٤ ص ٥١

من الخلفاء والامراء الذين قربوا الشعراء بالدرجة الاولى كي يتغنوا بمديحهم وامجادهم ، ومع ذلك شهد بلاط سيف الدولة بعض العلماء في الفلسفة والطب والفلك . ذلك ان الامير الحمداني افسح المجال لكل لون من الوان المعرفة وفتح بابه لكل مفكر مهما كان اختصاصه ونزعته وجنسه حتى قصده العالم الكبير الفارابي وعاش في رحابه وكرس نفسه للانتاج العلمي والفلسفي بفضل رعاية هذا الامير ، الذي كان بلاطه اشبه ببلاط لورنزو العظيم في فلورنسا في القرن الخامس عشر الميلادي . لقد كان القرن الرابع كما اسلفنا عصر انحلال سياسي وقيام دويلات مستقلة : لكنه في الوقت ذاته كان عصر ازدهار فكري تفتحت فيه العقول على التراث اليوناني والفارسي والهندي ، فاخذت الافكار الجديدة وخاصة اليونانية تؤثر في البيئة الاسلامية اشد التأثير ، وساعد على انتشارها تشجيع الامراء وتسامحهم وبخاصة سيف الدولة الذي لم يضع في وجه الحرية الفكرية اية قيود .

والفارابي هو المعلم الثاني حتى قيل ان الحكماء اربعة اثنان قبل الاسلام وهما ارسطو وابو قراط ، واثنان في الاسلام وهما ابو نصر الفارابي وابن سينا (٢٤٨) . وهناك اختلاف في اسمه ونسبه وموطنه غير انه على الارجح تركي النسب من مدينة فاراب في تركستان (٢٤٩) ، رغم ان هناك من يقول انه فارسي (٢٥٠) . وهو ابو نصر محمد بن طرخان ابن اوزلغ (٢٥١) نشأ في وطنه ثم خرج متنقلا حتى استقر في بغداد حيث لقي ابا بشر متى بن يونس فدرس عليه المنطق ، كما درس في حران على

---

(٢٤٨) البيهقي . تاريخ حكماء الاسلام ص ٣٣

(٢٤٩) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج٢ ص ١٠٠ . البيهقي . تاريخ حكماء الاسلام ص ٣٠

(٢٥٠) ابن ابي اصيبعة . عيون الانباء ج٢ ص ١٢٤

(٢٥١) ابن النديم . الفهرست ص ٢٦٣

يوحنا بن خيلان ، وقرأ بعد عودته الى بغداد علوم الفلسفة وكتب ارسطو طاليس مرات عديدة حتى برع فيها ووقف على اسرارها (٢٥٢) .

ويبدو ان شهرة سيف الدولة جذبت الفارابي فرحل الى الشام فاقام بها في ضيافة الامير الحمداني . ويروي لنا المؤرخون قصة دخوله على مجلس سيف الدولة باسلوب لايخلو من المبالغة ، ومنها نستدل على فخامة هذا المجلس وقوة شخصية الفارابي وسعة اطلاعه . وكان الفيلسوف عند دخوله على سيف الدولة يتزيا بزي الاتراك ويتميز بالجرأة التي اذهلت الامير واغضبته غير انه لم يلبث ان ادرك سعة علم الفارابى واجادته «لسبعين لغة !» فعظم عنده وقربه اليه واختلى به (٢٥٣) .

كان الفارابى فيلسوفا وعالما وموسيقيا وزاهدا يحب العزلة والتأمل والابتعاد عن صخب الحياة ولهوها حتى انه حين سأل سيف الدولة عن الارزاق التى تكفيه طلب اربعة دراهم فضة فى اليوم ظل يتناولها وينفقها في ضرورات عيشه حتى توفى (٢٥٤) . وهو زهد غريب اذا قورن بجشع الشعراء الذين طمعوا بالاف الدنانير جزاء ابيات مديح متكلفة . وقد علا شأن الفارابي في البلاط الحمداني حتى انه حين توفي بدمشق سنة ٣٣٩ هـ صلى عليه سيف الدولة في خمسة عشر رجلا من خاصته (٢٥٥) .

الف الفارابى عشرات الكتب فى المنطق والعلم الطبيعى والعلم الالهى والعلم المدني ، وشرح كتب ارسطو المنطقية والاخلاقية ولخص قوانين افلاطون ومن كتبه «مراتب العلوم» و «تفسير قطعة من كتاب الاخلاق لارسطاليس» ، كما شرح لارسطو كتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب

---

(٢٥٢) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج٢ ص ١٠١

(٢٥٣) ابن خلكان ج٢ ص ١٠١

(٢٥٤) ابن ابي اصيبعة . عيون الانباء ج٢ ص ١٣٤ . ابن حجة الحموي : ثمرات الاوراق ص ١٠٣

(٢٥٥) ابن ابي اصيبعة . عون الانباء ج٢ ص ١٣٤

الخطابة وكتاب المغالطين (٢٥٦) وله تصانيف في علم النفس والالهيـــات ورسائل في «العقل والمعقول» و «النفس» و «الزمان» و «المكان» والواحد والوحدة» (٢٥٧) • ويمتاز تفكيره بانه مشوب بالتصوف ، وانه جعل المـادة صادرة عن اللـه ، وقد حاول جهده ان يجعل الفلسفة القديمه واحدة او على الاقل الا يكون هناك تناقض بين ارسطو وافلاطون • (٢٥٨) وتأثـر الفارابي في سياساته بتعاليم افلاطون فقال مثله بالملك الفيلسوف الـذي يقود سفينة المجتمع الى السعادة ، وتصور مدينة فاضـلة على غـرار جمهورية الفيلسوف اليوناني • ومما هو جدير بالذكر ان الفارابي اثـر تاثيرا كبيرا فى الرئيس ابن سينا (٢٥٩) •

وقد اهتم سيف الدولة بالطب اهتماما كبيـرا فكان اذا جلس الى الطعام حضر على مائدته اربعة وعشرون طبيبا فيهم مـن يأخـذ رزقيـن او ثلاثة لتعاطيه عدة علوم (٢٦٠) • وكان من ابرز اطبائه ابو القاسم عيسى الرقي التفليسي فقد كان بارعا بالطب عارفا لانواع العلاج • وكان يتناول مـن خزانة سيف الدولة اربعة ارزاق رزقا بسبب ممارسته الطـب واخـر جـراء ترجمته الكتب من السريانية الى العربية ورزقين بسبب علمين اخرين (٢٦١) ومن اطباء سيف الدولة المشهورين جابر بن منصور السكرى وهو مـن اهل الموصل وكان عالما بصناعة الطب ، وظل يعيش فى الموصـل على الاغلب حتى سنة ٣٦٠هـ (٢٦٢) •

---

(٢٥٦) ابن النديم . الفهرست ص ٢٦٣
(٢٥٧) كارادي فو . دائرة المعارف الاسلامية ج١ ص ٤٠٨
(٢٥٨) نفس المصدر ج١ ص ٤٠٨
(٢٥٩) ابن كثير . البداية والنهاية ج١١ ص ٢٢٤
(٢٦٠) ابن ابي اصيبعة . عيون الانباء ج٢ ص ١٤٠
(٢٦١) ابن ابي اصيبعة . عيون الانباء ج٢ ص ١٤٠
(٢٦٢) نفس المصدر ج٢ ص ١٤٣

ومن اشهر اطباء سيف الدولة ابو الحسين بن كشكرايا وهو تلميذ سنان وكان طبيبا ذا شهرة ببغداد ، حتى ان عضد الدولة استخدمه في البيمارستان العضدي ، وكان قبل ذلك في خدمة سيف الدولة ، ومما يؤثر عن هذا الطبيب انه كان يحرج الاطباء الاخرين باسئلته الدقيقة ومن كتبه في الطب الحاوي (٢٦٣) • —

وقد عني الامراء في ذلك العصر بعلم الفلك لانهم اعتقدوا اعتقادا راسخا بعلاقة النجوم بمستقبل الانسان ، حتى انهم لم يكونوا يقدمون على عمل دون استشارة المنجمين الذين رافقوهم في كل مكان • وكانت حران وهي من مدن الحمدانيين مركزا فلكيا عظيما لوجود الصابئة فيها ، وعلى ايديهم ارتقى علم الفلك بسبب عبادتهم للكواكب، لذلك برع هؤلاء في صنع الاسطرلابات والموازين الدقيقة والالات الهندسية • ومن اشهر المنجمين في بلاط سيف الدولة ابو القاسم الرقي الذي برع في رسم الجداول الفلكية وحساب النجوم ومن تلاميذه ابو القاسم العشري (٢٦٤) • كذلك كان القاضي ابو القاسم علي بن محمد ابن داود التنوخي الذي ولد بانطاكية سنة ٣٧٨ منجما بارعا ، (٢٦٥) ، وقد قصد سيف الدولة بحلب فاكرمه وشفع له ببغداد فتولى وظيفة كبيرة (٢٦٦) • ومما يدل على رقي علم الفلك شعر كشاجم فقد وصف الاسطرلاب بقوله • (٢٦٧)

ومستدير كجرم البدر مسطوح
عن رائق حسن الاشكال مصفوح
تنبيك عن طالع الابراج هيئته
بالشمس طورا وطورا بالمصابيح

---

(٢٦٣) القفطي . تاريخ الحكماء ص ٤٠٣
(٢٦٤) المصدر السابق ص ٤٢٩
(٢٦٥) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج١ ص ٤٤٥
(٦٦٢) ذكره الثعالبي في اليتيمة ج٢ ص ١٠٦
(٢٦٧) ديوان كشاجم ص ٢٩

وان مضت ساعة أو بعض ثانية

عرفت ذاك بعلم منه مشروح

ووصف البركار وهو من الات الهندسة بقوله : (٢٦٨)

ملتئم الشعرتين معتدل

ماشين من جانب ولاعبا

ارتفى مسماره وغيب عن

نواظر الناقدين تغييبا

لولاه ماصح شكل دائرة

ولاوجدنا الحساب محسوبا

لو عين اقليدس به بصوت

خر له بالسجود مكبوبا

وصفو القول ان الحياة الثقافية في لعصر الحمداني كانت زاهرة ، وقد حوى بلاط سيف الدولة كما مر بنا عشرات الشعراء والنحويين والعلماء قصدوه من العراق وفارس وانحاء الشام وغيرها ، فلقوا عنده كل تشجيع وتكريم .

---

(٢٦٨) نفس المصدر ص ١١

الفصل الثاني عشر

الحياة الاجتماعية

تزخر كتب التاريخ والادب ودواوين الشعراء المعاصرين بوصف الحياة الاجتماعية فى عصر سيف الدولة . ويبدو بصورة واضحة من مجموع هذه النصوص ان المجتمع الحمدانى ـ وبصورة خاصة فى ايام سيف الدولة ـ كان مجتمعا مترفا متحضرا ، نعمت فيه الطبقة العليا ـ اي الخاصة ـ بكل الوان المتعة ووسائل التسلية .

والحق ان المجتمع فى بلاد الحمدانيين السورية ورث حضارة قديمة ذات تقاليد راسخة هى الحضارة البيزنطية التى راجت هناك بحكم خضوع هذه الاقاليم للدولة البيزنطية كما اسلفنا . وقد امتلاءت مدن هذه المناطق بالكنائس والاديرة والحمامات والاسوار واالقلاع والقصور القديمة العريقة ، ومن جهة اخرى كان المجتمع خليطا من اجناس شتى خضعت منذ الفتح الاسلامى لحكم الدولة الاسلامية وعاشت فى ظل الثقافة العربية . فنجد العرب والروم والاراميين والارمن والترك والديلم وغيرهم من الاجناس والعناصر الاصيلة او المجلوبة ممن كونوا مجتمع الدولة الحمدانية(١) .

كانت مجالس اللهو فى هذا العصر مظهرا من مظاهر البذخ والترف والمجون . فعلى الرغم من انشغال الامراء الحمدانيين بالحروب

(١) انظر الفصل الاول .

الداخلية والخارجية ، عقدوا في قصورهم مجالس عامرة يقدم فيها الطعام والشراب بسخاء وافراط ، وتغني شهيرات القيان وكبار المطربين .

ذكر بعض المؤرخين ان سيف الدولة كان يقدم الخمر في مجالسه الليلية الادبية ، على حين يقول ابن خالويه انه كان لايشرب بل ويحضر الخمرة والقيان (٢) . وحين دخل الفارابي على سيف الدولة سأله : «هل لك ان تأكل ؟ فقال لا ، فقال هل تشرب ؟ فقال لا» (٣) . وكان الشعراء والادباء يحيطون بسيف الدولة في مجالس شربه ، فيدور عليهم غلمان حسان بكؤوس الخمر . وكان المتنبي يأبى الشرب ، لكن سيف الدولة الزمه ذات ليلة فشرب وسكر ، فقبل غلاما في المجلس ، ثم ندم وانصرف وبقي اياما لايحضر مجلس سيف الدولة ، فاستدعاه وامره بالشرب ثانية لكنه اقسم الا يذوق الخمر وقال :

رأيت المدامة غلابة تهيج للمرء اشواقه (٤)

ويذكر المؤرخون كذلك ان سيف الدولة كان يرتاد في بغداد مجالس الانس ودور اللهو بشارع دار الرقيق متنكرا فيسمع ويشرب دون ان يعرفه الحاضرون (٥) . كذلك اهدى ابو تغلب الى ملك الروم مرة خمرا من صنع الموصل (٦) .

وقد اطنب شعراء الحمدانيين في وصف الخمر ومجالسها وكؤوسها وحاناتها والندمان والغلمان ، مما يدل على انتشار عادة الشرب في خلال

---

(٢) ديوان ابي فراس ج٢ ص ٢٤١
(٣) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج٢ ص ١٠١-١٠٢
(٤) الغزولي . مطالع البدور ج١ ص ١٤٥
(٥) مسكويه . تجارب الامم ج٢ ص ٢٣٦ (الهامش)
(٦) رسائل الصابي ج١ ص ٨٦

والموصل . وكانت الحانات فيما يبدو كثيرة يديرها اهل الذمة . فيقصدهم الادباء والظرفاء ليلا ، حيث يخلعون العذار ويتمادون في اللهو . وقد ردد السري الرفاء في شعره ذكر «حانة اترجة الخمارة» بالموصل فقال (٧)

انخـت في حانـة اتـرجـة
وحبـذا حانتهـا مـن منـاخ
ثـم اطرحنـا الـدين في بيتهـا
حتى انسلخنا منـه اي انسـلاخ
حتـى اذا الشمس بهـا آذنـت
خيامهـا الصـفر بحـل الاواخ

وقد اكثر الوأواء الدمشقي في شعره من وصف الحانات والسقـاة والندمـان وتقاليد الشرب ، وانواع الخمر والوانها . ويدل شعره في هذا الصدد على الاباحية التي تفشت في ذلك العصـر . فهو ـ على حد قوله (٨) يقصر الليالي الطوال بشرب الراح ، ويقطع هـو وصحبـه الايام والليالي الممطرة بالشرب (٩) ، فاذا ما دارت الخمرة في راسه اخـذ يتغزل بالسقاة والساقيات . ويدلنا شعره على وجود انواع من الخمـور الصفراء والحمراء والبيضاء :

كأنهـا في الكأسـ ياقوتـة
تضحك في احشـاء بلـور (١٠)

وقد اولم الحمدانيون ـ فيما يبدو ـ بالغناء والموسيقى ، وضم بلاط سيف الدولة اكبر موسيقي اسلامي وهو الفارابي الذي يقال انـه

(٧) ديوان السري الرفاء ص ٧٥
(٨) ديوان الواء واء ص ٢٣
(٩) ديوان الواءواء ص ٧٠
(١٠) نفس المصدر ص ٦٠

اول من اخترع القانون (١١) • وحين ألم هذا الفيلسوف الموسيقار بسيف الدولة احضر له القيان «فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع الملاهي فلم يحرك احد منهم آلة الادعا به ابو نصر وقال له • اخطأت •• ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها واخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبا اخر ثم ضرب بها فبكى كل من كان بالمجلس ثم فكها وغير تركيبها فضرب بها ضربا آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب» (١٢) • ونجد موسيقارا اخر اشتهر بضرب العود هو شقارة العواد (١٣) •

ونسمع عن مغنية مبدعة ايام سيف الدولة هي «ظلوم الشهرامية» وهي قينة من بغداد (١٤) • ويبدو ان سيف الدولة لم يكن دائم الانصراف الى الغناء حتى قيل انه حرم النبيذ والقيان(١٥) • وقد اجتمع مع مظلوم في بلاط هذا الامير مغن اخر مبدع هو «ابن المنجم»، فاراد ابو فراس ان يستمع اليهما مجتمعين فوعده سيف الدولة باحضارهما الى مجلسه في نفس اليوم ، ولما كان ابو فراس يعلم قلة رغبة سيف الدولة الى السماع فانه امر « ظلوم » بالاستعداد ، واستدعى ابن المنجم إلى داره ، وظل ينتظر وعد سيف الدولة حتى غروب الشمس ، فلما يئس كتب اليه :

ملكك الجوزاء او ارفع

وصدرك الدهناء بل اوسع

---

(١١) ابن خلكان . وفيات الاعيان ج٢ ص ١٠١–١٠٢

(١٢) نفس المصدر ج٢ ص ١٠١–١٠٢

(١٣) العمري . مسالك الابصار ج١ ص ٣٠١

(١٤) الثعالبي . يتيمة الدهر ج١ ص ٢٨

(١٥) دوان أبي فراس ح٢ ص ٢٤١

وقلبـك الرحـب الذى لم يـزل

للجـد والهـزل به موضـع

رفه بـقرع العود سمعـا غـدا

قرع العـوالي كل ما يسمع (١٦)

وحين بلغت هذه الابيات الوزير ابا محمد المهلبى امر بها فلحنـت وغنى بها فلم يزل يشرب عليها ويطرب طوال نهاره (١٧) • ومـن مغنـي سيف الدولة سقارة العواد الذى احيا له مجلس غناء فى دير باعربـا قرب الموصـل (١٨) •

ونسمع في شعر الشعراء عن الات الطرب المستعملة انـذاك فنجـد العود والطنبور والناي والزير ، فقال الواواء في وصـف الناي والعـود :

فالناي يـبدي اليـنا يشجي وللعـود ضـرب

ووصف كشاجم الات الطرب المختلفة كالعود والمعزفة والطنبـور والمزهر والناي ، وخلف لنا عدة قطع في وصـف القيـان و «العوديـات» اللاتي كن متعلمات مثقفات كما يبدو من شعره • وكانت المعزفة الة وتريـة صخابة لهـا حنين وكانت تكسى بجلد الغزال الابيض (٢٠) اما الطنبور فالة جوفاء وصفها هذا الشاعر بقوله (٢١) :

ممنطـق الخصـر اجـوف

جيـده ضعـف سائـره

---

(١٦) نفس المصدر السابق ج٢ ص ٢٤٢ ــ يتيمة الدهر ج١ ص٢٨

(١٧) نفس المصدر ج٢ ص ٢٤٣

(١٨) العمري . مسالك الابصار ج١ ص ٣٠١

(١٩) ديوان الواء واء ص ٣٨

(٢٠) ديوان كشاجم ص ٨

(٢١) نفس المصدر ص ٩٩

لفظـــــه لفـــظ عاشـــق

يشتـــكي هجـ

ذو لســـــانين فوقــــه

عـــذ

لقد ظهرت في هذا العصر طبقة خاصة تـ
وهي جماعة من الادباء الفكهين ، عاشت متحلقة
النفوذ وغاية غاياتها ادخال السرور على قلوبهم ،
وقد اختص بالمنادمة اشخاص معينون وجب ان
ويجمعوا بين العفاف والمجون ، ويتمتعوا بسرعة
ويجب ان يكون النديم «عالما بكل ما يتنافس فيه
والجوهر النفيس والالات المحكمة وانواع الطيب و
من الخيل والسلاح وسائر مايهدى منه الى الملوك
وتعرض عليهم اوقات نشاطهم •• ويستظرف منه
البطيخ والصوت البديع والشعر الشجي واللحن

ومما يدل على اهمية المنادمة في القرن الرابع
سيف الدولة وطباخه الف كتابا سماه «ادب الند
ذكر فيه صفات النديم وفضائله ، وشرب النبيذ
وكيف يجب ان يتصرف الندماء في حضرة العظماء في
وشربهم وحديثهم • ومن قراءة هذا الكتاب نجد ان
بلغوا الغاية في اداب المجالس وقواعد الطعام و
ان يكون سائغ الحديث وان يكون له جمال ومروءة

---

(٢٢) كشاجم . ادب الندماء ص ١١

وطيب رائحة وفصاحة لسان (٢٣) • ومن اداب الطعام ان يغسل يده بالطشت والابريق ويتخلل بالسواك اذا انتهى والا يكثر من شرب النبيد وان يكون حذرا في حديثه • وقد ذكر لنا كشاجم (٢٤) قصة مؤداها انه دعا شخصا ماجنا من «النبيذيين» فسمعه يحمد الله في وسط الطعام لشيء خطر بباله ، فغضب المدعو معتقدا ان كشاجم حمد الله ليعلمه بانه شبع •

وقد ادى وجود الجواري والغلمان الى نوع من التهتك الخلقي ليس له مثيل ، يدل عليه ماانتجه ذلك العصر من شعر ونثر لم يبال بالقواعد الاخلاقية والدينية المتعارف عليها • ويزخر ديوان كشاجم وشعر الصنوبري والسري الرفاء والواءواء بالتغزل بالغلمان والجواري مما يدل على ان هذه العادات كانت من المظاهر الاجتماعية السائدة في ذلك العصر ، فهم يصفون لنا مجالسهم في الحانات والدور والرياض والزيارات الليلية الفاجرة السرية التي قام بها اولئك الغلمان والجواري (٢٥) •

واذا انتقلنا الى الطعام وجدنا عناية الامراء والاغنياء بموائدهم كبيرة ، واهتماما بان يكون السماط نظيفا انيقا يزخر بالازهار والرياحين وتتصاعد من ارجائه الروائح العطرية ، وان يكون الحاضرون في غاية النظافة وحسن المظهر • فهم يبدأون بغسل ايديهم في طشوت واباريق بعيدا عن مائدة الطعام ، ويكون صاحب الدار اول من يجلس على المائدة واخر من يقوم منها (٢٦) • وكان على الحاضرين ان يجاروا الامير والرئيس ويجاملوه ويظهروا امامه صبرهم على الجوع واحتمالهم للشبع ، لذلك

---

(٢٣) كشاجم . ادب الندماء ص ١٧
(٢٤) نفس المصدر ص ٣٦
(٢٥) ديوان الواءواء ص ٦٢ ــ الروضيات ص ٢٥
(٢٦) كشاجم ادب الندماء ص ٣٨

لجأ بعض الظرفاء الى اتخاذ مخازن مملوءة أدهانا في خفاف غلمانهم او اللفات مدرجة في المناديل «حتى اذا ما جاءوا اغتنموا الغفلة فاكلوا (٢٧) واذا ما فرغوا من تناول الطعام غسلوا ايديهم ونظفوا اسنانهم كل على حدة بالخلال او السواك» (٢٨) .

اما انواع الطعام فكانت كثيرة متعددة لايحصيها عد فهناك القطائف والكوامخ المشهية والجداء والحملان المشوية والفراريج والحمام والمقلوات في الطواجن والسمك والطيور والخضروات كالطرخونة والبقول والبيض والشطيرات والجبن القريشاء والبذنجان والزيتون والحلوى المختلفة كاللوزينجة والسنبوسجة والكشكية وهي ماء الشعير يعجن باللبن والجوز واللوز والتبالة وهو طعام مصنوع بالتوابل ، والدبس والتمر القرفان (اي الجاف) والفواكه كالسفرجل والبطيخ والتفاح والعنب الرازقي والرمان (٢٩) . وكانوا يحرصون على ان ينثروا البنفسج والنرجس والرياحين المختلفة التي اعتنى باقتنائها الادباء والظرفاء حتى قال الحسين الواساني (٣٠) .

والرياحين ما رهنت عليه - جبتي عند احمد الفاكهاني

وبين ايدينا قصيدة طويلة لشاعر فكه عاش في العصر الحمداني بالشام هو الحسين ابن الحسن بن واسان المتوفى في سنة ٣٩٤ هـ يصف فيها وليمة اقامها في خمرايا من قرى الشام لجماعة من اصحابه ، انتهت بان اتى المدعوون على كل مافي بيته من طعام وشراب وفاكهة وريحان ،

---

(٢٧) نفس المصدر ص ١٢ .
(٢٨) نفس المصدر ص ٣٨
(٢٩) انظر معجم الادباء ج٩ ص ٢٣٢ — ٢٥٨
(٣٠) نفس المصدر ج٩ ص ٢٤٧

لى صبوا الاث بيته (٣١) . وقيمتها انه يعدد فيها الوان الطعام والفاكهة والحلوى والشراب المعروفة انذاك واليك بعض ابيات من هذه القصيدة .

لبن فارس وخبز طري
وقدور تغلي على الداركان (٣٢)
وشواء من الجراء ومعلو
ف دجاج وفائق الحملان
كلما شقق الفراريج شققت
لغيظي من فعله قمصاني

شربوا لي عشرين ظرفا من الراح لذيذ المذاق احمر قاني

كما خلف لنا كشاجم طباخ سيف الدولة وشاعره قصيدة في وصف مائدة طعام ننقل هنا بعض ابياتها :ـ

متى تنشط للاكل
فقد اصلحت الجونة
وقد زينها الطاهي
لنا احسن تزيينة
فمن جدي شونساه
وعصبنا مصارينه
وفرخ وافر الـزو
راجدنا لك تسمينه
وطهيوج وفروج
اجدنا لك تطحينه

---

(٣١) نفس المصدر ج٩ ص ٢٣٣ـ٢٥٧
(٣٢) الداركان : الموقد

واوســـامل شطيـــــرات

بزيت المــاء مدهـــونة

وباذنجـــان بـــوران

به نفســـك مفتونة (٣٣)

كما وصف هذا الشاعر الباقلاء والبطيخ والدجاج والقطائف كقولـــه في هذه الابيات يصف القطائف .

عندي لاضيافي اذا اشتد السغب

قطائف مثل قراطيس الكتب

تدمج دهـــن الاوز مما قـــد شـــرب

وابتل مما عام فيه ورسب

وجاء ماء الورد فيه وذهب

وغاب في السكر عينا واحتجب

في مجتمع الخاصة هذا ازجى الميسورون والشعراء والظرفاء اوقات فراغهم في مسرات لا تنقطع ، وابتدعوا الالعاب ووسائل التسلية والرياضة. وساعدهم على ذلك انهم كانوا لايشغلهم شاغل ولا يرهقهم عمل ، واذا اجتمع الفراغ والشباب . والجدة كان ذلك مفسدة للمرء على حد قول الشاعر. وكانت هذه الطبقة المترفة تتسلى في القصور والدور بلعبة النرد التـــي عرفها امراء آل حمدان ولعبوها في قصورهم ، كما فعل ابو تغلـــب بـــن ناصر الدولة الذي كان يجمع حوله في الليل طائفة من الشعراء والندمـــان

---

(٣٣) ديوان كشاجم ص ١٨٠

(٣٤) نفس المصدر ص ١٠

والحاشية ليسلي بهذه اللعبة (٣٥) •

ويقول كشاجم في لعبة النرد ان فيها «انواع اللعب وصنوفا من الترتيب والنصب الا ان عدد البيوت واحد لانقص ولازيادة على الاصل المتعارف فيها محكمان وصاحبها مع ذلك وان لم يكن سريع النقل رشيقه صحيح الحساب مصيبه حسن الترتيب جيده ••» • وذم النرد بقوله :

ايها المعجب المفاخر بالنر
د ليزهى به على الاخوان
قد لعمري حرصت جهدي على لي
ت كذا لو لم ياتك النصان

وكان الشطرنج لعبة منتشرة لان الفقهاء تساهلوا فيها لعدم وجود عامل الحظ وهو تراث ملكي جاء من الهند وفارس (٣٧) • وكان الشطرنج يلعب على رقعة مربعة حمراء من الادم ، وكثيرا ماكان اللاعب يلجأ الى النوادر واللطائف ليلهي خصمه ويشغله (٣٨) • ولم يستطيع اي تحريم شرعي ان يقضي على الولع بسباق الخيل والمراهنة عليها • وهذا عدا ما يقال عن سباق الحمام ومارشة الديكة وهي من الالعاب السائدة في تلك العصور •

وملعب للخيل في تراح
منفسح الارجاء والنواحي
عمرته بفتية صباح
مؤتلفي الاخلاق والارواح

---

(٣٥) ياقوت . معجم الادباء ج١٤ ص ٢٤٢
(٣٦) ادب الندماء ص ٥٩-٦٠
(٣٧) ديموبين . النظم الاسلامية ص ٢٢٦
(٣٨) كشاجم . ادب الندماء ص ٥٥

مناسب للبرق والرياح
يطيره خصر بلا جناح
خال من الحران والجماح
ذي دهمة تضحك من وضاح
وترفات الاكسر الملاح
سكرى بنشوى من حميا الراح

وكان لسيف الدولة ميدان لسباق الخيل فى حلب تتوسطه دكة يتفرج منها على الخيل وهي تجرى ، كما كانت الكرة والصولجان لعبة يمارسها الحمدانيون وكان ناصر الدولة يلعبها (٣٩) وكذلك سائر الامراء وبخاصة سيف الدولة . وحفلت اشعار شعرائهم بذكره كما الف بعض كتابهم في هذه الرياضة كتبا ككتاب « المصائد والمطارد » الذي الفه كشاجم وضمنه ذكر حفلات الصيد والاته واخبار الملوك ولطائفهم (٤٠) . ولابي فراس الحمداني قصيدة طويلة مشهورة تدعى « المزدوجة الطردية » وصف فيها حفلة صيد وقنص وجعلها رجزا قصصيا يروى لنا فيه انه دعى الصقار ذات يوم وامره باعداد سبعة صقور كبار ومجموعة من كلاب الصيد وامر الفهاد والبازيارين بالاستعداد ، ثم امر طباخه بحمل الطعام وشرابيه بحمل الشراب ، وقصد مع عشرين من اصفيائه «عين قاصر» وهي مظنة الصيد فبلغوها عند الغروب . وفى الصباح التالى اسرجوا الخيول واخرجوا البزاة والفهاد ، وساروا في صف طويل . ثم قصدوا « نهر

(٣٩) لتنوخي . نشوار المحاضرة ج١ ص ١٧٨–١٨٣
(٤٠) الفزولي . مطالع البدور ج١ ص ٢١٧–٢١٨

الوادي» فاصطاد الطيور من خضر وبقع وبيضاني وكراكي وبعد ان فرغوا من الصيد جهز الطباخ اوساط الحجل والدراج ، وجيء بالشراب فأكلوا وشربوا ، ثم قاموا يستأنفون صيد الوحوش والظباء بواسطة الصقور والكلاب فقتلوا كثيرا منها ثم عدلوا الى الجبل لصيد الكباش يطردونها بالخيل والكلاب وظلوا هكذا يصطادون نهارا وياكلون ويشربون ليلا سبع ليالي متوالية . وفيما يلي بعض ابيات هذه القصيدة (٤١) .

دعوت بالصقار ذات يوم
عند انتباهي سحرا من نومي

قلت له اختر سبعة كبارا
كل نجيب يرد الغبارا

يكون للارنب منها اثنان
وخمسة تفرد للغزلان

واجعل كلاب الصيد نوبتين
ترسل منها اثنين بعد اثنين

ثم تقدمت الى الفهاد
والبازياريين بالاستعداد

وانت ياطباخ لاتباطا
عجل لنا اللبات والاوساطا

ادرت شاهينين في مكان
لكثرة الصيد مع الامكان

---

(٤١) ديوان ابي فراس ج٢ ص ٤٣٥-٤٤٨

فلم نزل نقلـــي ونشوي ونصب
حتى طلبنـــا صاحيا فلم نصب

فلـــم نزل سـبع ليال عـــددا
اسـعد من راح واحظى من غدا

وكانت الحمامات مثابة للمتعة والتسلية فضلا عن انهــا لازمـة لاهل ذلك العصر من المترفين الذين اغرموا بحسن المظهـــر • وقــد افــرط السري الرفاء في وصف حمامات الموصل الجميلة الواسعــة ذات القبـــب التي تبدو كحصن من البلور ، فاستمع الى قوله فـــي وصـــف حمـــام بالموصـــل (٤٢) :

كـــأن ماقبـــب من ســـقفه
صـــحن من البلـــور مكبـــوب

والـــى قوله (٤٣) :

بيت له داخـــل حـــلّ النعيـــم بـــه
وخارج فيه للقلب الشجي مزح
ذو قبة كســـماء والبـــدور بهـــا
جاماتها في ذرى في الجو منشرح

ويبدو من اشعار الشعراء ان الحمام كان يتخذ مكانا لشرب الخمـــر والاكل والقصف حيث يحتشدون بسراويلهم الخضر وغلائلهم الحريريـــة ومآزرهم التي يأتزرون بها ، ويبدو كذلك ان القيان كن يقمن حفلات الغناء في داخل الحمامات (٤٤) •

---

(٤٢) ديوان السري الرفاء ص ٥٩
(٤٣) نفس المصدر ص ٦٩
(٤٤) نفس المصدر ص ٧٣

ولاعجب ان تكثر الحمامات فى البلاد الحمدانية وبخاصة حلب التى كانت مدينة متأثرة بالبيزنطيين ، وكانت حمامات الشام مزخرفة مزينة بالصور وهى عادة ترجع الى الفترة الاخيرة من حضارة الروم فى الشرق(٤٥) • ويقول ديمومبيين (٤٦) ان الحمام الساخن ليس من ابتكار المسلمين ، فالجنود الفاتحون وجدوه في سورية واقتبسوه • وقد احتج الاتقياء اول الامر على هذه الحمامات ذات التماثيل والصور ومع ذلك ظلت هذه قائمة فى الاسلام خلال عدة قرون •

---

(٤٥) آدم متز الحضارة الاسلامية ج٢ ص ١٦٢ ،
(٤٦) النظم الاسلامية ص ٢٢٧

مصـــادر البحث

المخطوطات :

الازدى (٦٢٣هـ ـ ١٢٢٥ م) جمال‌الدين ابوالحسن علي بن كمال الدين ابن حسين الازدي المصـري .

١ ـ «اخبار الزمان في تاريخ بني العباس او كتـاب الـدول المنقطعـة» (مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ)

التنوخي (٣٨٤ هـ ـ ٩٩٤ م) ابو علي المحسن بن علي بن محمد ابن ابي الفهـم .

٢ ـ كتاب جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكـرة (مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب ـ بغداد رقم ١٥٦٣)

الزبيدى ، محمد بن الحسن ابو بكر

٣ ـ «تاريخ النحاة» (مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة)

ابن شداد (٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٥ م) عزالدين ابو عبدالله محمد بـن ابراهيم بن خليفة الحلبـي .

٤ ـ الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة» (مخطوطة مصـورة بجامعة الدول العربية ينتهي الجزء الاول في سنة ٣٩٣ هـ وعـدد اوراقـه ١٥٠ ورقة) .

الذهبي (٧٤٨ هـ ـ ١٣٤٧ م) شمس الدين محمد بن احمـد .

٥ ـ «تاريخ الاسلام» (مخطوطة مصورة عن نسخة المكتبة الاحمديـة بحلب ومحفوظة بمعهـد احياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة ـ رقم ٦٥/٥٨٠) .

٢ • المصادر المنشورة باللغة العربية

الابشيهي (٨٥٠ هـ ـ ١٤٩٩م) شهاب الدين محمد بن احمد ابو الفتح •

١ ـ «المستطرف في كل فن مستظرف» (بولاق ١٢٦٨م) •

ابن الاثير (٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٨ م) ابو الحسن على بن محمد بن ابى الكرم الملقب عزالدين •

٢ ـ «الكامل فى التاريخ» (المطبعة الازهرية ١٣٠١ هـ) •

الاسكندرى ، احمد •

٣ ـ «المفصل فى تاريخ الادب العربى» (القاهرة ١٩٣٤) •

(القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى) ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارس •

٤ ـ « مسالك الممالك » (ليدن١٩٢٧ م) •

بن ابي اصيبعة (٦٦٧ هـ ـ ١٢٧٠ م) موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى •

٣ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء (القاهرة ١٢٩٩ ـ ١٨٨٢ م) •

امين ، احمد •

٦ ـ « ظهر الاسلام» (القاهرة ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م) •

الانطاكى (القرن الخامس الهجرى) يحى بن سعيد •

٧ ـ تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي (بيروت مطبعة الاباء اليسوعيين سنة ـ ١٩٠٩)

يلي تاريخ سعد بن البطريق المسمى كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق • كذلك نشره كراتشكوفسكى وفازلييف ضمن مجموعة Patrologia Orientalis باريس ١٩٢٤

البديعى (١٠٧٣ هـ ـ ١٦٦٢م) الشيخ يوسف الدمشقي

٨ ـ «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» (تحقيق مصطفى السقا وجماعتـــــه
(دار المعارف • القاهرة ١٩٦٣) كذلك نشر علـــى هامشـــ العكبـــري
(القاهرة ١٣٠٨)
البرقوقـــي ، عبدالرحمـــن •
٩ ـ «شرح ديوان المتنبى» الطبعة الثانية ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة
١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م) (وطبعه دار الكتاب العربى ببيروت ـ اوفسيت) •
البستانى ، فؤاد افـــرام •
١٠ـ ابوالطيب المتنبى ـ المدائح والاهاجى (المطبعة الكاثوليكية بيروت
(١٩٣٧
البلاذرى (٢٧٩ هـ ـ ٨٩٢م) ابو العباس احمد بن يحيى بن جابر
١١ـ «فتوح البلدان » (ليدن ١٨٦٦م)
١٢ـ «انســاب الاشراف» (بيت المقدس ١٩٢٦) •
بلاشـــــير
١٣ـ ديوان المتنبى فى العـــالم العربى
بينـــز ، نورمـــان
١٤ـ الامبراطورية البيزنطية (تعريب د• حسين مؤنس ومحمود يوسف
زايـــد ـ القاهـــرة ١٩٥٠ •
يني ، جورج
١٥ـ تاريخ حلب (المقتطف ـ الجزء السادس)
بيشنـــوف
١٦ـ تحـــف الانبـــاء •
التنوخى (٣٨٤ هـ ـ ٩٤٩م) ابو على المحسن بن على القاضـــى
١٧ـ «كتاب جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة»
«مطبعة امين هنـــدية ـ القاهرة ١٩٢١) •

الثعالبي (٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م) ابو منصور عبدالملك بن حمدان ابن اسماعيل النيسابوري .

١٨ــ «يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر» (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ــ القاهرة ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م ــ ومطبعة الصاوي: القاهرة ١٣٥٢ هـ ــ ١٩٣٤م) .

جبري ، شفيق .

١٩ــ نبوة المتنبي (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق الجزء ٧ مجلد ١٠ تموز ١٩٣٠) .

ابن جبير (٦١٤ هـ ــ ١٢١٧م) ابو الحسين محمد بن احمد الكناني الاندلسي

٢٠ــ رحلة ابن جبير (المكتبة العربية ــ بغداد ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٧

الجندي ، درويش

٢١ــ الشعر في ظل سيف الدولة (القاهرة ١٩٥٩)

جوون ، بولس

٢٢ــ نظرة في محاسن حلب الشهباء (مجلة المشرق العدد ١٠)

الحاتمي ٣٨٨ هـ ــ ٩٩٨ م) ابوعلي محمد بن الحسن الك

٢٣ــ «الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي وساقط شـ (تحقيق د. محمد يوسف نجم ــ بيروت ١٩٦٥ دار صادر) .

حسن ابراهيم حسن .

٢٤ــ تاريخ الاسلام السياسي (مكتبة النهضة ــ القاهرة ١٩٤٦) .

حسين ، طه .

٢٥ ــ مع المتنبي (القاهرة ١٩٦٠) .

حلمي ، محمد كمال .

٢٦ــ «أبو الطيب المتنبى» (القاهرة ١٣٣٩ هـ ــ ١٩٢١ م) •

الحنبلــى ، عبدالحى بن العماد •

٢٧ ــ «شذرات الذهب في اخبار من ذهب» (عني بنشره حسام الديــــن المقدسي ١٣٦٠ هـ)

الحموى (٦٢٦ هـ ــ ١٢٢٩ م) شهاب الدين ابوعبدالله ياقوت الحمــوى الرومــى •

٢٨ ــ «معجــم البلــدان» ١٠ اجــزاء (القاهـــــرة ١٣٢٥ هـ ــ ١٩٠٩م) و (طبعــة وستنفلد ــ ليبــزج ١٨٦٦) •

٢٩ــ «معجم الادباء» عشرون جزء (دار المأمون ــ القاهرة) •

ابن حوقل «القرن الرابع» ابو القاسم محمــد بن علي البغدادى الموصلــي النصيبى •

٣٠ــ «كتاب صــورة الارض» (ليدن ١٩٣٨) و (طبعة بيروت مكتبة دار الحياة) •

ابن خالويه ، ابو عبدالله الحسين بن احمد الحمدانى •

٣١ــ «شرح ديوان ابى فراس» (تحقيق د• سامى الدهان دمشق ١٩٤٤)

ابن خرداذبة (٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م) ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن احمد الخراســانى •

٣٢ــ المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) و (ليدن ١٩٢٧ م) •

ابن خلدون ٨٠٨ هـ ــ ١٠٤٦ م عبدالرحمن بن محمد

٣٣ــ مقــدمة ابن خلدون

ابن خلكان ٦٨١ هـ ــ ١٢٨١ م شمس الدين ابو العباس احمــد ابن ابراهيم بن ابي بكر الشافعي البرمكي •

٣٤ ــ «وفيات الاعيان» جزآن (بولاق ١٢٩٩) و (النهضة المصرية بالقاهــرة ١٣٦٧ ــ ١٩٤٨ م

الخوارزمي (٣٨٣ هـ ــ ٩٩٣ م) جمال الدين ابو محمد بن العباس .

٣٥ ــ رسائل ابي بكر الخوارزمي (مطبعة الجوائب ــ القسطنطينية ١٢٩٧ هـ) .

ديتريشي

«شرح ديوان ابي الطيب المتنبي» (برلين ١٨٦١ م) .

ابن دريد (٣٢١ هـ ــ ٩٣٣ م) : ابو بكر محمد بن الحسن الازدي البصري .

٣٦ ــ «الاشتقاق» (القاهرة ١٢٨٨ هـ) .

ديمومبين . موريس جودفروا .

٣٧ ــ «النظم الاسلامية» ترجمه الى العربية فيصل السامر بالاشتراك مع صالح الشماع (بغداد ١٩٥٢) و (بيروت ١٩٦١)

الذهبي (٧٤٨ هـ ــ ١٢٤٧ م) ، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد .

٣٨ ــ «دول الاسلام» (حيدر اباد ــ الدكن ١٣٦٤ هـ) .

رونسيمان ، ستيفن

٣٩ ــ «الحضارة البيزنطية» (القاهرة ١٩٦١) ــ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد

الزركلي ، خير الدين

٤٠ ــ «الاعلام» (القاهرة ١٣٤٦ هـ ــ ١٩٢٧ م) .

الزيات ، احمد حسن

٤١ ــ «تاريخ الادب العربي» (لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٣٩) .

زيدان ، جرجي .

٤٢ ــ «العرب قبل الاسلام» (دار الهلال ــ مراجعة د • حسين مؤنس) •
٤٣ ــ تاريخ التمدن الاسلامي (القاهرة ١٩٠٢ ــ ١٩٠٦)
٤٤ ــ تاريخ اداب اللغة العربية (دار الهلال بالقاهرة ١٩١٢ م)

السري الرفاء (٣٦٢ هـ ــ ٩٧٢م)

٤٥ ــ ديوان السري الرفاء (القاهرة ١٣٥٥هـ) •

ابن سعيد ، نورالدين ابو الحسن علي بن موسى بن محمد بن سعيد المغربي الاندلسي •

٤٦ ــ «المغرب في حلي المغرب» (ليدن ١٨٩٨) •

السيوطي

٤٧ ــ بغية الوعاة

الشابشتي (٣٨٨ هـ ــ ٩٩٨م) ابو الحسن علي بن محمد •

٤٨ ــ «الديارات» (نشرة كوركيس عواد ــ بغداد ١٩٥١ م)

ابن شاكر

٤٩ ــ فوات الوفيات (بولاق ١٢٨٣ هـ)

ابو شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهيرالدين الروذراوري

٥٠ ــ «ذيل كتاب تجارب الامم» (باعتناء امدروز ــ القاهرة ١٣٣٤ ــ ١٩١٦م) ابن الشحنة (٨٩٠ هـ ــ ١٤٨٥ م) محب الدين شيخ الاسلام ابو الوليد محمد •

٥١ ــ «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب» (مطبعة الاباء اليسوعيين ــ بيروت) •

٥٢ ــ «التاريخ المسمى بروضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر» (بهامش بن الاثير ــ طبعة بولاق) •

٦٣ ــ رسائل الصابي

الصاحب (٣٨٥ هـ ــ ٩٩٥ م) ابو القاسم اسماعيل بن عباد •

٥٤ ــ «الكشف عن مساوىء شعر المتنبي» (تحقيق محمد حسن ال ياسين ــ بغداد ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م)

الصنوبري

٥٥ ــ الروضيات

الصولي (٣٣٥هـ ــ ٩٤٦م) ابو بكر محمد بن يحى .

٥٦ ــ «اخبار الراضي بالله والمتقي لله او تاريخ الدولة العباسية من ٣٢٢ ــ ٣٣٣ من كتاب الاوراق» (نشره هيورث دن ــ القاهرة ١٩٣٥) .

الصيرفي ، بن منجب (٥٤٢ ــ ١١٤٧م) امين‌الدين ابو القاسم علي.

٥٧ ــ «الاشارة الى من نال الوزارة» (القاهرة ١٩٢٤)

ابن الطباخ

٥٨ ــ «اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» (حلب ١٣٤٢ هـ ــ ١٩٢٣م)

الطبري (٣١٠ هـ ــ ٩٢٢ م) ابو جعفر محمد بن جرير

٥٩ ــ «تاريخ الرسل والملوك» ٨ اجزاء (مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م) و (ليدن ١٩٠١) .

ابن الطقطقي (٧٠٩ هـ ــ ١٣٠٩م) محمد بن علي بن طباطبا

٦٠ ــ الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية (طبعة مرسو ١٨٩٤) و (طبعة غريفزولد ١٨٥٨م)

ابن العديم (٦٦٠ هـ ــ ١٢٦١م) كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله .

٦١ ــ «زبدة الحلب من تاريخ حلب» (نشرة الدكتور سامي الدهان ــ دمشق ١٣٧٠ هـ ــ ١٩٥١ م) .

ابن عساكر

٦٢ ــ «التاريخ الكبير» (دمشق ــ ١٩١٠) .

العمري (٧٤٢ هـ ـ ١٣٤١ م) ابن فضل الله شهاب الدين احمد •
٦٣ ـ «مسالك الابصار في ممالك الامصار» (دار الكتب المصرية ١٣٤٢ ـ ١٩٢٤ م)
الغزولي (٨١٥ هـ ـ ١٤١٢ م) علاء الدين بن عبدالله البهائي
٦٤ ـ «مطالع البدور في منازل السرور» القاهرة ١٣٠٠ هـ
الغزي ، كامل بن حسين بن مصطفى الحلبي •
٦٥ ـ «نهر الذهب في تاريخ حلب» (حلب ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٤٦م)
فازلييف ، آ
٦٦ ـ «العرب والروم» (ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي شعيرة ، القاهرة) •
ابو الفدا (٧٣٢ هـ ـ ١٣٣١ ـ ٣٢ م) عماد الدين اسماعيل بن علي
٦٧ ـ «كتاب المختصر في اخبار البشر» (القاهرة ١٣٢٥) و (باريس ١٨٤٠ باعتناء رينوذ وماك كوكين ديسلان) •
ابو فراس (٣٥٧ هـ ـ ٩٦٨ م) الحارث بن سعيد بن حمدان
٦٨ ـ «ديوان ابي فراس الحمداني» بيروت ١٩٤٤ ، تحقيق د • سامي الدهان •
ابن الفقيه (القرن الثالث) ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني
٦٩ ـ «مختصر كتاب البلدان» (ليدن ١٣٠٢هـ) •
قدامة (٣٢٠ هـ ـ ؟) ابو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي
٧٠ ـ «نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة» (باعتناء دي غويه ـ بريل ١٨٨٩ و ١٩٦٥) ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة •
القزويني (٦٨٢ هـ ـ ١٢٨٣ م) : زكرياء بن محمد بن محمود
٧١ ـ «اثار البلاد واخبار العباد» (جوتنجن ١٨٤٨ م)
القفطي (٦٤٦ هـ ـ ١٢٤٨ م) جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف الشيباني •

٧٢ ـ «تاريخ الحكماء» (ليبزك ١٩٠٣)
ابن القلانسي (٥٥٥ هـ ـ ١١٦٠ م) ابو يعلي حمزة
٧٣ ـ «ذيل تاريخ دمشق» تحقيق امدروز ... مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨ م
القلقشندي (٨٢١ هـ ـ ١٤١٨ م) ابو العباس الشيخ شهاب الدين، احمد بن عبدالله بن سليمان بن اسماعيل .
٧٤ ـ «صبح الاعشى في صناعة الانشاء» (القاهرة ١٣٣٣هـ)
كشاجم (٣٥٠ او ٣٦٠ هـ ـ ٩٦١ او ٩٧٠م)
٧٥ ـ «ديوان كشاجم» (بيروت المطبعة الانسية ١٣١٣ هـ)
٧٦ ـ «ادب النديم» (بولاق ١٢٩٨هـ او)
٧٧ ـ «ادب الندماء ولطائف الظرفاء» (الاسكندرية ١٣٢٩ هـ)
الكرملي ، الاب انستاس
٧٨ ـ «معنى حلب الشهباء» (مجلة المشرق ، عدد ١٠)
كنار ، ماريوس .
٧٩ ـ «نخب تاريخية وادبية»
الكندي
٨٠ الولاة والقضاة (٣٥٠ ـ ٩٦١ م) ابو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب
الكيالي ، سامي
٨١ ـ سيف الدولة وعصر الحمدانيين (المطبعة المدنية ـ حلب ١٩٢٧)
لامانس .
٨٢ ـ «حلب في القرن العشرين» (مجلة المشرق عدد ٩٢٨)
مبارك ، زكي
٨٣ ـ «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» (القاهرة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٤م).

٨٣ ــ «النثر الفني في القرن الرابـع الهجـري» (القاهرة ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٣٤ م)
محمد كرد علي .
٨٤ ــ «خطط الشام» (دمشق ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ م)
متز ، آدم
٨٥ ــ «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري» (ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي ابي ريدة ، القاهرة ١٩٤٠ ــ ١٩٤١م)
المتنبي .
٨٦ ــ «ديوان المتنبي»
ابو المحاسن (٨٧٤ هـ ــ ١٤٦٩ م) جمال الدين يوسف بن تغـري بردى الاتابكي .
٨٧ ــ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (كاليفورنيا ١٩٠٩ م) (القاهرة ١٣٥١ هـ ــ ١٩٣٢م)
المسعودي (٣٤٦ هـ ــ ٩٥٦ م) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي
٨٨ ــ «مروج الذهب ومعادن الجوهر» (القاهـرة ١٣٤٦ هـ) و (باريس ١٨٦١ ــ ١٨٧٧ م)
٨٩ ــ «التنبيه والاشـراف» (القاهرة ١٣٥٧ هـ ــ ١٩٣٨م) و (ليدن ١٨٩١م)
مسكويه (٤٢١ هـ ــ ١٠٣٠م) ابو علي احمد بن محمد بن يعقـــوب
٩٠ ــ «تجارب الامم وتعاقب الهمم» (نشره آمد روز ــ القاهرة ١٣٣٢ هـ ــ ١٩١٤م)
المقدسي (٣٨٧ هـ ــ ٩٩٧م) شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمـد ابن ابي البناء الشامي البشاري
٩١ «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» (ليدن ١٩٠٦م)
المقدسي ، انيس
٩٢ «امراء الشعر العربي في العصر العباسي» (بيروت ١٩٣٦)

٩٣ ـ «تطور الاساليب النثرية في الادب العربي» (بيروت ١٩٣٥)
المقريزي (٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١م) تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
٩٤ ـ «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار» (بولاق ١٢٧٠هـ)
ابن نباته (٣٧٤ هـ ـ ٩٨٤م) ابو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباته الفارقي
٩٥ ـ «ديوان خطب ابن نباته» (بيروت ١٣١١هـ)
ابن النديم (٣٨٣ هـ ـ ٩٩٣م) محمد بن اسحق
٩٦ ـ «كتاب الفهرست» تحقيق جوستاف فلوجيل (ليبزغ ١٨٧١م)
الهمداني ، (٣٩٨ ـ ١٠٠٧م) ابو الفضل بديع الزمان احمد بن الحسين
٩٧ ـ «مقامات الهمداني» (مطبعة الجوانب ـ القسطنطينية ١٢٩٨هـ) .
الواءواء الدمشقي ، ابو الفرج محمد بن احمد الغساني .
٩٨ ـ «ديوان الواءواء» نشره كراتشكوفسكي (ليدن ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣م)

المصادر الاجنبية

Bury , B ,

- A History OfThe Eastern Roman Empire, From The Fall Of Irene To The Accession Of Basil I (London 1889)

Canard . Marius ,

- Deux Episodes Des Relations .

Codrington ,O,

- A Manual Of Musulman Numismatics , (London 1904) .

Devens,

- Le Roman De L,emir Seif

Diehl, Charles ,

- History Of The Byzantine Empire , (New York 1945) ,

- Byzantine Army (Cambridge Mediaeval History, Vol. IV, 1936,)

Dussaud ,R,

- Topographie Historique De La Syrie Antikue Et Medievale (Paris 1927)

Edde, Jacque,

- GeographieDu Liban Et De La Syrie

Elisseeff

- Les Monument De Nur-Addin. (Institut Francais De Damas, Vol. XIII)

Freytag ,G. W.,

- Geschichte Der Dynastien Der Hamdaniden Im Mosul Und ALeppo (Zdmg - X,XI,1856-1857) .

FinLay, George

- History Of The Byzantine Empire (London , 1856)

Grousset,

L,empire Du Levant : Histoire De La question D,orient, (Paris, 1949)

Hayd,w.,

- Histoire DeCommerce Du Levant. (Leipziq 1923)

Hitti. Phillip. k.,

- History Of Syria (London 1951)

Lane - Poole, Stanley,

- Catalogue OfThe Collection Of Arabic Coins Preserved In The Khedivial Library In Cairo (London 1897).

Le Strange, Guy.,

- The Lands OfThe Eastern Caliphate (Cambridge 1931)

Macler, Feredric.

- Armenia (Cambridge Mediaeval History VoL 1V, 1963)

Nichalson, R.A.

- A Literary History Of The Arabs. (Camb idge 1930).

Ramsay, w.,

- The Historical Geography Of Asia Minor (London 1890).

Runciman . Steven.,

- Byzantine Civilization (London 1948).

Sadruddin , Muhammad.,

- SaifuddaulahAnd His Times, (Lahore 1930),

Sauvaire, H..

- Deux Dirhems Hamdanides Inedites
(Annuaire DeLa Societe Francais De Numismatique D. Archeologie
Tome V, 1885)

Sauvage, J.,

- Inventaire Des Monument D. Alep. (Rei,1931-1)

- Deux Senctu aires Chiites D' Alep. (Syria 1928. FASC. 3 et 4 Arch, ISL. IX)

Schlumberger,

- Un Empere Empereur Byzantin Au Dixieme Siecle-Nicephore Phocas. (Paris 1840).

Shedd, William .,

- Islam And the Oriental Churches, Their Historical Relations. (Philadelphia 1904).

Smith. George Adam.,

- The Historical Geography Of The Holy Land. (London 1931).

Vasiliev ,A.A,.

- History Of The Byzantine Empire (Wisconsin, U.S.A. 1952).

The EasternRoman Empire (CambridgeMediaeual History (Vol. IV. 1936

The Encyclopaedia Of Islam (Lyeden-London 1934)

The (Cambridge Medieval History, Vol. IV. 1936 Cambridg

فهـــرســـت الاعـــلام

ـ ا ـ

— د —

— ذ —

— ر —

— ش —

— ص —

- ض -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ل -

- م -

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

فهـــرســـت البلدان والاماكـــن

- ح -

— ر —

— ز —

— س —

– ش –

– ص –

– ط –

– ع –

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

– ن –

— هـ —

— و —



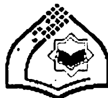
المحتـــوى

الموضوع — الصفحة

الباب الثانى
العلاقات مع الروم

الباب الثالث
الحضارة والثقافة

الموضوع	الصفحة



جدول الخطا والصواب

الصفحة	الخطا	الصواب
٣٢	والان شئت	والان ان شئت
٣٩	السطر السابع	يحذف
٤١	اقوام	لاقوام
٤٢	ابو الحسن	وابو الحسن
٤٨	العاقل	للعاقبل
٤٨	قشير العجلان	قشير والعجلان
٥١	رشيد النسيمي	رشيق النسيمى
٥٢	متقلدا	متقلد
٥٢	امير	اميرا
٥٧	اشدهما	اشدهم
٦٣	حيث ان انصاره	حيث انصاره
٦٣	ابا عمه	ابن عمه
٦٤	محنة	محنته
٦٥	وهدني	وهدلي
٧٠	واورد	واراد
٧٤	لنجدة	بنجدته
٧٥	تكجور	بكجور
٧٥	فانجازوا	فانحازوا
٧٥	لعد	بعد
٧٨	وصار	وصادر
٧٨	وحبري	وخيري
٧٨	بلقوه	بالقوة
٨٤	اعداد	اعدادا
١١٤	يوحنا	يوحنا
١٤٣	صداءها	اصداءها
١٤٩	يحكى	يحظى
١٦١	لقبدق	القبدق
١٦٣	الركن	الركون
١٦٦	وقتل منها في الفريقين	وقتل منها كثيرمن الفريقين

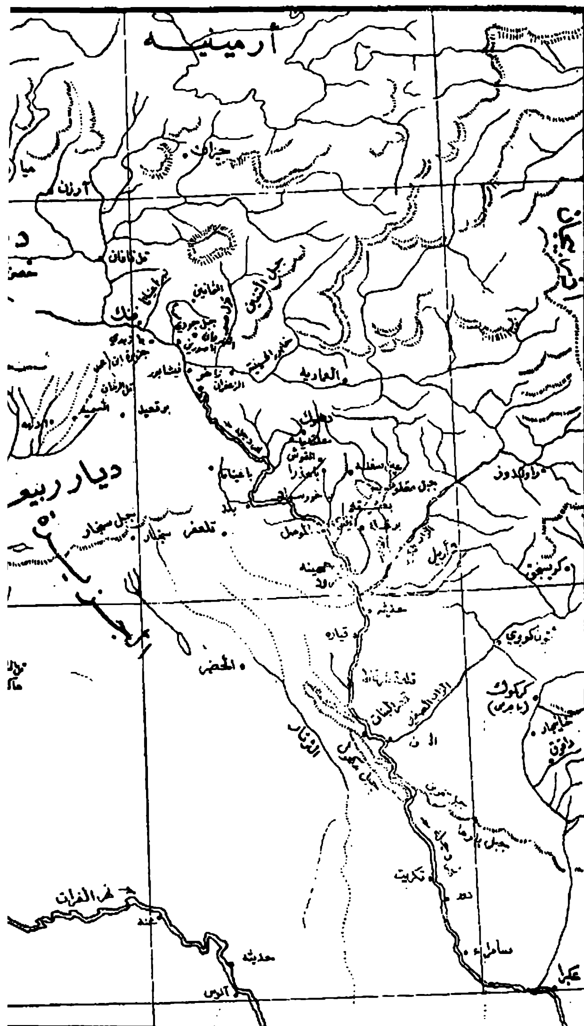
الصفحــــة	الخطــــا	الصـــواب
١٧٧	بشجاعـــة	بشاعـــة
١٩٢	حيـــا	حيـــن
١٩٣	ا المدنيـــة	المدينـــة
١٩٤	الفطمـــة	العظيمـــة
٢٠٠	لم يستطيـع	لم يستطع
٢٠١	وقـــب	وقفـــ
٢٠١	المسلميـــن	المسلمـــون
٢٠٧	اورد	ورد
٢١٤	عبد الملك الاشرفم	عهد الملك الاشرف
٢١٦	اســـوء	اســـوا
٢١٦	يحل السطر العاشر محل التاسع	
٢١٧	به	بهـــا
٢١٧	الدار المنتخب	الدر المنتخب
٢١٨	اندريه دانفينس	اندريه دايفنس
٢١٨	ما جـــاء	جـــاء
٢١٨	جبل الجيوش	جبل الجوشن
٢١٨	قصورا باطرة	قصور اباطرة
٢٢١	ديوران	ديوان
٢٢٢	الاليـــاء	الاوليـــاء
٢٣١	باجـــرا٢	باجـــزاء
٢٣٤	بنقض	بنقض
٢٣٦	اخـــراج	خـــراج
٢٤١	بمحص	بحمص

الصفحة	الخطأ	الصواب
٢٤١	والغيران	والفلران
٢٤٢	الصنصاف	الصفصاف
٢٤٦	مدة	مدن
٢٥٠	المدسي	المقدسي
٢٥٧	اللم	الله
٢٥٩	الناشيء الاحصي	الناشيء الاصفر
٢٦٤	هيبته	هيئته
٢٦٤	نلبه	طلبه
٢٦٦	ملاحك ة	ملاحة
٢٦٧	خرسان	خراسان
٢٦٩	الشهشق	الشمشقيق
٢٧٠	بتبابه	بثباته
٢٨٠	يلققي	يلقى
٢٨٢	قورطبة	قرطبة
٢٨٨	احول	حاول
٣٠٩	السطر (١٤)	يحذف



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

خارطة الجزيرة وال



و الثغـور (أيام الحمدانيين)

